كيف كنا نعيش قبل الثورة؟

هذا الكتاب لا يقدم لك إجابة أكاديمية عن هذا السؤال، لكنه يغوص بشكل عشوائي في مقاطع من مقالات كتبها العبد لله خلال العامين السابقين على الثورة.

ربما ستكتشف أن هذا الكتاب عبارة عن قطع من البازل عليك أن تعيد تركيبها لتخرج منها بصورة عامة، ولا يخدعنك أنك ستجد بها مقاطع هي حكايات شخصية، أو نقد لأفلام سينمائية أو تعليق على ماتشات كرة قدم؛ فالأمور كلها متشابكة، بقي عليك أن تفض هذا الاشتباك ثم تقوم بإعادة ترتيب عناصره من جديد بطريقتك لتثبت في خيالك صورة عن هذه الأيام قبل أن تضيع من ذاكرتنا تحت وطأة ضجيج عمليات الهدم والبناء الجارية الآن.

أما لماذا كان زمن الغم الجميل؟

فهو زمن «الغم» لأن النظام القديم كاد أن يحولنا إلى شعب طموحاته أقل مما يلزم لأن يعيش الإنسان تجربة حياة تستحق الفخر.

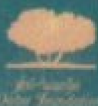
أما «الجميل» فذلك لأمرين: الأول لأنه كان مفتاح الثورة، والثاني ليقيني الخاص أن أيام ربنا كلها جميلة.

عمر طاهر





دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



تصميم الغلاف: كريم آدم

الطبعة الأولى سبتمبر ٢٠١٢
الطبعة الثانية أكتوبر ٢٠١٢
الطبعة الثالثة نوفمبر ٢٠١٢

دار بلومزبري ـ مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

الترقيم الدولي: 9789992194928

طبع في مصر بشركة صحارا للطباعة

عمر طاهر

زمن الغم الجميل

يوميات مواطن مصري قبل الثورة



دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



محتويات

مقدمة

(١)

كيف كنا نعيش قبل الثورة؟

هذا الكتاب لا يقدم لك إجابة أكاديمية عن هذا السؤال، لكنه يغوص بشكل عشوائي في مقاطع من مقالات كتبها العبد لله خلال العامين السابقين على الثورة.

أيام كان طموح الوطنيين أن ينجح المعارضون في انتخابات البرلمان بغض النظر عن آرائنا الشخصية فيهم: مصطفى بكري عن دائرة حلوان، والبدري فرغلي عن بور سعيد، وحمدين صباحي عن البرلس، وسعد عبود عن بني سويف، وغيرهم؛ ليكونوا صوت المعارضة القارسة في وجه أحمد عز وعصابته. ربما لم يحققوا ما نحلم به، لكن وجودهم في الصورة في حد ذاته كان أشبه بـ«نواية» تسند القلب.

أيام كنا نفرح بأخبار عن تغيير وزاري محتمل، على الرغم من إيماننا التام أنه مجرد تغيير وجوه لا سياسات (بس أهو أي تغيير وخلاص!).

أيام كنا نحلم أن تعود أيام اللواء أحمد رشدي في إدارة الداخلية، بينما نتبادل قصص أسطورية عن حملاته المفاجئة على أقسام الشرطة متنكرًا، وعن

احتشاد النظام الفاسد لعزله؛ لأنه كان مستقيمًا. وعن تجار المخدرات الذين طرحوا في الأسواق صنفًا من الحشيش مخفضًا يحمل اسم رشدي احتفالًا برحيله بعد أن أوقف حالهم واستطاع أن ينهي أسطورة الباطنية.

أيام كان طموح بعضنا أن يأتي إسماعيل الشاعر وزيرًا للداخلية كونه أرحم من العادلي (أي حد الصراحة كان أرحم من العادلي)، كنا نحكي ونتحاكى عن وقفة الشاعر لينظم المرور بنفسه في وسط المدينة، وتواجده في الاستاد لا في أرض الملعب، لكن على مقاعد المتفرجين وبينهم.

أيام كنا نرى الأمل معلقًا بأن يعين مبارك نائبًا له، وكنا وقتها نرى اللواء عمر سليمان هو الأجدر بهذا المنصب، وكنا نؤمن أن وصوله إليه سيقلص الحيز الذي يشغله جمال مبارك في الصورة العامة.

أيام كنا نرى أن مبارك نفسه أرحم من جمال مبارك.

أيام كنا نحلم بوزير معارض يصلح أن يكون بطلًا شعبيًّا.

أيام كنا لا نمتلك قصصًا نرويها بحب وإعجاب عن حكوميين شرفاء إلا عبد السلام المحجوب عندما كان محافظًا للإسكندرية، وعادل لبيب عندما كان محافظًا لقنا، وأحمد جويلي عندما كان وزيرًا للتموين، وحسب الله الكفراوي آخر وزراء الإسكان المحترمين، وأسامة الباز مستشار الرئيس الذي كنا نصافحه في المترو كل يوم ونلتقط معه الصور التذكارية في الندوات والمعارض الفنية.

أيام كنا «ناخد وندي» في حواراتنا عن أن مصطفى الفقي يعتبر «تبعنا»، وحسام البدراوي بقعة أمل في مستنقع الحزب الوطني، وعلاء مبارك أخف دمًا من شقيقه، والجنزوري يعيش قيد الإقامة الجبرية لأنه الوحيد الذي «بجّح» في مبارك وعائلته، وأن «أبو غزالة» أعاد البلد إلى مبارك بعد أن ضاعت منه

في أحداث الأمن المركزي ١٩٨٦ فكافأه مبارك بالنفي من المشهد العام، وأن رضا هلال اختفى لأنه يمتلك أدلة على انحرافات أخلاقية لشخصية عامة، وأن اللواء سعد الدين الشاذلي ممنوع من الحديث لأنه يعرف عن حرب أكتوبر ما لم يعرفه أحد؛ خصوصًا عن مدى صدق أو وهم مسألة الضربة الجوية، وأن فضيحة حسام أبو الفتوح سببها رفضه لعرض جمال مبارك في أن يكون شريكًا في توكيل سيارات الـ«بي إم دبليو»، وأن أحمد بهجت في أمريكا لا للعلاج ولكن هربًا من التضييق عليه بسبب تبني محطته لحوارات محمد حسنين هيكل، وأن فاروق حسني مستمر في موقعه إلى الأبد لأنه يحوز رضا الهانم، وأن هشام طلعت مصطفى في السجن نتيجة حرب خفية بينه وبين أحمد عز.

أيام كانت حواراتنا السياسية قائمة على الاستنتاجات والربط التعسفي بين الأخبار وتطبيقات نظرية المؤامرة والاعتماد على تكنيك «بيقولك» ومعاملة الشائعات كحقائق، كل هذا في الوقت نفسه الذي كان النظام يتغنى فيه بسياسة «الشفافية».

أيام كان التنفيث متاحًا في حدود متابعة جريدة الدستور قبل أن يُجري لها الدكتور السيد البدوي جراحة إزالة الرحم، ومتابعة برنامج القاهرة اليوم قبل أن يتم رفع عمرو أديب من الشاشة لأن المحطة التابع لها لم تدفع إيجار استوديوهاتها، والالتفاف حول هامش سخرية محمود سعد من المسؤولين على التلفزيون المصري قبل أن يهدمه على رؤوس الجميع أنس الفقي في آخر [illegible] قبل أن يودع السجن، وأفلام خالد يوسف على كل ما فيها من هتاف مباشر، ومقالات عبد الحليم قنديل قبل أن يتم منعه من الكتابة؛ وهو قرار سبقه قيام الأمن باختطافه وضربه وتجريده من ملابسه وإلقائه في منطقة مهجورة في المقطم، وتتبع مقالات فهمي هويدي الممنوعة من النشر في

جريدة الأهرام، وسلالم نقابة الصحفيين بقيادة محمد عبد القدوس بميكروفونه الشهير، ووقفات حركات كفاية و٦ إبريل التي تنتهي دائمًا باعتقالات جماعية، والتصويت للإخوان في انتخابات البرلمان نكاية في الوطني، والتظاهر من أجل فلسطين والعراق؛ والاشتراك في العمل العام لدعم جهود إغاثة غزة وغيرها، واعتصامات وإضرابات العمال التي تطورت بمرور الوقت، فقد بدأت بأن خلع عمال شركة «أمنيستو» ملابسهم ووقفوا شبه عراة أمام البرلمان، ثم أخذت شكل مسيرات جنائزية تحمل نعوشًا للوطن بقيادة عمال النوبارية وشركة المعدات التليفونية، مرورًا بالأب الذي اصطحب زوجته وأطفاله الثلاثة ثم علق كل واحد منهم في مشنقة أمام البرلمان، نهاية بـ«عبده عبد المنعم كمال» ابن مدينة القنطرة غرب الذي أشعل النار في نفسه أمام وزارة الصحة قبل الثورة بأيام.

كان أقوى ما امتلكه البعض في التنفيث هو استقبال البرادعي في مطار القاهرة عقب عودته من الخارج للاستقرار في مصر، ثم مشروع الدولة الموازية (ببرلمانها وحكومتها) الذي تم إعداده عقب انتخابات ٢٠١٠ المزورة، المشروع الذي أقلق مبارك ونفث عنه بـ«قلشة» (خليهم يتسلوا)، وقد كانت «القلشة» التي قصمت ظهر البعير.

(٢)

كيف كنا نعيش قبل الثورة؟

إنها الأيام التي كنت تخاف فيها أن تدخل إلى قسم شرطة حتى لو كنت صاحب حق أو مجنيًا عليه يريد الإبلاغ عما تعرض له (تغير الوضع والحمد لله بعد الثورة فأصبح ذهابك للقسم زي قلته).

أيام كنت تخاف أن تدخل مستشفى عامًا فتنقطع الكهرباء وأنت تحت يد الجراح في غرفة العمليات، أو تدخل مستشفى خاصًا فيتم وضعك على جهاز تنفس صناعي وإمدادك بأكسجين مغشوش معبأ في مصانع وطنية (لم يتغير الوضع بعد الثورة لكن احتل حديث المستشفيات مرتبة متأخرة في معرض حواراتنا اليومية).

أيام كنت تخاف «وأنت داخل على لجنة» حتى لو كل أوراقك سليمة لكنك تؤمن في قرارة نفسك أن التلاكيك لا حدود لها، وأنك معرض لخطر ما لا تعرفه تحديدًا (تغير الوضع بعد الثورة فأصبحت اللجان مهمة قطاع الطرق وأصبح الخوف حتميًا).

أيام كنت تخاف أن تربي ذقنك، وتتردد ألف مرة قبل أن تصلي في مساجد بعينها، وتفكر ألف مرة قبل أن تساعد عائلة ربها معتقل سياسيًا (ارتبكت الداخلية بعد ظهور نجم الجيل الملتحي وتحوله إلى موضة فلم تعد الداخلية قادرة على التمييز بين لحى الشباب إن كانت روشنة أم تدينًا إلى أن أودع نجم الجيل السجن فهدأت الحيرة قليلًا خصوصًا بعد تحول الشباب من إطلاق شعر الذقن إلى إطلاق شعر الصدر تعاطفًا مع قضية تمورة، نضج هذا الشباب بعد الثورة وتكتل صانعًا جمعية خيرية اسمها «إحنا آسفين يا ريس»).

أيام كنت تتفادى أن تشتري الفاكهة معظم الوقت خوفًا من أن تكون مرشوشة بمبيدات مسرطنة أو محقونة بهرمونات مسممة أو مستوردة من إسرائيل بصلاحية منتهية (وهي الفترة التي تبنى فيها الوطن مصطلح «الأورجانيك»، وكانت الفاكهة الأورجانيك مناسبة تمامًا لموسيقى «الترانس» التي اندلعت وقتها).

أيام كنت تخاف أن تنزل من سيارتك وأنت تقف محبوسًا في انتظار مرور الشريفة، تقضي وقتك في الاتصال بمديرك في العمل تستأذنه في أن تتأخر عن العمل فتكتشف أنه يقف على مسافة منك في الشارع نفسه.

أيام كنت تخاف أن تذهب إلى أي مصلحة حكومية من دون أن تتواصل مع شخص يستطيع أن يحرك لك هناك المراكب العطلانة سواء بقوة النفوذ أو بقوة «الشاي.. كل سنة وأنت طيب».

أيام كنت تخاف على مستقبل أبنائك في العثور على عمل وأنت لا تمتلك الواسطة (بعد الثورة تغير الوضع بفضل المجلس العسكري الذي قضى على الواسطة بأن قضى على فرص العمل أصلًا).

أيام كنت تخاف على أبنائك من قهرة عبد الحميد شتا؛ طالب السياسة والاقتصاد، ابن العائلة الفقيرة، وصاحب تقدير الامتياز الذي تم رفضه في اختبارات وزارة الخارجية بحجة أنه غير لائق اجتماعيًا.

أيام كنت تخاف أن ترفع قضية لتسترد حقك ليقينك أن يوم المحاكم بسنة، وأن العدالة البطيئة ستقهرك قبل أن تنصفك إذا طال عمرك وعشت لحظة إصدار الحكم (بعد الثورة وللأمانة أصبح القضاء أسرع.. بس قابلني لو عرفت تجيب أي أدلة).

أيام كنت تخشى أمناء الشرطة أكثر من اللصوص، والمخبرين أكثر من البلطجية. وتتفادى الشحاذين بينما تقع بكامل إرادتك في قبضة النصابين.

أيام كان الخوف هو شقيقك في هذا الوطن.

أيام كنت تتسلح بالخوف لحماية أكل عيشك ورزق بيتك وأمن أولادك وبناتك، فكانت النتيجة أن بدأت ترى كل هذا يضيع من بين يديك بالتدريج، حتى وصلت إلى اللحظة التي آمنت فيها أن الخوف لم ينفعك، وأنك لم تعد تملك ما تخاف عليه فنزلت إلى ميدان التحرير لتسحق كل هذا البؤس.

هل كانت كل أيامنا موجعة؟

هذا الكتاب يغوص في مقالات كُتبت عندما كانت كرة القدم مصدر بهجة وإلهام. أيام عاد علم مصر إلى الحياة وظل لست سنوات - بطول ثلاث بطولات لكأس الأمم الإفريقية - بطل المشهد في كل بلكونة وسيارة.

أيام كنا نؤمن أن الكرة تلهي الناس عن السياسة إلى أن فوجئ أهل السياسة أن الكرة هي التي علمتنا أن نتجمع ككتلة صلبة مخيفة في كل مرة كنا نسد فيها الشوارع فرحًا ببطولة، إلى أن استثمرت الحالة نفسها بنفسها لعدة أعوام فكان أن تجمعت الكتلة من جديد في الميدان متجانسة؛ بحكم فرحة السنوات في المدرجات والشوارع، مخيفة كونها تؤمن بالمستحيل وبقوة «يا حبيبي يا رسول الله».

أيام انشغلنا بماتش الجزائر وتوابعه سواء معارك شوارع الخرطوم و«آه يا عالية آه يا عالية يا حبيبتي يا مصر رايتك برده عالية»، أو رباعية أنجولا الهزيلة و«آه يا خضرا آه يا خضرا مصر فاجرة مصر قادرة».

أيام كان الكلام في السياسة لا ينصب على تزوير الانتخابات قدر ما ينصب على تزوير عقد «جدو».

أيام كان الانقسام غير مرهون بتعديلات دستورية، لكنه مرهون بتعديلات طريقة لعب الأهلي على يد حسام البدري.

أيام كان التصويت غير مرتبط بـ«صندوق انتخابي»، لكنه تصويت ناتج عن قدرة شيكابالا على التهديف من خارج «صندوق الـ١٨».

أيام كانت الجلسات ساخنة، لا بسبب الحديث عن صفقات المجلس العسكري، لكن بسبب الحديث عن صفقات عدلي القيعي.

أيام كان الإعلام مثار هجوم البعض، لا لكونه يحارب الثورة، لكن لكونه يحارب التوأم حسام وإبراهيم حسن.

أيام كان القضاء علامة استفهام، ليس لتعطيله مسألة عزل أحمد شفيق، لكن لتعطيله حكم عودة مجلس إدارة الزمالك بقيادة ممدوح عباس.

أيام كان النظر إلى المستقبل لا يتوقف عند سؤال: ما مصير الثورة؟ لكن كان يتوقف عند سؤال ما مصير عصام الحضري؟

إنها الأيام التي كانت الثرثرة تحوم فيها حول إذا ما كانت حنان ترك قد عادت لزوجها بالفعل أم إنها عودة صورية؟ وهل جائزة «الميوزك أوورد» التي يتنافس عليها عمرو دياب وإليسا جائزة حقيقية أم يتم شراؤها بالمال؟ ومن النجم الذي سيقوم ببطولة إعلانات بيبسي في رمضان القادم؟ وهل مكالمة شوبير التي عبر فيها عن رأيه في مرتضى منصور وأقصته عن الشاشة فترة، كانت حقيقية أم مفبركة؟ وهل صحيح أن شوبير تم استبعاده لأنه قال لجمال مبارك في مداخلة هاتفية: «باقولك إيه يا جيمي»؟ ومن في النجمات جعلها «النفخ» أكثر بريقًا؟ ومن التي «نفخت فاتنفخت»؟ لماذا تم استبعاد نيرفانا من البيت بيتك؟ وما أجر مدحت شلبي الشهري الذي جعله يصرح أنه أغلى مذيع رياضي في مصر؟ وهل صحيح أن عادل إمام حصل على ٢٥ مليون جنيه مقابل صوته فقط في إعلان فودافون بينما يحصل الفخراني على ١٥ مليون فقط مقابل مسلسل كامل؟ هل يوم كسوف الشمس سيكون إجازة رسمية؟

وكيف يكون العلاج إذا ما نظرت إلى الشمس يومها؟ السعودية شافت هلال رمضان خلاص.. طب وبالنسبة لـ«ليبيا»؟ تفسيرات الزحام التقليدية تملأ الأركان: زحام النصف الأول من رمضان سببه أن رمضان «جه فجأة» كعادته، وبداية من النصف الثاني من الشهر يتم تبرير الزحام بأنه «كل سنة وأنت طيب.. رمضان جِري.. والله لسه بدري والله يا شهر الصيام». امتحان الفيزياء في الثانوية العامة مأساة تنتهي بمحاولات تقطيع شرايين أو استنشاق الكُلَّة، ووزير التعليم يؤكد أن الامتحان في مستوى الطالب المتوسط، وأنهم سيراعون الصعوبة عند التصحيح، والنتيجة نسبة نجاح تفوق ٩٨٪ في الفيزياء، لكن نسبة النجاح في الإحصاء ٦٠٪ (الوزير بيقطع من هنا ويوصل من هنا).

لم تكن ثرثرتنا كلها تافهة؛ في بعض الأحيان كانت محاولة للتعايش مع مشاكل يومية لا حل لها، كالزحام والغلاء والتحرش وسوء أخلاق الشارع وطفاسة شركات المحمول والشروط التعجيزية لإلحاق الأطفال بالمدارس الشهيرة (هي أمور لم تتغير أيضًا بعد الثورة، لكن تم تلخيصها كلها في شكوى واحدة «منكو لله خربتوا البلد»).

ثرثرة حول كيف أن سعر الشقة مائة متر في مدينتي يتجاوز المليون جنيه لأن الحديد «شاحح» في السوق ويباع بأسعار احتكارية. عن القطارات التي «تلبس في بعضها» كل شهر. عن اشتغالات الحكومة المتكررة من حزام الأمان، للّوحات المعدنية الجديدة، للضريبة العقارية، للقاح إنفلونزا الخنازير والطيور واشتعال المنافسة في سوق الكمامات، لمنحة الرئيس التي يعقبها في اليوم التالي مباشرة قرار برفع الأسعار بما يوازي قيمة المنحة. عن البيوت التي لا يخلو واحد منها من مريضين على الأقل؛ واحد منها في منتصف شبابه بينما

رئيس جمهورية تعدى الثمانين يطل علينا يوميًا دون شعرة بيضاء واحدة، وبعد أن فقع مرارة الملايين أرغمته الشيخوخة على أن يخضع لآلام مرارته هو شخصيًا وسط تأكيد المقربين على أنها مجرد آلام في المعدة لأنه لم يعد قادرًا على هضم البرادعي الذي ظهر في الصورة فجأة.

ثرثرة عن أزمة المياه القادمة بعد أن وقعنا من حسبة الدول الإفريقية (على هامشها استوديو تحليلي للتوزيع الساخر للمياه في مصر.. الفقراء يشربون ماء المجاري بينما ملاعب الجولف يتم ريها بالماء العذب). عن أزمة الغاز بعد أن بعناه رخيصًا لإسرائيل (على هامشها كان الملثم يتدرب بقوة في مكان ما مجهول في انتظار لحظة كان واحدًا من قلائل يؤمنون أنها قادمة لا محالة). عن أزمة الأخلاق بعد أن أصبح «كل واحد ماشي بدراعه» (قبل قليل من إنفلونزا الثورة التي كان من أهم أعراضها تهيؤات من نوعية أن الجيش والشعب دراع واحدة). وعن ذلك اليقين بأننا «داخلين على أيام سودا» (ما زلنا نعيش هذا الشعور؛ الفرق أنك أيام مبارك كنت تخاف الدخول على أيام سوداء بخطوة إلى الأمام، بينما الآن تخاف من الدخول على أيام سوداء بخطوة إلى الخلف).

(٣)

كيف كنا نعيش قبل الثورة؟

ربما ستكتشف أن هذا الكتاب عبارة عن قطع من البازل عليك أن تعيد تركيبها لتخرج منها بصورة عامة. ولا يخدعنك أنك ستجد بها مقاطع هي حكايات شخصية، أو نقد لأفلام سينمائية أو تعليق على ماتشات كرة قدم؛ فالأمور كلها متشابكة، بقي عليك أن تنفض هذا الاشتباك لتثبت في خيالك

صورة عن هذه الأيام قبل أن تضيع من ذاكرتنا تحت وطأة ضجيج عمليات الهدم والبناء الجارية الآن.

أما لماذا كان زمن الغم الجميل؟

فهو زمن «الغم» لأن النظام القديم كاد أن يحولنا إلى شعب طموحاته أقل مما يلزم لأن يعيش الإنسان تجربة حياة تستحق الفخر.

أما «الجميل» فذلك لأمرين: الأول لأنه كان مفتاح الثورة، والثاني ليقيني الخاص أن أيام ربنا كلها جميلة.

عمر طاهر

شارع قصر العيني - القاهرة

٢٠١٢/٦/١

توكّلنا على الله

تمَّ بحمد الله افتتاح زاوية «منتهى السعادة» للكتابة اليومية لصاحبها العبد الفقير، المعترف بالعجز والتقصير، اللعوب، كوكب العيوب وبحر الذنوب، الساعي إلى الكمال على نحو ما، والذي يؤمن بأن الكمال متحرك ولا يقف عند نقطة بعينها، الأمر الذي يُفسر أن الكمال لله وحده.

الكسول صاحب مئات القرارات المؤجّلة والأحلام المهمَلة. التقليدي - أحيانًا - الذي يعمل حسابًا لكلام الناس ويتصفّح الجرائد من الخلف إلى الأمام، ويقرأ «حظك اليوم» وهو نصف مصدّق، وينظر إلى صفحات الحوادث كأنها في وطن آخر، ولا يقرأ صفحات الاقتصاد وإن كان يُلقي نظرة كل فترة على أسعار العملات الأجنبية. الصعيدي الذي خذلته أضواء المدينة ونساؤها. المتوحد المغرَم بزحام مدرجات استاد القاهرة قبل ماتشات المنتخب. المسلم الذي تلقّى تعليمه في مدارس الراهبات فأصبح عاشقًا للتصوف. صاحب درجة «الاستجماتيزم» العالية التي جعلته يعتمد على قلبه في تحديد وجهته. خريج التجارة الذي يخشى يوم الحساب. صاحب جواز السفر «الأخضر» في بلاد ثلثا مساحتها صحراء. عاشق طواجن «البرنس» وكشري «أبو عماد» وأسماك «الجمهورية» وفول «عطية» والشاي بالنعناع على مقاهي وسط المدينة والقهوة التي تُقدم في محطات البنزين. كاره «الفرابيتشينو» و«المينيم تشارج»

و«المايونيز» وأخواته وعروض «الكومبو» و«الهالبينو» و«الستافت كراست» وملاعب الجولف والفيزا كارد وموظفي خدمة العملاء في أي مكان. أحد أهم رواد حفلات محمد منير في الأوبرا وندوات سيد حجاب في معرض الكتاب وموالد آل البيت. عاشق سيدنا الحسين وستنا السيدة نفيسة، المستأذن قبل الدخول عليهم بالطَّرق على باب المقام. الكاتب الذي حصل على الثانوية العامة على يد إبراهيم عيسى في «الدستور» القديمة، وأتمَّ تعليمه على يد سناء البيسي في «نصف الدنيا». المتحيِّز بشكل مُطلَق إلى بليغ حمدي وجمال عبد الناصر وصلاح جاهين وحجازي وفيروز. الزملكاوي شهيد المحبة والإخلاص. الفوضوي عاشق النظام، والمزعج عاشق ضجيج البحر. خريج جامعات الحكومة، الذي تعلَّم ببلاش فكانت النتيجة أنه لم يتعلَّم شيئًا. شبه المستور المثقل بأقساط تُعطي الحياة معنى وتمنحه مبررًا للكفاح. المنغولي صاحب هواية جمع علب الكبريت الفارغة: غير القادر على استيعاب الفن الذي يُقدمه تامر حسني، ولا الأزياء التي يُقدمها هاني البحيري، ولا البرامج التي تُقدمها منى الشاذلي، ولا المقال الساخر الذي يكتبه القط في ملحق «أخبار اليوم»، ولا وجهة النظر السياسية التي يُقدمها خالد يوسف في أفلامه. المتحمِّس لشيكابالا أكثر من عمرو زكي، ولمحمد بركات أكثر من محمد أبو تريكة، ولإسماعيل الشاعر أكثر من حبيب العادلي، ولخالد الجندي أكثر من بقية زملائه، ولمحمود سعد أكثر من خالد الجندي، ولعبد السلام محجوب وأحمد جويلي وحسب الله الكفراوي أكثر من شلة الجولف التي يرأسها أحمد نظيف.

تم بحمد الله افتتاح الزاوية في الثالث والعشرين من يوليو الذي يوافق يوم ميلاده ويوم قيام الثورة، صحيح أن الفارق بين اليومين يزيد على ربع قرن، إلا أن اللي في القلب في القلب.

دماغي

كتبت مقال اليوم عدة مرات، كتبت عن تصريح المهندس أحمد عز في مؤتمر بالمنيا قال فيه: «لو كنا عشرين مليونًا كان حالنا هيبقى أفضل». لقد أتى الباشمهندس بـ«التايهة». كتبت أسأله عن الحل الذي يقترحه للتعامل مع الـ٦٠ مليونًا الذين يسببون أزمة، خصوصًا أن الحكومة تخلَّصت من أعداد ضئيلة لا تتجاوز النصف مليون على الرغم من جهودها الجبارة في هذا المجال (عبَّارات مُتهالكة، وطُرق سريعة مُفخخة، وأجهزة مطافئ مُعطلة، ومستشفيات ملوَّثة، وخنازير وطيور وتيفود وبلاعات مفتوحة...إلخ)، وخلال المقال وجدتني أكتب «ثم إنه يا باشا»، واندهشت من كلمة باشا التي كتبتها بعفوية، وفكرت في الموضوع فاكتشفت أنني مثل بقية المصريين أمنح لقب باشا بشكل تلقائي لكل مَن لديه سُلطة ما بدءًا من أمناء الشُّرطة حتى أمناء التنظيم.

ثم كتبت عن حوار دار بيني وبين صديقي شكوت له فيه من عدم قدرتي على إقناع صُناع السينما بإنتاج فيلم ديني يتحدث عن فترة ظهور الإسلام ويعالج سذاجة الأفلام الدينية التي تربَّينا عليها. سألت صديقي: «في رأيك لماذا يرفض صُناع السينما عندنا إنتاج مثل هذه الأفلام الدينية؟» فقال لي دون تفكير: «لأن معظم صُناع السينما عندنا كفار».

ثم كتبتُ عن ضجة سيد القمني، في البداية كتبت مدافعًا عنه وعن حقه المُطلق في أن يطرح أفكارًا قابلة للرد عليها بأفكار، وعن الدهشة التي اعترتني وأنا أتابع القمني ضيفًا في البرامج وهو يتلقَّى اتصالات هاتفية من مهاجميه الذين انهالوا عليه تكفيرًا وسبًّا، وكلما وجَّه القمني أو المذيع طلبًا إلى المتَّصل بتحديدْ ما قرأه للقمني، ويستدعي كل هذا الهجوم والتكفير، وتحديد في أي كتاب وفي أي صفحة، كان المتصلون جميعًا دون استثناء يُقدِّمون الإجابة نفسها بنبرة فخر واحدة: «أنا عمري ما قريت للقمني وما يشرفنيش أن أقرأ له»، الأمر الذي يدعو إلى الدهشة ويدعو المتابعين إلى التعاطف مع القمني حتى إذا كانوا لم يقرؤوه أيضًا. ثم قررت أن أكتب مهاجمًا للقمنيْ لأنه ورَّط نفسه في ألعاب صبيانية مع مَن لا يجيدون الحوار، وأدخل نفسه، وهو المثقف الباحث، في متاهات ساذجة؛ مثل تحدِّيه أن ينطق على الهواء بشهادة؛ «لا إله إلا الله» ورفضه نطقها (وهو رفض يتفهَّمه قليلون يؤمنون بأن لا أحد يملك مراجعة شخص فيه إلا الله سبحانه وتعالى، وأن خضوعه لهذا التحدي التليفوني يعني تورطه في عملية تكفير واستتابة مجانية)، ولكن الرأي العام ليس على درجة من الثقافة الدينية تجعله يتفهَّم ذلك، فكان رفض القمني بمثابة تعالٍ على الجميع، بخلاف أن دفاعه كان مُهلهلًا؛ فهو لا ينفي ما كتبه، ولكنه يؤكد أنه منقول من كتب التراث، وهنا اختفى تمامًا تعاطفي معه؛ فكُتب التراث التي يُقدَّر عددها بالآلاف تحتوي مقاطع كثيرة اختار القمني منها ما يدعو إلى البلبلة والتشتت وخلق العداء، ولم يفكِّر في أن يبحث وينقل ما يفيد أو يضيف إلى ثقافتنا الدينية، وشعرت أن القمني قد تعامل مع تراثنا كما تعامل بعض المستشرقين المغرضين معه.

ثم كتبت مقالًا عن مأساة التشجير في مصر في واقعتين: الأولى عندما اشتكى سفير المكسيك الذي يقطن في المعادي من تراكم صناديق القمامة

بالقرب من منزله، فما كان من رئيس حي المعادي إلا أن أفرط في الاستجابة؛ فأزال عشرات الأشجار التي تملأ الشارع وزرع مكانها «بلاطًا قبيحًا وأسفلتًا» بحجة تطوير المنطقة، في مذبحة شملت بقية سكان المنطقة يبكون على الأشجار التي أهدروا أعمارهم في زراعتها والاهتمام بها. والواقعة الثانية حدثت عندما تبرَّعت وزارة البيئة لجمعية تنمية المجتمع في السيدة زينب بمائة شجرة لتطوير المنطقة؛ فاعترض الحي وقرر أن يتسلَّم هو الأشجار ويقوم بزراعتها، وحدد مع الجمعية الميعاد، واحتشد أطفال المنطقة في هذا اليوم للمشاركة في عملية التشجير والاحتفاء بحدث سيظلون يفخرون به طيلة حياتهم، وبعد طول انتظار في شمس الصيف الحارقة وصلت سيارة الحي وهي تحمل خمس أشجار ذابلة لا تصْلح للزراعة، فعاد الأطفال إلى بيوتهم محبطين، وهكذا تجري الأمور، الشعب يُشجِّر والحكومة تطفش، في بلد يتميز بأن عدد الموظفين في هيئة التشجير فيه أكثر من عدد الأشجار نفسها.

ازدحمت دماغي بالأفكار فقررت أن أركِّز في المقال، وقررت أن أكتب مقالًا من جزأين: الأول أدعو فيه المتشددين الذين يهاجمون القمني أن يتركوه في حاله؛ لأنه لن يُغيِّر شيئًا في بلد تقرأ نصْف كتاب كل عام، وأن يتفرغوا للضغط على صُناع السينما لتقديم فيلم ديني (والسيناريو جاهز على فكرة). أما الجزء الثاني فأقترح فيه على المهندس أحمد عز أن يتبنَّى حملة لتحويل الـ٦٠ مليونًا اللي مضايقينه إلى أشجار.

الشُّرطة في سكة الشعب

من أهم اللافتات التي وجدتها في وجهي فور خروجي من رحم السيدة والدتي: «الشُّرطة في خدمة الشعب» و«مصر أولًا».

في بداية حياتي عندما كان الشعار «الشُّرطة في خدمة الشعب»، كنت أعتقد أن المقصود بخدمة الشعب وقتها «ترييح» الشعب من مشاوير الذهاب إلى صناديق الانتخابات، لم أعرف معنى آخر للكلمة، خصوصًا أنه عندما تمت سرقة سيارة ابن عمي لم تُعدها الشُّرطة، ولكن أعادها لنا شيخ بركة دلَّنا على مكانها قبل أن يُنهي كوب الشاي. وبعد فترة أصبح الشعار «الشعب والشُّرطة في خدمة القانون»، استكثرت الشُّرطة على نفسها أن تكون في خدمة الشعب خوفًا من القاعدة التي تقول إن «آخرة خدمة الغُز علقة». ومع احترامي للشُّرطة وللشعارات أرى أن الشعار غير المُعلَن هو «الشُّرطة في سكة الشعب» لا في خدمته ولا في خدمة القانون. الشُّرطة في سكة الشعب... هكذا ومنذ طفولتي، كانت إدارة المدرسة تختار أطفالًا بعينهم لتُعينهم «شُرطة مدرسية»؛ لمنع الطلاب من الاقتراب من غرف الناظر والمدرسين في الفسحة، انتهت الفسحة وانتهت الطفولة وأصبح النُّظار وزراء ورؤساء حكومة وبقيت الشُّرطة في سكة الشعب. وقفت الشُّرطة في سكة الشعب عندما قررت فئة

مُندسة من الشعب أن تسلك مسلكًا إيجابيًّا تشارك في الانتخابات، فوقفت الشُّرطة في طريقها إلى اللجان، وأغلقت أبواب دون الصناديق والحبر الفوسفوري. وقفت الشُّرطة في سكة الشعب عندما قرر أن يملأ بعض المواطنين الشاحنات بالغذاء والأدوية ليتجهوا بها إلى غزة.

تقف الشُّرطة في سكة الشعب على المحور، وعلى الطريق الدائري، وفي مدخل المعادي، وفي صلاح سالم، وفي الأتوستراد، وعلى كوبري الجامعة، في أكمنة منصوبة ليلًا ونهارًا؛ للتفتيش على حزام الأمان والمثلث وطفاية الحريق، تسألك عن تحقيق الشخصية وعلاقتك بالسيدة التي تجلس إلى جوارك وتسألك بلا مبرر: «جاي من فين ورايح فين الساعة دي؟» (فيه واحد صاحبي اتاخد على القسم لأنه قال للضابط أنا جاي من عند ماما... كان صديقي جادًّا في إجابته وصادقًا، لكن الضابط اعتقد أن أمه شخصيًّا هي المقصودة بالإجابة).

تقف الشُّرطة في سكة الشعب لتعطيل سيره حتى تمر مواكب الوزراء. تقف الشُّرطة في سكة الشعب حتى عندما يفكر شبابه اليائس في الهروب من هذا البلد بأي طريقة ليبدأ حياته في مكان آخر. تقف الشُّرطة في سكة الشعب عندما يقرر أن يتظاهر أو يُضرب أو يعتصم بحثًا عن حقوقه. تقف الشُّرطة في سكة الشعب عندما يُقرر أن يحتفل مع محمد منير برأس السنة في مسرح الأوبرا؛ خوفًا من أن تنقلب الحفلة إلى مظاهرة تدعم الغزاوية. تقف الشُّرطة في سكة الشعب إلى الاستاد والجامعة ودور العبادة، بل إن الشُّرطة في سكة الشعب إلى مناطق بأكملها مثل جاردن سيتي. تقف الشُّرطة في سكة الشعب في كل مكان بشاحنات الأمن المركزي الضخمة والمدرَّعات والجنود المدججين بالهراوات والعصي الكهربائية في حالة تحفُّز لا أعرف سببها.

أشك كثيرًا في أن الشُّرطة في سكة الشعب بحثًا عن الأمن طوال الوقت، الموضوع به أشياء أخرى بخلاف الأمن، والدليل أن الشُّرطة كثيرًا ما تقف في «أماكن غلط»؛ فهي لا تقف في سكة الشعب عندما يُقرر بعض أفراده أن يتحرشوا جماعيًا، ولا تقف في سكة الشعب عندما يفر بعض أبنائه إلى الخارج بقروض أو هربًا من أحكام قضائية، ولا تقف في سكة الشعب عندما يتورَّط بعض أبنائه في خناقة على رغيف العيش أو أنبوبة البوتاجاز، ولا تقف في سكة الشعب لتحول بينه وبين حريق ضخم، ولا تقف في سكة الشعب عندما يُقرر بعضهم أن يحرق مقر حزب معارض.

لا أنفي أنني ألتقي في السكة ببعض الضباط المحترمين، الذي يُشعرك المرور بهم في سكتك ببعض الآدمية والتحضُّر والونس، ضباط علَّمهم أهاليهم أن يعاملوا الناس باحترام، وعلَّمتهم الشُّرطة أن يقفوا في طريق الناس، فكانت النتيجة أنهم يقفون في طريق الناس باحترام، مثل هؤلاء الضباط عندما تقابلهم في طريقك لن يُذكِّروك بغلاسة بتوع «الشُّرطة المدرسية»، لكنهم سيُذكرونك بابن خالتك عندما كنتما تلعبان معًا «عسكر وحرامية».

هذا بالنسبة إلى شعار «الشُّرطة في خدمة الشعب». أما بالنسبة إلى شعار «مصر أولًا» فأعتقد أنه لا مكان له بعد سيطرة شعار «الأهلي فوق الجميع».

حبيبة بابا

كان محمد ثروت المطرب الرسمي لطفولتنا، وكنا نثق به ثقة عمياء على الرغم من أنه قدَّم لنا فتاة في كليب ما مُغنيًا لها «حبيبة بابا.. رشا»، ثم عاد وقدَّم لنا الطفلة نفسها في كليب آخر باعتبارها «منى يا منى» وهي الطفلة التي عندما كبرت اكتشفت أن اسمها «هدير» أصلًا. أحببناه، وحلَّقنا معاه خلف طيور النورس، وآمنَّا بحكمة الأغنية القائلة إن «حياة البحر أحلى حياة» للدرجة التي جعلت معظم أبناء جيلي يقفز في زوارق حقيرة هربًا من البلد، وعلَّمتنا أغنية «جدو علي» أسماء جميع الحيوانات، ولم نكن نعرف أن ثروت يسبق الزمن وهو يخبرنا قبل سنوات كثيرة أن الحيوانات ستكون الكارثة التي سيُعايشها جيلي من خنازير وبط وطيور وفئران ناقلة للطاعون وجمال بنكهة الحُمى القلاعية. أحببنا ثروت في كل الأحوال، وتبادلنا في الطفولة الألبوم الذي يحمل أغنياته التي ما إن تمر في ذاكرة أحدنا اليوم حتى يسترجع الحالة التي كان عليها وقتها بكل مشاعرها وكأنه يعيشها على الهواء.

في زيارة لأحد أصدقائي اكتشفت أن الأغاني التي يُرددها طفله هي: «إللي يزعل بابا... نوتي» للست هيفاء، و«شخبط شخابيط» للست نانسي. وأبدى صديقي انزعاجه أن تصبح هيفاء ونانسي مطربتَيْ فترة الطُّفولة في حياة ابنه،

وأراه مُحقًا في ذلك؛ فالطفل الذي يرتبط عاطفيًا بـ«إللي يزعل بابا... نوتي» ثم يرى هيفاء في بقية كليباتها التي هي أصلًا «نوتي في نوتي»، كيف ستتكوّن رؤيته للحياة؟ عندما يبدأ الطفل حياته وهو مرتبط بمطربة تهزّ مؤخرتها وهي ترتدي بنطلونًا أحمر ضيقًا كيف ستكون نظرته إلى الأمور فيما بعد؟ من المؤكد أن هذا الطفل عندما يكبر ويُنجب سيُدخل تعديلات مهمة على الحكايات التي سيُسلي بها أطفاله قبل النوم؛ فسيحكي لهم أن السندريلا استعانت بالساحرة لا لتوفّر لها فستانًا تذهب به إلى الحفل، ولكن لتوفّر لها طبيبًا يمتلك عيادة سِرية لإجراء عمليات الإجهاض. ولن يقول لهم إن الأمير ظل يبحث عن السندريلا بعد الحفل ليتزوجها، ولكن السندريلا هي التي أخذت تبحث عن الأمير لتُجرجره إلى المحاكم لعمل تحليل الـ«دي إن إيه» لأنها رفعت ضده دعوى إثبات نَسب. ولن يقول لهم إن «بياض الثلج» كانت تعيش مع الأقزام في سلام، ولكنه سيُخبرهم بأن «بياض الثلج» كانت «مِصاحبة سبعة أقزام وعايشة معاهم»، وسيُخبرهم بأنّ «علي بابا» كان متزوجًا من مرجانة زواج مِسيار. قد تعتقد أنها رؤية ساخرة، لكن صدقني هكذا تسير الأمور مثل كرة الثلج التي تتضخم مع كل خطوة من القمة إلى السفح.

كانت أغاني الطفولة من حُسن حظنا هدية من ناس أفاضل مثل الفنان محمد ثروت؛ لم يخدش بَكارتنا واحترم أبواب البيوت التي فُتحت في وجهه وهي تأتمنه على أمخاخ أطفالها، حتى الغلطة التي وقع فيها إحنا مسامحينه عليها (وهي غلطة استثمار الإعلام الحكومي لتعلّقنا به كأطفال في ربطنا عاطفيًا بالنظام وضمان ولائنا له بأن جعلوه مطربًا وطنيًا)، سامحناه لأننا عندما كبرنا عرفنا أن مصر حاجة والحكومة حاجة تانية، وبقيت الأغاني في قلوبنا تحمل رائحة الأيام الجميلة التي كنا نرى فيها ثروت يُغني ببدلة الشُّرطة وخلفه قوات الإنقاذ النهري.

المهم، حاولت أن أعرض على ابن صد ي أغاني طفولتي، فبحثتُ على اليوتيوب عن أغنية «حبيبة بابا رشا»، ش. دناها معًا، وكان سعيدًا بها جدًا، وكانت على وجهه ابتسامة رائقة. طلبتُ ن أبيه أن يجعله يشاهد هذه الكليبات، وطلبتُ منه أن يُحضر له أوبريت «الليلة الكبيرة» على أسطوانة، ولكن عند انصرافي، وبينما أودع صديقي عند الباب، كان طفله يجري في البيت وهو يُغني بصوت عالٍ: «حبيبة بابا.. نوتي»!

البرلمان وسياسة الـ«فَض»!

العبقري الذي اختار لنهاية الدورة البرلمانية مصطلح «فض» يستحق جائزة الدولة في الآداب والفنون؛ فقد اختار كلمة غاية في البلاغة والدقة، كلمة من حرفين، لكنها تتضمن معاني لا حصر لها.

فكلمة «فض» لها عدة استخدامات شهيرة، كلها تتفق مع ما يجري في البرلمان طوال انعقاده، الأمر الذي يجعل نهاية الانعقاد هو «فض» بلا شك.

فكلمة «فض» تُستخدم للمشاجرات والاشتباكات، عندما يتم فض الدورة البرلمانية يتم فض مشاجرات لا تنتهي، يستخدم فيها النوَّاب الأحذية، وسب الدين، وتبادل الشتائم، والإهانات، والرَّدح، ولا مانع من الاشتباك بالأيدي في بعض الأحيان، بالإضافة إلى المشاحنات التي تبدأ من فوق سلم المقاعد وتصل أحيانًا إلى منصة رئيس المجلس.

تُستخدم كلمة «فض» مع الأسواق، يُقال: «فُضت السوق» يعني انتهت. والبرلمان هو سوق حقيقية، وبالبلدي «سويقة»؛ فهو مكان للبزنس، ولحصول رجال الأعمال على فُرص لتوسيع نشاطهم الاستثماري سواء في الحديد أو أكياس الدم أو السيراميك. وبالنسبة إلى غير رجال الأعمال هو فرصة لبعض

النوّاب للحصول على تأشيرات الوزراء وبيعها للمواطنين في دوائرهم الانتخابية. وبالنسبة إلى الحكومة فهو سوق تشتري منها القوانين التي تحتاج إليها في أي وقت.

تُستخدم كلمة «فض» مع الشركات؛ ففض الشراكة يعني: انتهاؤها، والمجلس عبارة عن عدد من الشركات، الشركة الأم «الحزب الوطني»، وتناطحها الشركة مِرات الأب «الإخوان»، وهناك شركات تُذكّرني بمحلات الميني فاتورة التي يملكها شخص ما، مجرد محل عادي لكنه يضع عليه لافتة تقول إنه شركة «أحزاب المعارضة»، وهناك بعض صغار المستثمرين «النوَّاب المستقلون»، وحسب مقتضيات السوق يتغير شكل الشراكة.

تُستخدم كلمة «فض» لإنهاء السيرة (فُضها سيرة)، والمجلس طوال فترة انعقاده هو سيرة للصُّحف وبرامج «التوك شو»؛ سيرة تسمح لهؤلاء بمساحة من أكل العيش، حيث تمتلئ السيرة بمناطق مثيرة أحيانًا ومناطق كوميدية غالبًا.

كلمة «فض» تُستخدم مع الموالد أيضًا، والبرلمان مولد بلا أدنى شك، والدليل على أنه مولد هو رئيس المجلس الذي يُمثل الشعب عن دائرة «السيدة زينب»!

النوع الأخير من «الفض»، هو نوع يحمل دلالة جنسية، وأعتقد أننا نعرفه جميعًا ونشعر به؛ فقد فعلها معنا مجلس الشعب كثيرًا، ولم ينجُ منه أحد منا، نساء أو رجال، إذن وبمناسبة قرب فض الدورة البرلمانية الحالية أدعو الشعب المصري إلى الوقوف «٦٠ دقيقة حداد» على بكارتنا التي فُضت إثر «تمرير» قوانين عديدة في البرلمان: «قانون المرور.. زيادات الأسعار.. استمرار العمل بقانون الطوارئ...إلخ...إلخ.. أي.. أي».

مصر للمصريين بس الدوري للزمالك

أصدقاء تُحبهم، وأحلام تسعى لتحقيقها، وفريق تشجعه... هكذا يُصبح للحياة طعم.

اليوم الذي سيلعب فيه فريقك مباراة تشعر بإثارة ما منذ بدايته، على الرغم من مشاغلك لا تنسَ أن تُلقي نظرة على صفحات الرياضة بحثًا عن التشكيل المتوقَّع، يُشعرك وجود الأساسيين بالطمأنينة، لكنك تشعر بالإثارة لوجود اللاعب الذي يمتعك ضمن التشكيل، تخطط ليومك بناء على نظرية «قبل الماتش... بعد الماتش»، تقسم مواعيدك وارتباطاتك بناء على هذا الأساس.

تثق بفريقك، لكنك بينك وبين نفسك تحاول إنكار هذه الثقة؛ حتى لا تفسد حالة الإثارة، بل إنك تسعى لتضخيمها بأن تمثّل على نفسك وعلى المحيطين دور المتشائم الذي يشعر أن فريقه هيشيل النهارده.

تحاول أن تشاهد الماتش في تجمُّع إن أمكن؛ في بيت صديق أو على المقهى أو مع زملائك في العمل، وفي حالة عدم وجود تجمُّعات ستهيئ الجو في منزلك للاستمتاع بأن تحجز المكان الذي يُحقق لك أفضل رؤية، وتطمئن على وجود المواد التموينية التي تتطلبها المشاهدة من دخان وشاي ونسكافيه

وطبق العنب، وإن كنت من المتعمقين كُرويًا ستبحث عن دفتر بفرة إضافي حتى لا تضطر إلى ابتلاع الحشيش في أثناء المباراة.

تخطف ساعة نوم مع التأكيد على أهل البيت بأهمية إيقاظك قبل الماتش، «هو الماتش الساعة كام؟» على سبيل الاحتياط تُعطي إجابة تسبق الموعد الحقيقي بنصف ساعة، وتصحو على تليفونات لا تخلو من حديث عابر عن المباراة، به توقعاتك ومخاوفك من لاعبين بعينهم مصحوبة باسترجاعك لفصولهم الباردة في مباريات سابقة، بعدها ستزور استوديوهات التحليل المنصوبة في عدة محطات لتُلقي إفيّهًا ساخرًا على الكباتن اللي منورين الاستوديو مع كل ضغطة على الريموت. تبحث عن المحطة ذات درجة الألوان الأزهى والصوت النقي، وقبل ذلك المُعلّق الذي سيمسك بأذنيك لمدة تسعين دقيقة؛ ستختار المُعلّق الأخف دمًا أو الذي تتفاءل به، وستحاول دائمًا أن تبتعد عن الكابتن محمود بكر. وتبدأ المباراة فتمنحها كل حواسك وتركيزك، وتعيش طوال التسعين دقيقة في أدوار شتى: الحَكم والمدرِّب والمهاجِم والمشجِّع. تسب وتمدح وتكتئب وترقص فرحًا، وتزداد ضربات قلبك وتضرب كفًا بكف، وتشعر بالأمل أو اليأس، وتعصف المفاجأة بمشاعرك أكثر من مرة، ولا تلتقط أنفاسك إلا بعد أن يُطلق الحكم صافرة النهاية.

بدأ الدوري وبدأت إثارة ما وترقب يخص الفريق الذي أشجعه وفرق أخرى. أترقَّب اللحظة التي سيتم فيها طرد أحمد عيد عبد الملك لعصبيته الزائدة؛ عبد الملك الذي تُشعرك ملامحه بأنه هرب من فيلم «٣٠٠ إسبرطي» ليستقر في حرس الحدود يحتاج إلى جلسات كهرباء حتى يهدأ قليلًا. أنتظر مشاهدة مهارات عالية للساعي نجم هجوم المنصورة الذي أحرز هدفًا مارادونيًا في أول مباراة. أنتظر قذائف أحمد المحمدي التي تُكيفك حتى لو كانت في مرمى

فريقك. أنتظر أهداف عبد الله السعيد الغادرة ولمسات أبو تريكة الساحرة. أنتظر أن يصبح الإنتاج الحربي حصان البطولة الأسود. وأتلهف لرؤية فريق الجونة لصاحبه ومؤسسه رجل الأعمال سميح ساويرس لأرى كيف ستكون إسهامات رجال الأعمال في البطولة. أتلهف لرؤية أهداف للاعب الزمالك الجديد سيد مسعد الذي يشبه شريف منير في فيلم «شورت وفانلة وكاب». أترقَّب مباريات حرس الحدود لأني أُحب طارق العشري الذي أصبحت ملامحه بعد الفوز ببطولتي الكأس والسوبر تشبه ملامح طارق العريان بعد زواجه من أصالة. أنتظر رؤية حازم إمام الصغير وهو يطعم دفاع الأهلي نجيلة استاد الكلية الحربية. أنتظر رؤية شيكابالا وهو يُقدِّم دروسًا في البُعد الجرافيكي لكرة القدم. أنتظر أولى مشاجرات ميدو وعمرو زكي بعد أن يحتدم الصراع بينهما على لقب هدَّاف الدوري. أنتظر إعلان الزمالك بطلًا للدوري قبل نهايته بأسابيع؛ فالدوري هذا العام للزمالك وهذا ليس ثقة بالزمالك ولكنه ثقة بحسام البدري.

من أجلك أنت.. تملي معاك

كنتُ قد قررت أن لا أكتب أي تعليقات سلبية بخصوص شعار مؤتمر الحزب الوطني الجديد «مِن أجلك أنت»؛ حتى لا أضع نفسي في قائمة الكُتاب الذين نالوا سُمعة «إنه مفيش حاجة في البلد عاجباهم»، فالحقيقة هناك أشياء كثيرة تُعجبني في البلد (حماتي مثلًا). وتجاهلت فكرة التعليق على الشعار الذي رأيته ساذجًا للغاية، إلى أن حدث ما حرَّكني وليس هذا هو المهم الآن، المهم هو الشعار نفسه.

ولأن المؤتمر بيبان من عنوانه راح جزء كبير من حماسي وحُسن ظني في اجتماع الحزب الحاكم؛ لأنه يُذكرني بالجملة الشهيرة التي يُرددها كل زوج مصري عندما يوجَّه إليه أي عتاب من الزوجة، جملة «أمَّال اللي انا باعمله ده باعمله عشان مين؟ ما هو عشانكو انتو»، وجميعنا يعلم أن دفاع الزوج في هذه الحالة غالبًا ما يكون ضعيفًا، الهدف منه هو لعب دور الشهيد أو الضحية للغلوشة على أمر ما، ولكسب تعاطف وشعبية داخل البيت تغفر له أشياء أخرى.

ولولا أن ميزانيتي لا تسمح كنت أود أن أشتري علبة اسبراي ملون وأكتب تحت كل لافتة «مِن أجلك أنت» جملة «أنا شخصيًا مش عايز حاجة»،

لكنني قررت أن أستعيد حُسن الظن بالحزب، وأن أصبح حَسن النية، وأن أعتبر شعار المؤتمر يحتوي اعترافًا ضمنيًا واعتذارًا عن كون المؤتمر كان يعمل من أجل مصلحة أعضائه فقط قبل ذلك، وأن ضمير أعضائه المهني تحرَّك؛ لذلك قرروا أن يخصصوا هذه الدورة من أجلي أنا. واتخذت قرارًا أرجو أن تساعدوني عليه بتأجيل التعليق على المؤتمر حتى تنتهي فعالياته؛ فربما كانت هناك مصلحة ما قد يفسدها سوء أدبي وأبقى أنا اللي قطعت رزقي بإيديا، لكن لا تساعدوني في أن أمنع نفسي من التفكير في الطريقة التي فكَّر بها أصحاب المؤتمر في شعار له؛ فأنا متأكد من أنهم قد أعدوا قائمة طويلة بالأسماء المقترحة وخرجوا بأفضلها بأغلبية الأصوات، ومعنى أن يكون «مِن أجلك أنت» هو أفضلها؛ أن بقية الاختيارات كانت تتضمن شعارات مثل: «تمللي معاك، كل دقة في قلبي، ثورة الشك، فقاقيع الهواء، صابون النزاكة». الغريب أن الدولة التي استطاعت أن تبيع أشياء كثيرة، بدايةً من الأراضي، مرورًا بالمصانع، نهاية بـ«عمر أفندي»، لا تجيد فن التسويق للدرجة التي تجعلها غير قادرة على اختيار شعار قوي ومُحكم يبيع أملًا ما أو بهجة ما أو فكرة ما للمواطن حتى ولو لمدة أيام، بدلًا من شعار لا يعبر عن شيء سوى استخفاف شديد به وبهمومه ويضر بسُمعة الحزب الحاكم؛ إذ يجعله يمن على المواطن ويعايره بأنه يعمل من أجله، هذا لو افترضنا أن «الجلوس في قاعات مكيفة، وتناول وجبات فاخرة، وتقاضي بدلات سفر محترمة» عمل أصلًا.

أما عن الشيء الذي جعلني أتراجع عن عدم التعليق على الشعار فهو ماتش الزمالك والجونة؛ فقد خرجت من الماتش بشحنة سلبية، وتذكَّرت مقالًا كتبته هنا قبل بداية الدوري كان عنوانه «مصر للمصريين بس الدوري للزمالك»؛ هذا المقال تلقيت، وما زلت أتلقى، عليه تعليقات مليئة بالسَّب والقذف. إللي هيجنني أنه سب وقذف من جماهير الزمالك شخصيًا والتي

تعاملت مع وعدي لهم بالدوري على أساس أني المدير الفني للفريق، كان لديّ أمل وتلاشى.. طيب أعمل إيه؟ صديقي الزملكاوي الجريح أعرف أنك في حاجة دائمًا إلى مَن يرفع من روحك المعنوية ويؤازرك، وعندما قلت قبل بداية الدوري إنه للزمالك لم يكن هناك ما يشير إلى ذلك أو يعدني به، صدقني يا صديقي لم أقل هذه الجملة عن ثقة بالفريق، أبدًا، الحقيقة أنني قلتها.. مِن أجلك أنت.

فتوى التوك توك

كعادة معظم المواطنين المصريين عند خروجي من البيت أترك جهاز الراديو مفتوحًا على إذاعة القرآن الكريم بصوت شبه عالٍ، هناك مَن يفعلون ذلك باعتبار أن صوت المقرئ المنبعث من المَحطة هو أشطر جهاز سيكيورتي، فترى محلات تجارية مُغلقة، ولكن ينبعث من داخلها صوت الإذاعة التي تقدّم في معظم الأوقات ترتيلًا لمولانا الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، وبذلك عندما يهم لص ما بكسر باب المحل لسرقته سيكون صوت القرآن أعلى من صوت إبليس الذي يوسوس له بالسرقة، وهكذا سيتراجع، وربما بكى ندمًا على باب المحل، وهي خطة نقطة ضعفها الوحيدة أن يكون اللص مسلمًا أصم أو قبطيًا. أصحاب البيوت يُقدِمون على الفكرة نفسها عندما يكون البيت خاليًا كخدعة تجعل اللص يعتقد أن المنزل ليس خاليًا، مما يستوجب منه الانصراف والبحث عن شقة أخرى، وهي خطة نقطة ضعفها أن تكون الكهرباء مقطوعة لمدة ساعة وهو ما يحدث كثيرًا هذه الأيام، والساعة كافية لتقشيط شقة ٥٠٠ متر بواجهة بحرية تشطيب سوبر لوكس.

كثيرون يتركون إذاعة القرآن الكريم منصوبة داخل المنزل الخالي على سبيل التبرُّك بكلام الله، وأنا منهم؛ أنشُد البركة بيقين تام في المقام الأول،

لكنني في المقام الثاني أعرف أننا لا نعيش بمفردنا في هذا العالم، وأن جيراننا غير المرئيين في الكوكب لم يتركوا مكانًا دون أن يسكنوه، وهم مثلنا؛ منهم الطيبون ومنهم «سلام قولًا من رب رحيم» أرباب الأذى والعكننة. ولأنني لا أعرف طبيعة زملائي في السكن ولا أستطيع أن أحدد إلى أي نوع ينتمون قررت أن أتعامل معهم بكل مودة ورحمة؛ فإذا كانوا من الطيبين أترك لهم الإذاعة مفتوحة ليتعلموا شؤون دينهم وليستمعوا إلى كلام الله، وإذا كانوا من أرباب الأذى فكلام الله قادر على أن يهديهم ويجنبنا شرورهم. ولم يحدث يومًا أن دخلت البيت بعد يوم طويل وإذاعة القرآن الكريم منصوبة به إلا وجدت قدرًا من السكينة يستقبلني. قد تعتقد أنني أرجع إلى البيت متأخرًا وساعتها بيكونوا هُمَّ نايمين ولكن، صدِّق أو لا تُصدق، إنهم لا ينامون أبدًا.

منذ يومين عدت وكان الراديو مفتوحًا، ولم تكن هناك تلاوة، بل برنامج «بريد الإسلام» الذي يُقدّمه الإذاعي إبراهيم مجاهد في بدايته، وهو برنامج يجيب عن أسئلة المستمعين كما فهمت من اسمه. كنت على وشك أن أُغلق الراديو، ولكنني استمعت إلى سؤال جعلني رفعت الصوت وكلي فضول لمعرفة الإجابة، كان السؤال: «عندي ابنٌ كثيرًا ما يثير المشكلات، وهو مُغرم بركوب التوك توك فأقسمت على زوجتي بالطلاق إذا ركب الولد التوك توك يومًا ما، وفي إحدى المرّات رأيته في أثناء عودتي يركب التوك توك بالقرب من البيت، فهل أصبح الطلاق واقعًا؟» كانت مسألة إنسانية معقدة تستحق السخرية لولا أنها مرتبطة بمستقبل عائلة، وبحرص السائل أيًا كانت ثقافته على إرضاء الله. وللأمانة كان عالم الدين المنوط به الإجابة، والذي للأسف لم ألحق أن أحفظ اسمه، رجلًا وقورًا ونموذجًا لعالم الدين الحريص على التوجيه والتربية قبل الفتوى، وأحببته إذ بدأ كلامه بتوبيخ السائل وبتلقينه درسًا في عدم الاستهتار بميثاق الزواج الغليظ وجعل يمين الطلاق سهلًا على اللسان.

ووبّخه على سوء الأدب في رهن مصير العلاقة الزوجية المقدسة بتفاصيل الحياة اليومية التافهة، وأعطاه درسًا في أن القسم بالطلاق دليل على ضعف الزوج واهتزاز شخصيته وعدم قدرته على السيطرة على أهل بيته بالحسنى. ولم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام عندما ارتفعت نبرة العالم موبخًا قائلًا: «إيه العلاقة بين التوك توك والطلاق.. فهّمني إيه العلاقة بين التوك توك والطلاق؟!» وبعد أن أنهى درسه قدّم له إجابة مفصّلة أذكر منها - وأرجو أن أكون ناقلًا أمينًا - أن في حالة هذا الربط الأهوج بين التوك توك ومصير العائلة فإن الطلاق لم يقع، وقال إن السائل ملزم بكفّارة يمين، وهي تُشبه كفّارة أي قسم عادي وهي عبارة عن إطعام عشرة مساكين أو إخراج ما يوازيها نقدًا.

انتهى البرنامج فأغلقتُ الراديو، وتخيلت السائل وهو يعود إلى بيته وكله خجل من تسرُّعه، وتخيلت زوجته تستقبله مُطْلِقةً زغرودةً فرحًا بالفتوى، وبقي الابن في مخيلتي طوال الليل، فقد كنت متأكدًا من أنه سيعود إلى ركوب التوك توك في أقرب فرصة.

Weekend

(رمضان ٢٠٠٩)

سؤال الأسبوع: هل اهتز مستوى اللاعب محمد زيدان بعد أن فسخ خطوبته من مي عز الدين أم أن مي قررت فسخ الخطوبة نتيجة لاهتزاز مستوى زيدان في الملعب؟ مي أثبتت أن بنات الإسكندرية مش ساهلين لذلك أدعو زيدان في رمضان لمشاهدة مسلسل «حدف بحر».

ملاحظة الأسبوع: امتلاء الصحف والشوارع بإعلانات لمسلسلات رمضان البالغ عددها نحو خمسين مسلسلًا، وبعد أن كان المسحراتي رمزًا لرمضان احتل مكانه أيمن بهجت قمر واختفى المسحراتي تقريبًا، مثلما اختفت الحلقات الثلاث المحيطة بكوكب زحل خلال الأسبوع الماضي لمدة قصيرة، لكن البرنامج الإذاعي الشهير الذي تربى عليه جيلي والأجيال السابقة («إلى ربّات البيوت» الذي يتضمن حلقة يومية من مسلسل «عيلة مرزوق») والذي يزيد عمره على الخمسين عامًا فقد اختفى إلى الأبد بقرار من رئيسة الإذاعة بحُجة أنه أصبح قديمًا، وهي حُجة جعلتني أضحك بشدة؛ حيث إن البلد يمتلئ بأشياء كثيرة قديمة (أبو الهول مثلًا) لذلك أدعو انتصار شلبي رئيسة الإذاعة في رمضان لمشاهدة مسلسل «كلام نسوان».

تصريح الأسبوع: كان على لسان ماجد عثمان مدير مركز المعلومات بمجلس الوزراء حيث قال إن برامج «التوك شو» جعلت الشعب المصري متشائمًا، وهو تصريح صحيح، ولكن يُحمد للقنوات الخاصة التي تعرض «التوك شو» أنها جعلت المصري متشائمًا بعد أن جعله الإعلام الحكومي لسنوات طويلة مغفلًا؛ فالتشاؤم يمكن علاجه ولكن الغفلة عاهة مستديمة. أرجو أن يفكر ماجد عثمان في تصريحاته قبل إطلاقها فقد ساعدني تصريحه على كشف عورة الإعلام الحكومي في زمن سابق، وأدعوه في رمضان لمتابعة مسلسل «زمن العار».

صدمة الأسبوع: جاءت من السعودية التي أفرطت في اتخاذ إجراءات مشددة أدت إلى منع عشرات الآلاف من المصريين من دخول أراضيها لأداء العُمرة، وخذلت عددًا كبيرًا من المسلمين كانوا يحلمون بالتقرب إلى الله، لذلك لم أندهش من مانشيت الأسبوع في «الدايلي تلجراف» والذي يحذر من هجرة المسلمين إلى أوروبا قائلة إنهم على وشك أن يُشكِّلوا خُمس سكان القارة. أنا شخصيًا لم أعد أعرف موقفًا ثابتًا للغرب تجاه الإسلام؛ ففي الوقت الذي دفعت فيه مروة الشربيني حياتها ثمنًا لارتدائها الحجاب، نجد داليا مجاهد تقبض الكثير شهريًا وتحتل مكانة بارزة لأنها ترتدي الحجاب الذي جعل لحياتها قيمة، لذلك أدعو داليا مجاهد في رمضان لمتابعة مسلسل «علشان ماليش غيرك».

مفاجأة الأسبوع: كانت في ترجمة الإنجاز العلمي للدكتور أحمد زويل والمسمى بـ«الفيمتو ثانية» إلى عمل أفهمه ويفهمه أمثالي محدودو الثقافة العلمية، فقد تم استخدام تقنية «الفيمتو ثانية» بنجاح في إجراء عمليات آمنة لتصحيح الإبصار بنتائج مُبهرة، عندما قرأت الخبر فهمت لماذا قامت الحكومة بتطفيش زويل؛ فاختراعه قد يؤدي إلى تصحيح نظر المصريين، الأمر الذي

سيؤدي إلى رؤية الرسميين على حقيقتهم ويا لها من فضيحة، الحكومة جعلت زويل يهجُّ من مصر بينما استقرت هيفاء بها؛ حيث سيؤدي تدقيق النظر إليها إلى إضعاف بصر البلد كله وهو المراد من رب العباد، لذلك أدعو الحكومة في رمضان لمتابعة مسلسل «عصابة بابا وماما».

كاتب الأسبوع: مولانا ابن عطاء الله السكندري الذي قال: «أصلُ كل معصية هو الرضا عن النفس، وأصلُ كل طاعة هو عدم الرضا عنها».

مفارقة الأسبوع: حوار جمال مبارك في حوار مفتوح على الإنترنت مع شباب مصر في الوقت نفسه الذي صدر فيه قرار بتحديد النت وتقييده، الأمر الذي جعلني أعتقد أنه قرار أمني لتأمين زيارة جمال مبارك للشبكة العنكبوتية. كان شباب مَصر نجومًا بالأسئلة الجريئة التي طرحوها للمناقشة، الأمر الذي يجعلني أدعو السيد جمال مبارك في رمضان لمتابعة مسلسل «حرَّمت يا بابا».

تصريح الأسبوع: إن مصر بها ٥ ملايين جرعة من عقار «التاميفلو» المستخدم في علاج إنفلونزا الخنازير، لكنني لا أثق بقدرة الحكومة على السيطرة عليها وحمايتها من السرقة والمجاملات، خصوصًا أن الحكومة فشلت في حماية أرض الضبعة التي ستُقام عليها محطة نووية مصرية؛ فقد تسلل إليها أشخاص مجهولون في بداية الأسبوع وقاموا بتفقُّدها وتصويرها بالفيديو على الرغم من الحراسة المكثفة، فإذا كانت الحكومة فاشلة في حماية أرضها فهل ستفلح في حماية كمية حبوب في مخزن عليه كام خفير؟ تحتاج الحكومة إلى قدر من اليقظة ولا بد لها من الاستعانة بعدد من الناضورجية، لذلك أدعوها لمتابعة مسلسل «الباطنية».

أغنية الأسبوع: «أخيرًا اتطلَّقت». مع الاعتذار للرائعة شيرين عبد الوهاب.

نجم الأسبوع: محمود محيي الدين وزير التجارة، الذي طرح في المجمعات الاستهلاكية كميات من الياميش بأسعار مخفَّضة، لذلك فأنا أدعوه في رمضان لمتابعة مسلسل «تاجر السعادة»: كل ما أرجوه من السيد الوزير أن يكون الياميش الرخيص المطروح صالحًا للاستهلاك الآدمي، لذلك وعلى سبيل الاحتياط أدعو سيادته أيضًا لمتابعة مسلسل «العيادة».

إفّيه الأسبوع: كان في امتحان القُدرات للقبول بكلية الشُّرطة، والذي تضمَّن أسئلة غريبة من نوعية: «كم عُمر الفيل؟» و«ما سبب تقوُّس سنام الجمل؟» وهي أسئلة من المستحيل أن تحكم من خلالها على شخص ما؛ هل يصلح كضابط شرطة أم لأ، إلا إذا كانت إدارة الكلية ترى في هذه الأسئلة تدريبًا مسبقًا لضباط المستقبل على كيفية انتزاع الاعترافات من الفيل والجمل!

دراسات الأسبوع: تقول إن ٣٨٪ من المصريين مصابون بقِصر القامة بسبب سوء التغذية، ومعرَّضون بسببها للإصابة بأمراض خطيرة، وإن الخضراوات والفاكهة التي نتناولها، بخلاف رشها بمبيدات مسرطنة، فقد تم ريُّها بماء المجاري المختلط بمخلفات المصانع غير المعالَجة، ولثقتي الكبيرة بأننا سننجو من هذه المهالك برعاية الله ودعوات الوالدين فأنا أدعو الشعب المصري كله في رمضان لمتابعة مسلسل «ما تخافوش».

المَدَد

الشيخ أحمد القصبي واحد من مريدي سيدنا الحسين، كان يقطن إلى جواره في بنسيون فقير داخل غرفة بائسة تُطل نافذتها على المشهد الحسيني،

تعرَّفت عليه في أحد الموالد وأحببته من النظرة الأولى، كان رجلًا صافيًا مرحًا ودرويشًا مصريًّا بلا افتعال. كنت أزوره يوميًّا في بداية عملي في مجلة «نصف الدنيا» التابعة لـ«الأهرام» كمُتدرب بجنيهات قليلة بلا أي معالم واضحة للمستقبل، بلا أي وعود بتوظيف حقيقي ورسمي في المجلة.

أدخل غرفته فأسأله: «هناكل إيه النهارده يا عم أحمد؟» فكان يسألني: «معاك كام؟» فأُخرج جنيهات قليلة، فيقول لي: «خليهالك» ثم يتركني في الغرفة ويطلب مني أن أغسل الأطباق وأُجهز المكان لوليمة. وحتى يومنا هذا لا أعرف كيف كان يتركني وهو مُفلس ويعود إلى الغرفة حاملًا دجاجة وأرزًا وسمنًا وخبزًا وشايًا وسُكَّرًا. في البداية كنت أُبدي اندهاشي فيقول لي: «دي بركة سيدنا الحسين». ثم راحت الدهشة بالتدريج وتعلَّق قلبي به وبالمكان وبحفيد سيدنا النبي (صلى الله عليه وسلم). كنت أتسلل إلى غرفة عم أحمد فأراه جالسًا في شباك غرفته ينظر إلى السماء والدموع تنهمر من عينيه، أسأله:

«مالك يا عم أحمد؟» فيقول لي: «آه من الحب.. آه من الحب»، ثم يلفنا الصمت لفترة طويلة حتى يعود إلى طبيعته.

كان عم أحمد درويشًا مثقفًا؛ حيث كان يتاجر في الكتب الدينية. كنت أقرأ له ما كتبته قبل أن أسلمه للنشر، وكانت انطباعاته مريحة دائمًا ومشجِّعة، وكانت دعوته المفضلة لديَّ: «ربنا يجبُرلك العيش في الأهرام».

وفي أيام المولد كانت حجرته الصغيرة تتحول إلى «خِدمة» بلغة المولد، وهو المكان الذي يستريح فيه المريدون ويُقدم لهم الطعام والشاي، كنت أشاركه الخدمة وأنا في منتهى السعادة، وأعتقد أنها كانت أسعد أيامي في هذه الفترة.

حدثت حركة تعيين لدفعتي في «الأهرام»، تجاوزتني هذه الحركة وخرجت منها مقهورًا شاعرًا باليأس. توجَّهت إلى عم أحمد فقال لي بالنَّص: «ما تقلقش إن شاء الله سيدنا الحسين هيعينك في الأهرام». أَشحت بيدي مُعترضًا فقال لي: «قريب جدًا سناء البيسي هتجيلك لحد مكتبك وتعيِّنك..». كنت أرى ما يقوله محض دروشة لم أكن أتوقعها منه، ففترت علاقتي به وانقطعتُ عن زيارته لفترة.

بعد شهور من العمل بلا أي أمل في التعيين زرت عم أحمد وقلت له لقد حصلت على تأشيرة سفر إلى إنجلترا ووعد بالعمل هناك إلى جانب استكمال الدراسة، فطلب مني أن لا أتعجَّل وذكَّرني بما قاله لي. لكنني لم أكن مقتنعًا؛ حيث لم أدَّخر جهدًا خلال الفترة الماضية للحصول على التعيين بلا فائدة. طلب مني أن أزور قبر سيدنا الحسين للسلام وقراءة الفاتحة، وطلب مني أن أخبره بما قررت أن أفعله.. ففعلت.

كان يوم الأحد عندما ذهبت إلى السفارة البريطانية في الثامنة صباحًا وحصلت على التأشيرة. قلت لنفسي ما زال الوقت مبكرًا سأزور «نصف الدنيا» لتوديع الزملاء الذين عرفتهم خلال الفترة السابقة.

كان المكتب فارغًا، جلست أحتسي القهوة وفوجئت بالأستاذة سناء البيسي تفتح الباب وعلى وجهها ابتسامة كبيرة، وقفتُ مرتبكًا فقالت لي: «أنا كلمت أستاذ إبراهيم نافع في موضوع تعيينك وكتبت له طلبًا ووافق».

في غرفة عم أحمد كان المشهد مختلفًا.. قال لي: «طلَّع كل اللي في جيبك». كانت جنيهات استرلينية. نزلت معه إلى ساحة المسجد ورأيته وهو يوزعها على أصدقائه الدراويش. كنت فرِحًا للغاية وكان الدراويش في ملابسهم الرثَّة أشبه بالملائكة، كانت وجوههم تشع نورًا. استوقفني أحدهم مستخدمًا عصا طويلة ثم سأل: «ما له ده يا عم أحمد؟» فقال له عم أحمد: «بارك له ده اتعيِّن في الأهرام». سألني الرجل: «عارف مين اللي عيِّنك في الأهرام؟» فسكتُّ تمامًا، وضع الرجل عصاه في الأرض ونظر إليَّ مبتسمًا وقائلاً: «سيدنا الحسين».

نصف رمضان الآخر

مع انتصاف شهر رمضان دخل الواحد أخيرًا في مود الشهر، اختفى صداع ما قبل الإفطار وبعده، وانتظمت ساعات النوم، وأصبح العطش مألوفًا، وأصبح لانسحاب النيكوتين من الجسد حلاوة ما. انتظم شكل اليوم بساعة النوم التي تلي صلاة العصر بعدها أصحو لأفتح التلفزيون على شاشة «نايل سبورت» التي تُذيع قبل الإفطار يوميًّا مباراة قديمة لها غالبًا ذكرى غالية مثل مصر والكاميرون في نهائي أمم إفريقيا ٨٤، أو مصر والجزائر في المباراة المؤهلة لأوليمبياد لوس أنجلوس. خلال المباراة هناك محاولة لمعرفة مكوّنات طعام الإفطار عبر الرائحة والدخان اللذين يعبقان الصالة. وبعد المغرب هناك البلح وقليل من الشوربة ومحاولة فاشلة للسيطرة على كمية الطعام التي يجب تناولها. أصبح الإفطار موازيًا لمتابعة حلقة جديدة من حرب الجواسيس على «نايل دراما»، بعدها برنامج لميس الحديدي على الأولى، تليه القطايف التي يسيل العسل من جوانبها قبل صلاة العشاء مع تترات النهاية لبرنامج طوني خليفة على «القاهرة والناس». بعد الصلاة هناك «ليلى والمجنون» على «دريم»، أو خيري رمضان في «البيت بيتك»، ثم يتحكم الريموت كنترول في حياتي، وأنا الذي كنت أظن العكس؛ فأتابع مشاهد متفرقة من بقية المسلسلات

والبرامج، إلى أن يأخذ الزبادي مكانه فوق الفول والبيض فيبدأ التعبُّد من جديد حتى الشروق.

في النصف الأول من رمضان أنزعج من الذين يقولون: «نِفسنا السنة كلها تبقى رمضان»، أقولها بيني وبين نفسي: «يا ساتر على الناس الأوفر». ومع بداية النصف الثاني أستعيد جرأتي وأصارحهم بالحقيقة الموجعة: «فراق رمضان عيد يا جماعة»، هو شهر كله مشقة والله يعلم ذلك جيدًا فجعل الأجر على قدر المشقة، والاعتراف بالتعب لا يدين أي شخص، بل يجعله مجاهدًا ما دام صامدًا. وعلى الرغم من المشقة فإنني أعترف بأن أجمل ساعات الصيام هي الساعة التي تسبق المغرب؛ ساعة صافية أشعر خلالها بخفة ما تسيطر على روحي؛ فالجسد في أشد حالات نقائه مما يجعلني خفيفًا على وشك الطيران. أتذكَّر قول أحد كبار المتصوفة: «ثلاثة أشياء تجعل الروح سامية وقابلة لتلقي الأنوار: الجوع والوحدة والسهر». الجسد الذي تعطَّلت كل أجهزته (الجهاز الهضمي وجهاز الإخراج والعصبي) هناك جزء واحد لم يتعطَّل فيه وهو القلب، الأمر الذي يجعلك تتعامل مع الكون بهذا الجزء فقط، فتتذكر مَن تحبهم فتهاتفهم من أجل الرغي في أي كلام فاضي، ربما تتذكر مَن يستحق الاعتذار فتعتذر له، ربما تفكر في خطف ثواب كبير وأنت صائم فتُجري مكالمة لتصل رحمك، أو تبذل مجهودًا لاقتناص شخص صائم لتكسب ثواب إفطاره. قد تشعر بالسعادة تملأ قلبك وأنت تقوم بأشياء بسيطة مثل عمل السلطة أو تفريغ ماء الطرشي في طبق غويط أو تحلية التمر هندي أو رش جوز الهند فوق حبات بلح الشام، قد تُمرر طبقًا منه إلى البواب أو السايس فيفتح الله عليك وتفهم أخيرًا معنى جملة ترددها دائمًا بلا وعي: «رمضان كريم».

بمناسبة رمضان:

«نظيف» قرر يبقى «نظيف» بزيادة!

لاحظت عند زيارتي لمحلات الحلويات خلال الأيام الماضية أن كحك العيد قد أخذ مكانه فوق أرفف العرض، وأن الإقبال عليه كبير، وأن موضة اصطحاب طبق حلويات شرقي مِشكّل عند زيارة بيت مدعوًّا على الإفطار أصبحت موضة قديمة، والجديد منذ عدة أيام وحتى نهاية هذا الأسبوع هو اصطحاب طبق كحك مِشكّل. توقفت أمام الرصة واكتشفت أن كحك العيد يذكرني بشخص أحبه كثيرًا اسمه بيرم التونسي.

كان عمي بيرم التونسي واحدًا من روّاد العمل في مناجم المشاعر الإنسانية، وكان «مِعلّم» كعادته عندما استطاع أن «يقفش الحتة اللي بتفرّح في العيد» وهي باختصار «تجدد الأمل».

العيد ليس ملابس صينية مستوردة، ولا علب ديناميت، ولا زحامًا على باب فسخاني باب اللوق، ولا فيلمًا هنديًا طويلًا على القناة التانية، ولا حتى الكليب الساذج بتاع «أهلًا بالعيد» المصوّر في حديقة الحيوانات مع الزرافة (أيام ما كان عندنا زرافة تحمّلت الكثير حتى ماتت منذ عامين مكتئبة في بلد نقصَر الرقبة)!

«وجددتي الأمل فينا» هكذا يُعرّفني بيرم التونسي في كل مرة على مصدر البهجة في أي عيد يمر علينا من عيد الفطر حتى عيد الشُرطة مرورًا بعيد «بأي حال عُدت يا معلم».

على مدى السنوات الماضية كان الأمل يتجدّد دائمًا في العيد، لكنه تجديد أشبه بتجديد مجلس الشورى الذي سرعان ما التهمته النيران. تجدّد أملي في نهضة قوية في البلد إثر ظهور رجال الأعمال الناجحين في الصورة التي تضم الوجوه التي تقود البلد ناحية الأفضل. لكنني أستقبل العيد هذا العام وقد انقلب حال الوطن إلى الأسوأ؛ فرجال الأعمال الذين كان يُفترض أن يُحوّلوا الوطن إلى مشروع اقتصادي ناجح حوّلوا الوطن إلى سبوبة، والآن هم ما بين هارب وسجين ومحتكر ومتهم بالرشوة، بعد أن انقسم الوطن في حضرتهم انقسامًا ميتوزيًا وأصبح وطنين: واحدًا تنهال عليه الثروة طوال الوقت، وآخر تنهال عليه صخور المقطم. واحدًا يُراهن على أن يدعم استثماراته بأموال البنوك، وآخر يُراهن على أن يدعم بقاءه على قيد الحياة بمساعدة بنك الطعام. واحدًا يغرق في حفلات رغاوي الصابون وزجاجات الخمور على شاطئ البحر المتوسط، وآخر يغرق في البحر نفسه هربًا من هذا الجحيم المستعر. واحدًا يشكو من قلة قطع غيار سيارات الدفع الرباعي الصيني، وآخر يشكو من قلة أدب سائقي التوك توك. واحدًا يعيش في بيوت تطل على شوارع واسعة بكباري ضخمة، وآخر يعيش تحت كباري ضخمة في شوارع واسعة تُطل على بيوت. واحدًا صلته بالعالم الخارجي عبارة عن ماركات عالمية ومصايف وبنوك سويسرا، وآخر صلته بالعالم الخارجي تبدأ وتنتهي عند الوصلة أم عشرين جنيهًا: واحدًا يحمل موبايلات غالية ومتطورة، وآخر سكانه هم أبطال الكليبات التي يستمتع أصحاب الموبايلات بمشاهدتها. واحدًا عندما يخطئ سكانه يختبئون في دول قوية، وآخر يختبئ سكانه من غير ما يعملوا حاجة.

تجدد الأمل في أن يصبح البلد نظيفًا بعد أن تولّت مسؤولية النظافة في شركة أجنبية، لكن الأمل مات بعدما أن حوّلت هذه الشركة موظفيها إلى متسولين على مطلع كوبري أكتوبر وفي تقاطع جامعة الدول مع شهاب، هذا بخلاف أن البلد بقى أوسخ من الأول... (بالمناسبة فات حملة «بيبسي» التي قدّمت لنا هادي وصادق وكريم أن تستغل القمامة المنتشرة في كل مكان منذ بداية رمضان وتُقدّم لنا شخصية «نظيف» الذي بمناسبة رمضان قرر أن يكون «نظيفًا» بزيادة).

تجدد الأملْ مع شعار «البلد بتتقدم بينا»، لكنني اكتشفت أن البلد ماشي عكسيًا أصلاً. تجدد الأمل مع مصطلح الثورة العمرانية، لكنني اكتشفت أن مفهوم الثورة قد تغيّر؛ فبدلاً من أن تنحاز الثورة إلى البسطاء على حساب المحتكرين انحازت الثورة الجديدة إلى المحتكرين على حساب البلد.

أخاف بشدة من الآمال التي قد يجددها العيد في قلبي هذا العام (ما تبسطهاش أكتر من كده)، لكنني ما زلت متمسكًا بأمل في وطن أفضل، بناس تستحق أن تعيش فيه، بموسيقى جديدة، بصحافة خالية من المبالغة السلبية أو الإيجابية، بجيران لا يضعون زبالتهم أمام باب شقتي، بزملاء بلا أمراض نفسية، بضابط شرطة في خدمتي بالفعل وأشعر في حضرته بالأمان لا بالقلق، بمصلحة حكومية لا يضطرني الذهاب إليها إلى البحث عن واسطة أو فكة خمسين جنيهًا، ببشر قلوبهم صبورة وتتسع للجميع، بأطفال أصحاب عزيمة أقوى ومخاوف أقل وقلوب أكثر رحمة وتسامحًا.

هكذا يهل العيد كل عام بزفة «يا ليلة العيد». أُشارك في الزفة كالمجاذيب وينتفض قلبي عند جملة «وجددتي الأمل فينا» خوفًا من أن أكره بيرم التونسي بمردد الأعياد.

هاعيّد فـ البلد

أعتقد أنك عزيزي القارئ واحد من الذين يقرؤون هذا المقال في قطار الصعيد المزدحم، أو في موقف بيجو الدلتا، أو وأنت تنتظر انطلاق أتوبيس بلدان خط القنال، في كل الأحوال أنت عائد إلى بلدتك الصغيرة التي قذفت بك إلى القاهرة لتُمثلها في بطولة أكل العيش اليومية. أنت اليوم تعود إلى بلدتك لتختبئ بين أحضانها لمدة أيام. أنت اليوم تبدأ إجازتك، تتحرر من قبضة سجن مزدحم وقاسٍ بابه مفتوح على الدوام، لكنك لا تفكر في الهروب أبدًا، الأمر الذي يعمق محبتك للقابعين بعيدًا يحملون ملامح تُشبهك.

عُد في أمان إلى الجدران التي حفرت اسمك عليها بسن البرجل. عُد إلى الشوارع التي قطعتها وأنت تحب للمرة الأولى في حياتك. عُد إلى غرفتك التي علّقت فيها صورًا اقتطعتها من المجلات لنجوم تحبهم. عُد إلى شبابيك بيتك التي راقبت منها والدك وهو يعود إلى المنزل وأكياس الفاكهة تتأرجح في يده. عُد إلى وَنس كبار السن الذين ألهبوا «البلاليك» بالقرص لبُربوك، وألهبوا خيالك بالحكايات والقصص التي علّمتك الكثير قبل أن تكتشف أنها محض خيال. عُد إلى أصدقاء طفولتك الذين شاركتهم بدايات الانحراف، وشاهد نفسك وما فعلته بك الأيام في الشعيرات البيضاء التي تغطي رؤوسهم،

وشرائط الأدوية التي يحتفظون بها في جيوبهم، والتجاعيد التي تُحيط بالشفاه من فرط الضحك الرائق، والتي تحيط بالعيون من فرط الحزن الراقي. عُد إلى بقَّال الشارع لتعرف كيف تغيَّرت الحياة وتغيَّرت مستلزماتها، ولتفهم كيف أن ما كان يُسعدك كطفل لم يعد له وجود بعد أن استبدل البقال أكياس الرونيتو والكادبوري والكلورتس وعلب الديناميت بأكياس الكاراتيه ولبان علي بابا والشوكولاتة الكورونا الخضراء والزرقاء. عُد إلى مطبخ أمك واستنشق روائح الطعام الحقيقي الذي يفتح شهية كل من يمر به، ليس هذا فحسب، بل إنه يذيب الخلافات بين كل مَن في البيت، وتذكَّر كيف كنت تتشاجر مع إخوتك طوال اليوم إلى أن تهب هذه الرائحة وتنتشر في البيت فتقوِّي رغبتك في التسامح. عُد إلى كف أبيك الذي استقر فوق خدك في السراء والضراء، وتأمل التجاعيد المزروعة فوقه، وقاوم خجلك في أن تمنحها قبلة صادقة كلها بر وعرفان. عُد إلى ناصية شارعك التي شهدت أول «توك شو» حقيقي في حياتك ناقشت فيه كل شيء؛ الدين والرياضة والجنس والنميمة والسيارات والسياسة والحب والفن وشائعات الفنانين. عُد إلى المسجد القريب من بيتك الذي كنت تقف أمامه في انتظار انتهاء خطبة الجمعة حتى تدخل وتندس بين المصلين لتصلي الركعتين وتجري عائدًا إلى منزلك لتتابع المباراة أو الفيلم في التلفزيون. عُد إلى سلم منزلك الذي ترك وقوعك عليه علامة لا تختفي فوق أنفك أو بالقرب من حاجبك. عُد إلى محل الحلاقة الذي كنت تنتظر فيه دورك ليلة العيد، وتأمَّل المحل بعد تطويره وبعد أن ورَّثه حلاقك القديم لابنه. عُد واشحن طاقتك الروحية برؤية مَن بقِّي من كل السابق ذكرهم على قيد الحياة، ولا تنسَ أن تقرأ الفاتحة على أرواح مَن رحلوا.

بالنسبة لموضوع العيد فرحة

بين اليقظة والنوم كنت أتابع إحدى محطات الراديو وهي تُعيد بث العمل الفني الوحيد الذي سيدخل التاريخ من بين كل أعمال صفاء أبو السعود «أهلًا بالعيد»، هناك مَن يرى أن سلسلة أغنيات الأطفال التي قدَّمتها ستدخل التاريخ أيضًا وتحديدًا أغنية «ويكده لا بتلوث أسناني ولا تسوس» والحقيقة أنا أوافقه هذا الرأي. عودة إلى «أهلًا بالعيد» تلك الأغنية بلحنها البسيط الساذج المليء بجملة موسيقية تشبه سارينة الإسعاف «العيد فرحة ويتاا ويتاا.. وأجمل فرحة ويتاا ويتاا»، تلك الأغنية كانت منذ سنوات مصدرًا للحماس والنشاط، كانت خلفية للتنطيط على السلم وتفجير الألعاب النارية في وجوه أبناء العم، لكنني أستمع إليها هذا العام وأنا على قيد الحياة إكلينيكيًا؛ فالحواس تعمل بالحد الأدنى من الكفاءة لكنَّ الجسد معطل تمامًا، أشعر بالدم وهو يحاول أن يشق طريقه داخل العروق في اتجاه المخ والأطراف لكنَّ انسيابه بطيء كالقاهرة في الثانية ظهرًا في موسم الدراسة.

«الواحد شكله كِبر» هكذا فسَّرت الموضوع. كدت ألطم على خدي، لكنني لم أستطع أن أرفع كفي؛ هل يصح أن يشعر الواحد أنه كبر وهو في منتصف الثلاثينيات؟ إنني أصغر من أحمد حسن الذي لم يهدأ في حر رواندا وهو صائم

وكان في قمة التركيز واللياقة لدرجة أنه أحرز هدفًا فشل في إحرازه زملاؤه المفطرون (ما شاء الله عليه واللهم لا حسد)، إنني أصغر من بوّاب العمارة الذي غسل العمارة كلها (١٤ دورًا) بمفرده في آخر يوم في رمضان وهو صائم دون أن أرى على وجهه أي علامات إجهاد (تحية لعم بيومي).

«الواحد شكله لازم يلعب رياضة»، كنت قد اتخذت هذا القرار منذ عدة أشهر ونجحت فيه، إلا أنني فوجئت منذ فترة برُكبتي تُصدر صوت طقطقة عنيفًا عند القيام من السجود أو عند قيادة السيارة لفترة طويلة، فاتخذت قرارًا بالراحة من تلقاء نفسي ومن واقع قراءتي لصفحات الرياضة التي تمتلئ بتعليمات الأطباء للّاعبين الكبار بالتزام الراحة لأسابيع قبل العودة للتمارين، لكنني لا أنفي أن الشهور التي لعبتُ فيها الرياضة (المشي والمشاركة في مباريات الكرة مع أطفال النادي) أعادت لي جزءًا من ثقتي بنفسي، خصوصًا بعد أن استعدت قدرتي على إحراز الأهداف.

حاولت كثيرًا أن أفسّر الكساح الذي ألمّ بي وأنا في مُقتبل العمر، ولم أجد تفسيرًا إلا عندما قررت أن أتصل بأهلي وأصدقائي لأعيّد عليهم ولأخرج من هذه الحالة، فوجدت معظم الموبايلات مغلقة، أما الموبايلات المفتوحة فقد رد أصحابها وهم في حال أصعب من حالي؛ كان كلامهم مليئًا باللعثمة والتسقيط والجمل الفاسدة لغويًا والمشاعر المرتبكة، هنا فقط فهمت السبب؛ فالجميع يخرجون من رمضان وكأنهم كانوا مشاركين في ماراثون طويل، وبعد انتهاء الماراثون، وما إن وجدَ كل واحد منهم مقعدًا وجلس عليه حتى حطّ عليه التعب كله مرة واحدة؛ كان التغيير المفاجئ في السيستم، الذي اعتادته الأجساد طوال ٣٠ يومًا، مُربكًا للغاية مما أدى إلى سقوط السيستم الأصلي، فجأة أصبحت قادرًا على أن تضرب كانزاية بيبسي في وضح النهار، وأن

تشرب فنجان قهوة مع سيجارة فور استيقاظك، وأن تُقشّر رنجاية وتلتهمها أو تنام لك ساعة في الضهرية، بخلاف أنك أصبحت فجأة غير مرتبط بعمل أو مواعيد للاستيقاظ والنوم، بل إنك غير مضطر إلى الخروج أصلًا. لأن الأجهزة التي كانت تعمل بنصف طاقتها أصبح الضغط عليها مضاعفًا دون سابق إنذار، فتعطّلت الأجهزة وأصبح معظمنا في العيد من أصحاب الاحتياجات الخاصة (مع كامل احترامي وتقديري لهم).

ارتاح قلبي لهذا التفسير وحاولت أن أخلد إلى النوم لكنني فشلت، لأنني لم أستطع أن أغادر الفراش باتجاه الراديو لإغلاقه والاكتفاء بهذا القدر المبالغ فيه من «العيد فرحة». حاولت كثيرًا دون أي فائدة وتذكّرت أن الدعاء مستجاب في أول يوم العيد فدعوت من قلبي: «يا ربّ النور يتقطع».

Weekend

بدأ العيد يوم الأحد، قبلها بيوم توجَّه وفد سياحي إسرائيلي إلى أحد محلات الحلويات الشهيرة بشارع قصر العيني لشراء كحك العيد وسط حراسة أمنية مكثفة قامت بإخلاء الشارع والمحل لتأمين عملية التسوُّق. وعلى الرغم من إن اللي بنى مصر أصلًا حلواني، فإن حفيده الذي يحتفظ ببعض أسرار البناء والقاطن بطلعت حرب لم يرفض أن يقوم بالبيع للإسرائيليين، وربما كانت حجته أن مؤسسة الأهرام التي تبعد عن المحل عدة أمتار استضافت السفير الإسرائيلي شخصيًا قبل أيام، في الوقت نفسه خسر فاروق حسني صراع رئاسة «اليونسكو» تحت وطأة ضغط اللوبي الصهيوني لإسقاطه في الانتخابات. سيطرة الإسرائيليين على عدة نقاط في صراعنا معهم خلال الأسبوع الماضي لم ينجُ منها أحد إلا منة شلبي يوم السبت الماضي من خلال الحلقة الأخيرة من مسلسل «حرب الجواسيس»، لكنَّ هذا لا يمنع أن «الرحايا» كان أفضل عمل فني خلال الشهر.

في أول أيام العيد ضبطت الشُّرطة أكثر من ٢٣٠ حالة تحرُّش جنسي بعد أن كنا قد اعتدنا على معدل حالة أو اثنتين خلال الأعياد الماضية. وللذين يقولون إن الفقر هو سبب هذه الحوادث أُذكِّرهم أن الداخلية صرَّحت

بأنها قد ضبطت فقط ٣ حالات تسوُّل خلال الفترة نفسها؛ وهذا يعني أن الإصلاح الاقتصادي قد آتى ثماره بس البنطلون ضرب منه، والدليل أن المصريين أنفقوا أكثر من ٣٠ مليون جنيه لتهنئة بعضهم بعضًا بالعيد من خلال الرسائل القصيرة، وكان المواطن الوحيد تقريبًا الذي تخلَّى عن عادة الرسائل القبيحة ورفَع سماعة التليفون ليهنِّئ الآخرين بالعيد هو قداسة البابا شنودة، الذي لم يهنِّئ شيخ الأزهر بعيد الفطر من خلال مكالمة تليفونية عادية من خط بزنس، بل كانت مكالمة دولية من أمريكا حيث يقضي البابا فترة نقاهة، الأمر الذي يجعل أمنية الأسبوع هي أن يعود إلى القاهرة سالمًا. وعند عودته سيسعده كثيرًا أن الدكتور يوسف زيدان صاحب رواية «عزازيل» قد تنازل عن خصومته القضائية مع رجال الكنيسة المصرية بسبب رغبته في عدم إفساد الوئام بين المسلمين والأقباط؛ الذي يعاني ضمورًا واضحًا بسبب المتطرفين من الجانبين. الشخص الوحيد الذي تحرَّر من حساسية الفتنة الطائفية كان مدرِّس لغة عربية بالإسماعيلية شكَّك في الأديان كلها أصلًا ووزَّع على أهالي مدينته منشورات يروِّج من خلالها لديانة جديدة قديمة تدعو إلى عبادة النار. ألقت الشرطة القبض عليه في العيد خوفًا عليه من جيرانه الذين كادوا يفجِّرونه بدلًا من ديناميت العيد.

وبينما كنا غارقين في الحموضة التي خلَّفها كحك العيد، وصناديق الرنجة والفسيخ، كانت الصين تحتفل بإطلاق لقاح إنفلونزا الخنازير بنجاح بعد تجربته على أكثر من عشرة آلاف مواطن، اللقاح الذي اتخذ طريقه إلى دول كثيرة من بينها أمريكا اتخذه أوباما وسيلة لكسب مزيد من احترام الأمريكيين؛ حيث أعلن أنه سيقف في الطابور في انتظار دوره للتطعيم ضد الإنفلونزا، وأن التطعيم سيتم بصورة عادلة ومنظَّمة، وهو أمر لم يصدقه الدكتور حاتم الجبلي فأرسل بالاشتراك مع صديقه وزير الخارجية رسالة إلى سكرتير عام الأمم

المتحدة يعلنان فيها تخوُّفهما من أن لا تتسم عملية توزيع اللقاح على الدول بالعدالة، وتخوُّفهما من احتمال أن تكون دول العالم الثالث في ذيل قائمة الدول التي ستحصل على اللقاح. ولأن الرد لم يصل على هذه الرسالة حتى الآن، في تأكيد أن هذا هو السيناريو المتوقَّع، أعلن الجبلي أن الدُّفعة التي ستصل من المصل ستكون مخصصة بالأولى لتطعيم أطباء الحميات والحُجاج، أما بالنسبة إلى طلاب المدارس فسيتم الاكتفاء بتوزيع أكثر من مليون كمامة. ولأن الصين لن تستطيع أن تُوَفِّي احتياجات العالم من المصل فقد قامت بتصنيع كمامات ملوَّنة، أولادي وبناتي، وكمامات تغني «مين ده اللي نسيك» بمجرد وضعها على الفم، ستتوافر هذه الكمامات قريبًا في كل مكتبات «سمير وعلي». أما بالنسبة إلى صيدليات «سمير وسمير» فستمدُّها الصين بأحدث اختراعاتها وهو غشاء البكارة الصناعي الذي كشفت إحدى الصحف عن توافره بكثافة مُذهلة في مصر وسوريا والأردن.

مخاوف الجبلي من أن يتعامل معنا المجتمع الدولي كعالَم ثالث لها ما يبررها، خصوصًا بعد المهزلة التي تعرَّض لها كأس العالم الذي يطوف عدة دول في حملة ترويجية للمونديال، والذي رفض مسؤولو الجمرك في مطار القاهرة دخوله قبل دفع ٣٠٠ ألف جنيه قيمة الجمارك المقدَّرة على التمثال المصنوع من الذهب الخالص. تعنُّت موظفي الجمارك عطَّل الاحتفال بوصول الكأس إلى مصر، ولم تنتهِ هذه المهزلة إلا بعد أن وقَّع مجدي عبد الغني إقرارًا بأن الكأس ستخرج من مصر خلال ٢٤ ساعة، وقد رضي مسؤول الجمرك بهذا الإقرار من الكابتن مجدي؛ لا لأنه عضو اتحاد الكرة، ولكن لأنه هدَّاف مصر في كأس العالم. وخرج الكأس من المطار بعد أن علَّق عليه الموظف لافتة «جمرك القاهرة ٢٠٠٩»، الأمر الذي يجعل نبوءة محمد سعد في فيلم «بوشكاش» تتحقق، إذ قال: «إحنا مش هنروح كاس العالم.. كاس العالم هو اللي هيجلنا لحد عندنا».

١٠ أسباب أدَّت إلى هزيمة فاروق حسني

راودنا الأمل في أن يفوز السيد الوزير بالمنصب، هذه حقيقة، وهذا ليس راجعًا لإيماننا بأهمية منصب مدير «اليونسكو»؛ فمعظمنا لا يعرف طبيعة عمل المؤسسة، كما أن معظمنا لا يعرف أسماء ٣ شخصيات سبق لهم أن تولَّوا هذا المنصب، ولكن حماسنا مرجعه إلى أن الوزير كان يلعب باسم مصر فكان طبيعيًا أن نتمنى له التوفيق حتى لو كان ينافس في مسابقة للباليه المائي.

أما الهزيمة فلها أسباب عشرة تتراوح بين الجد والهزل:

١- لم يكن الوزير مُرشحًا عن الحزب الوطني؛ ترشيح الحزب كان سيضمن له النجاح مثل بقية زملائه الوزراء: يوسف والي في منظمة الفيوم، والشاذلي في هيئة المنوفية، وبطرس غالي في المؤسسة بشبرا.

٢- لم تكن نية الوزير صافية عندما تحدَّث عن حرق الكتب الإسرائيلية؛ فقد كان يدافع عن بقائه في منصبه كوزير أمام استجواب مُقدَّم من أحد أعضاء مجلس الشعب، ولو كان موقف الوزير وقتها سياسيًّا ثقافيًّا مقترنًا بعداء حقيقي للصهيونية، وبموقف حاسم أمام تسلل الثقافة الإسرائيلية إلى أروقة المكتبات المصرية، لربما أصبح موقفه مُشرِّفًا يستحق الدعم من كل أعداء الصهيونية، لكنَّ محاولاته الدؤوبة للتنصل من هذا التصريح

هزّت صورته وجعلته مجرد شخص يسعى إلى مصلحته من دون قناعات ثابتة وواضحة. كان جديرًا بالسيد الوزير أن يتمسك بموقفه المناهض للصهيونية، وألا يتراجع عنه من أجل مصلحة شخصية، وقتها كان سيستفيد كثيرًا، على الأقل قدرًا من التعاطف الشعبي قد يُسجَّل في سيرته الذاتية للمرة الأولى. لذلك أعتبر أن أحد أهم أسباب عدم الفوز هو «ستر زبنا» لأنه حافظ على كرامتنا كمصريين، فالمهانة كلها أن يذكر التاريخ أننا قد وصلنا إلى هذا المنصب بالوقوف على أعتاب الصهاينة والتقرب إليهم ومحاولة استرضائهم.

٣- الوزير لم يلعب سياسة طيلة حياته؛ فهو رجلٌ فنان عاش حياته في إيطاليا ثم عاد إلى مصر ليعيش حياته رهين معارض الكتب والمؤتمرات والندوات والمعارض التشكيلية، وهذا لا يعيبه، ولكن الفكرة أنه لم يكن يومًا ما دبلوماسيًا، وفشل حتى في إدارة خناقات المثقفين المصريين معه، فكيف له أن يدير معركة انتخابية هي بالأساس لعبة سياسة؟! وأرجوك لا تقل لي إن هناك مَن كان يدير الجزء السياسي في هذه المعركة إلا إذا كنت حضرتك من مُعجبي الأستاذ أحمد أبو الغيط.

٤- الرشاوى؛ فهناك كلام أن الجولة الخامسة من المعركة كانت الكلمة العليا فيها للرشاوى التي قُدِّمت لبعض الدول الفقيرة، بالذات الدول الإفريقية الناطقة بالفرنسية. وهذا يُعيدنا إلى النقطة الأولى وهي أن الوزير لم يكن مُرشحًا عن الحزب الوطني؛ لأنه في هذه الحالة كان المهندس أحمد عز سيُموِّل المعركة دون أدنى شك (بالمناسبة مَن الذي تحمَّل مصاريف الحملة ومصاريف إقامة فريق عمل السيد الوزير في باريس لمدة تزيد على الشهر في باريس؟).

ضعف اللياقة؛ أن يظل الوزير متقدمًا طيلة ثلاث جولات، ثم يتعادل في الرابعة ويخسر في الوقت بدل الضائع، ألا يُذكرك هذا بعيب مصري أصيل اسمه ضعف اللياقة، عيب يحتاج دائمًا إلى مُدرب أحمال، ويمكن ملاحظته في أداء المصريين في كل مكان، بداية من رصف الشوارع مرورًا بشُغل النقاشين، نهاية بفريق طلائع الجيش؟!

الوزير غير متزوِّج، وللزواج مزايا عظيمة في مثل هذه الظروف؛ فوجود امرأة في حياتك يجعلك حريصًا على بذل أقصى ما تستطيعه من جهد حتى تظل محافظًا على صورتك أمامها، فوجودها يُقوي إفراز «الأدرينالين» الذي يجعلك مقاتلًا لا ترضى عن النصر بديلًا، وعدم وجود امرأة في حياة الوزير ربما أفقده بعضًا من طموحه ورغبته في التمسك بالفوز، وربما أصابه مع قرب نهاية المعركة ببعض «التراخي».

الانتخابات لم تكن تحت إشراف وزارة الداخلية المصرية.

ما زلنا نتحدث بلغة المؤامرات ونستخدمها لتبرير الفشل، وكأن فريق عمل الوزير كان يعتقد أن المباراة ودِّية.. التسليم بأن الفوز حليفنا وما عدا ذلك مؤامرة قد يبدو تفسيرًا يأتي مع نهاية المباراة، لكن الحقيقة أننا نلعب به منذ الدقيقة الأولى لأننا عاطفيون ولسنا محترفين.

لم يكن للسيد الوزير أي وجود حقيقي على الساحة العالمية خلال سنوات عمله كوزير وهو خطأ كبير؛ إذ يفكر في الظهور على مسرح الأحداث هكذا فجأة ودون أي مقدمات، بخلاف كثيرين لهم وجود ملموس في المنطقة نفسها، مثل زاهي حواس الذي كان جديرًا بدعوته للمشاركة في حملة دعم الوزير.

١٠- على الرغم من عدم وجود علاقة مباشرة، وعلى الرغم من أن الربط قد يبدو عاطفيًا وساذجًا، وعلى الرغم من أن الفشل في المعركة لا يبدو عقابًا سماويًا، وعلى الرغم من الفارق الكبير بين ألم وآخر، فإن ألم فشل الوزير في معركته ربما يُبرِّد القليل من ألم أهالي ضحايا محرقة مسرح بني سويف.

جسم الجريمة

أن تصحو متأخرًا على موعد تسليم المقال اليومي فيتصل بك الصديق العزيز سكرتير التحرير ليمنحك مهلة أقل من ساعتين لدخول الحمام وتناول الإفطار وصلاة الصبح وتغيير ملابسك والرد على المكالمات غير المستلمة وعمل كوب من الشاي ثم التفكير للوصول إلى موضوع يصلح للكتابة ثم تهيئة الأجواء للتنفيذ مرة وأخرى حتى تصل إلى نتيجة ترضى عنها تجعل هذه المساحة من الجريدة مفيدة بشكل ما فهذا هو الجنون بعين ذات أمه، إنه ارتباك صباحي يجعلك مشوَّشًا قليلًا لأنك «ما عملتش الواجب من بالليل»، ارتباك به مساحة من اليأس تُشبه جملة «إللي ذاكر ذاكر يا برنس»، ارتباك يجعلك فيلسوفًا تبحث عن إجابة لسؤال قديم: ما الذي سيستفيده القارئ من هذه المساحة من الصفحة؟ بل ما الذي سيستفيده من الصفحة كلها على بعضها؟ سؤال يجعلك تتخيل العالم وهو سيستفيد من هذه الصفحة على طريقته الخاصة.

فهذه الصفحة ستتحول إلى «قرطاس» طعمية باردة تنشع زيتًا، أو ورقة «مكرمشة» يمسح بها عامل بائس زجاج سيارة مرسيدس في محطة بنزين وهو يتأمل صدر صديقة صاحب السيارة، أو مُثلث في شريط المثلثات الورقية

الذي يتم وضعه بعرض حارة شعبية في شهر رمضان، أو صاروخ ورقي يُلقيه طالب فاشل على «قفا» مُدرِّس الكيمياء، أو ذيل ورقي يضعه نفس الطالب في عروة بنطلون مُدرِّس الرياضيات، أو ورقة ملفوف فيها شوية بانجو أصلي، وقد يستخدمها موظف كسول ورديء في الشهر العقاري لإزالة بقعة شاي أسود وُقعت فوق مكتبه (هذا إذا لم يسحب ورقة من أي ملف أمامه)، ويمكن استخدامها كتخشينة للشيشة، وقد تستخدمها أمٌّ للف ساندويتش بيض مسلوق لابنها التلميذ، أو لحشو حذاء في مخزن محل أحذية حتى يظل منفوخًا مثل خدود كاتب المقال (انظر الصورة على الغلاف)، أو قد تضعها أسرة فقيرة على زجاج الشباك المكسور ليصد سيوف الهواء فتطير إذا ما تنفّس واحد من الجيران فيسب رب العائلة للصحافة ولبشارة تقلا شخصيًّا، أو يقوم طالب مغترب بلصق الصفحة على الحائط ليعلّق عليه قميصه الوحيد الذي يذهب به إلى الجامعة.

قد تستخدمها سيدة عجوز تقف في طابور المعاشات كمظلة واقية من الشمس الحارقة، وقد يستخدمها رجل في موقف المُنيب كمروحة وهو يجلس في السيارة البيجو في انتظار تحميلها بالركاب، وقد يستخدمها شابٌّ يقف في طابور التجنيد بأن يقطع الهامش الأبيض الخالي ليكتب عليه بيانات شهادته العسكرية، وقد يفردها رجل مسافر في المساحة الواقعة بين عربتي القطار كسجادة صلاة.

قد يستخدمها بقّال ليلفّ فيها علبة سالمون أو بجنيه زيتون، أو يلف فيها بائع سرِّيح شبشب زنوبة لزبون سِمج، وقد يستخدمها نجّار لتلميع قطع الموبيليا بعد دهانها، وقد يستخدمها مُشجِّع أهلاوي لإشعال النار في مدرَّجات الزمالك بعدما يفوز الأخير على الأهلي لأول مرة (وقتها ستكون

الصحافة انقرضت أساسًا)، وقد يُبطِّن بها تاجر فراخ أرضية قفص الديوك (هذا هو «العُرف» في محلات الدواجن)، وقد تقوم ربة منزل بليِّها كقرطاس لتشعل بها وابور الجاز، وقد يستخدمها تاجر فاكهة للفّ حبات المانجو الخضراء ليُخزنها حتى تنضج، وقد يقوم مواطن بثنيها عدة مرات حتى تصبح جامدة ليزيل بها الطين العالق في حذائه، وقد يضعها خفير على ظهره وفوقها ملابسه الثقيلة حتى يخرج البرد من عظامه، وقد يستخدمها صيدلي للفّ علبة عازل طبي لشاب خجول متزوِّج حديثًا (أو غير متزوج.. مش هتفرق).

قد يستخدمونها لتغطية جثة على الطريق الصحراوي (بعد أن ظل المتوفَّى ينزف في انتظار سيارة الإسعاف حتى لم يعد لديه ما يُقدِّمه لها)، أو يضعها عريس جديد على السجاد في أثناء نقل العفش الجديد حتى لا يتلوث بفعل أقدام العمال، وقد تفرشها أسرة في حديقة الأورمان في شم النسيم وعليها «أكلة فسيخ» ثم يجمعونها ببواقي الطعام إلى صفيحة الزبالة.

في بلد من النادر أن تُغير القراءة فيه شيئًا يصبح مقالي جريمة، لكن عزائي الوحيد أننا في بلد يتغاضى الناس فيه عن الجريمة من أجل الاستفادة بجسم الجريمة.

بحبك يا بلادي

(في ذكرى ٦ أكتوبر ٢٠٠٩)

هل كانت تعلم «جولدا مائير» الشهيرة بـ«العمة» أنه في اللحظة نفسها التي كانت تجلس فيها مصدومة على مقعدها في مقر الحكومة الإسرائيلية في تل أبيب يوم السادس من أكتوبر، كان بليغ حمدي يجلس منتشيًا على سلالم مبنى الإذاعة في وسط القاهرة وإلى جواره عبد الرحيم منصور يفصصان قلبيهما لاستخراج نشيد وطني جديد اسمه «حلوة بلادي السمرا بلادي»؟ هل كانت تعلم وردة وهي تغني هذه الأغنية أن حُب بليغ لها في هذا اليوم كان في أرقى حالاته؟ هل احتضنها أمام العازفين وتبادلا الدموع؟

هل كانت تعلم انشراح، جاسوسة بئر سبع، التي خدمت الصهاينة لسنوات طويلة أن الأمر سينتهي بها كعاملة بدورة مياه سيدات في مدينة حيفا كما نشرت جريدة «يديعوت أحرونوت» في ٩٨؟ أظنها عرفت وقتها معنى الخيانة، بالضبط كما عرفت متأخرًا سر عدم شعوري بالراحة في كل مرة أمرُّ فيها بالقرب من نادي الجزيرة؛ فهو النادي (مع احترامي لكل رُواده) الذي أفرز الجاسوسة هبة سليم وخطيبها وشريكها ضابط الجيش، أُعدمت الجاسوسة التي استبدلت شلة من ضباط الموساد بشلة النادي،

لكن بقيت رائحتها في المكان تؤرق المارين به دون أن يفهموا السبب، أما شريكها الذي كان يعمل مديرًا لمكتب أحد أهم قيادات الجيش المصري في هذه الفترة فقد صدر ضده حكم بالاعدام رميًا بالرصاص، وأصر قائده على أن ينفذه بنفسه، ولأن اللوائح العسكرية لا تسمح بمثل هذا التصرف فقد خيَّر هذا القائد السادات بين قبول استقالته وبين تنفيذ الحكم بنفسه فسمحوا له بالتنفيذ.

هل تعلم أرواح أطفال مدرسة «بحر البقر» أن ابن أختي قد بدأ الدراسة بالأمس، وأنه يقف الآن في أثناء كتابة المقال ليؤدي تحية العلم وهو لا يتوقَّع سوءًا على الإطلاق؟ هل كانوا يتوقعون في اللحظة نفسها أن تكون تحيتهم للعلم هي الأخيرة؟ هل تعلم ماجدة أنها لولا أنها قدمت فيلمًا نبكي في منتصفه كلما بدأت أغنية «محافظتي الشرقية، ومدرستي بحر البقر الابتدائية، وكراستي مكتوب عليها تاريخ اليوم، مكتوب على الكراس اسمي، سايل عليه عَرَقي ودمي، من الجراح اللي في جسمي، ومن شفايف بتنادي، يا بلادي يا بلادي، أنا بحبك، يا بلادي»، هل تعلم ماجدة أنها لولا هذا الفيلم الذي ننتظره من العام إلى العام ما كان لقلوبنا أن تذكرها بشيء؟ (الأغنية لفؤاد حداد، وبليغ حمدي).

هل كان يعلم السادات عندما قرر أن يحارب الجنودُ وهم صائمون أنه بعد سنوات ستصدر فتوى تسمح للاعبي كرة القدم بالإفطار في المباريات المهمة؟ وهل كان يعلم أن اختياره للثانية ظهرًا موعدًا للعبور أصبح سلوكًا أصيلًا في حياة المصريين من بعد؛ حيث يبدأ المصريون كل يوم في الموعد نفسه وبكثافات عالية في العبور من مدينة نصر إلى المهندسين أو العكس، والطريف أنهم يفعلون ذلك عبر كوبري اسمه «٦ أكتوبر»؟ لا أظن، وإن كنت أثق بأنه يعرف أن المصريين عندما ينتصف نهارهم وهم صائمون يصبحون في أشد

حالات العدوانية، وهو الأمر الذي جعلنا نقضي على الجيش الإسرائيلي في ست ساعات.

هل كانت تعلم فايزة أحمد أنني لم أكن أحبها إلى أن صحوت يومًا شاعرًا بكآبة ما مسيطرة على روحي؛ كانت تقل وطأتها كلما غنيت جملة موسيقية عذبة «ولو خيروني أقول يحرموني ولو نور عيوني واحبك يا مصر»، جملة فشلتُ في معرفة مصدرها، لكنني ظللت متمسكًا بها كحباية مهدئة لمدة يومين، وكلما التقيت شخصًا لا أخجل من أن أغنيها أمامه حتى يدلني على أصلها، إلى أن أخبرتني صديقة أنها من أغنية «بحبك يا بلادي» (الأغنية لمحمد حمزة ومحمد سلطان) لأقضي بعدها يومين على الإنترنت بحثًا عنها إلى أن وجدتها، فأرسلتها إلى صديقتي التي أبديتُ أمامها دهشتي من قُدرتها على التعرف على أغنية وطنية مجهولة، لكنها فسّرت الأمر ببساطة: «أصل بابا شهيد».

الريّس حسن شحاتة

أكره الكُتاب الذين يبدؤون مقالاتهم بجملة «مما لا شك فيه». كان لا بد أن أبدأ مقال اليوم بهذه الجملة لأنه مما لا شك فيه أن انتصار أكتوبر هو الإنجاز المصري الحقيقي الوحيد خلال الأعوام الخمسة والثلاثين الماضية، ومما لا شك فيه أن الرئيس مبارك كان صاحب دور مهم بقيادته لسلاح الطيران صاحب مفتاح النصر في هذه المعركة، وسوف يذكره التاريخ بكل خير في هذه الجزئية.. نقطة ومن أول السطر.

لا نستطيع أن ننكر على سيادة الرئيس مجدًا حربيًا يستحقه، المشكلة في كذابين الزفة الذين أرادوا أن يجاملوا الرئيس فاختزلوا نصر أكتوبر في «أول طلعة جوية.. فتحت باب الحرية»، كذابين الزفة الأذكياء الذين يعرفون أن الشعب لن يعترض على هذا الربط بين النصر والرئيس ولكنهم سيختلفون على هذا الربط بينه وبين مصطلحات التنمية والرخاء والإصلاح الاقتصادي، لذا يبدو الربط منطقيًا ومقبولًا، بل وكرمًا منا واحترامًا لسيادة الرئيس نتجاوز أحيانًا عن المبالغة؛ إذ يغفل كذابين الزفة أول طلعة مدفعية وأول طلعة مشاة وأول طلعة سلاح مهندسين... إلى آخره.

لكن الخوف كل الخوف من أن يتم الربط بشكل تعسفي بين هذا الإنجاز المصري الوحيد وبين أي شخص آخر قد يصل إلى سدة الحكم (استمعت إلى مصطلح سدة الحكم في أحد البرامج منذ يومين وأعجبني بشدة لدرجة أنني بقالي يومين كل ما حد يقول لي حاجة أقول له المهم سدة الحكم)، المهم.. خوفي من كذَّابين الزَّفة وتحايلهم على الأمور يلازمني ويكبر في ذهني دون أن أستطيع أن أقاوم الأفكار التي ستُبنى عليه. فإذا وصل السيد جمال مبارك إلى سدة الحكم أخشى أن يتم الربط بين الانتصار وبين كون السيد جمال تحمَّل قسوة ومرارة الحرمان من حنان ورعاية الأب الذي كان في خدمة الوطن بعيدًا عن بيته لفترة طويلة؛ سيقولون إن السيد جمال آثر مصلحة الوطن على مصلحته الشخصية، الأمر الذي مهَّد الطريق إلى النصر، سيذكرون أن السيد جمال تخلَّى عن احتياجاته كطفل بحاجة إلى وجود أبيه حتى يساعده على الأقل في حل الواجب مقابل أن يتفرَّغ الأب لحل واجب الوطن.

أما إذا وصل المهندس أحمد عز إلى سدة الحكم، فسيقوم كذَّابين الزَّفة بالربط بين عائلة المهندس التي كانت من أهم تُجار الحديد الخردة في السبتية في هذا الوقت وبين النصر، بأن العائلة وفي مُقدِّمتها المهندس أحمد أسهمت بكل ما تملك من خردة من أجل المجهود الحربي، وربما كشفوا لنا عن صور للكباري الحديدية التي عبرنا عليها وقد نُقش على جوانبها بالخط البارز «حديد عز.. السبتية.. ت: ٨٦٤٧٥٨».

وإذا وصل محمد أبو العينين فسيقولون إنه قام بتبليط حائط الصواريخ بالسيراميك على نفقته. وإذا وصل عمرو موسى فسيقولون إن الدبلوماسية لعبت دورًا خفيًّا في حشد العالم لمساندة مصر لعبور القناة. وإذا وصل الإخوان فسيقولون إن هتاف «الله أكبر» هو الموضوع كله.

صدقني عزيزي القارئ مش هيغلَب كذَّابين الزَّفة في الصعود إلى خشبة المسرح والتنقيط بورق خمسينات وهم يجعلون للرئيس الجديد دورًا في الإنجاز الوحيد الذي لن نختلف عليه ولن نشكك فيه، حتى إذا وصل الكابتن حسن شحاتة إلى سدة الحكم سيقولون إن الفترة التي قضاها أبو كريم محترفًا في نادي «كاظمة الكويتي» في أثناء الحرب كانت غطاء لعملية وطنية استخباراتية كان الهدف منها الحصول على دعم ومساعدة الأشقاء في الخليج من أجل تحرير سيناء، وساعتها سنصدق وسنصفق كثيرًا للمجهود حسن شحاتة وقد نغني له: «أول ضربة رُكنية.. فتحت باب الحرية».

أكتوبر ١٩٦٦

كان محمد فوزي في قمة عطائه الفني عند بداية الستينيات: أفلام ناجحة، وألحان متميزة عصيَّة على التقليد. قاده صدقه الفني إلى الجزائر التي اختارت أغنيته «بلدي أحببتك يا بلدي» لتُصبح نشيدها الوطني، وقادته روحه المرحة إلى تلحين السلام الجمهوري لكل أطفال العرب حتى اليوم: «ماما زمانها جاية».

في الفترة نفسها أسس شركة إنتاج فني اسمها «مصر للأسطوانات»، قدَّم من خلالها أعمالًا كثيرة له ولغيره من المطربين. وكان اسم شركته عنوانًا للجودة الفنية، ونجح لحن أغنية «يا مصطفى»، الذي قدَّمه لمطرب جديد اسمه بوب عزام، نجاحًا باهرًا وطاف بها أوروبا وحقق بها مكاسب مادية ضخمة قُدِّرت بمليون جنيه عن حق الطبع الميكانيكي. واستطاع أخيرًا أن يُقنع أم كلثوم بأن تغني من ألحانه بعد أن اختار قصيدة فُصحى للشاعر عبد الفتاح مصطفى ولحنها وعرضها على الست التي أُعجبت بها وأعلنت أنها ستكون أغنيتها القادمة بعد إجراء بعض التعديلات. وبدأ فوزي يعيش حياة أُسرية سعيدة مع زوجته كاريمان الشهيرة بـ«فاتنة المعادي».

ودون سابق إنذار بدأت الدراما؛ فوجئ فوزي أن بوب عزام قدَّم الأغنية في أوروبا باعتبارها من ألحان بوب نفسه. في الوقت نفسه رفع محمد الكحلاوي دعوى قضائية يتهم فيها فوزي بسرقة اللحن منه، وذهب فوزي إلى المحكمة واستطاع أن يحصل على البراءة بعد مجهود عنيف، لكنه لم يستطع الحصول على حقوقه المادية التي هرب بها بوب عزام. بعدها بشهور صدرت القرارات الاشتراكية التي أممت شركة «مصر للأسطوانات»، وصله الخبر وهو يُسجل إحدى أغنياته، وذهب بنفسه لتسليم المصنع والمكتب للإدارة الجديدة التي قامت بتعيينه مستشارًا فنيًا، وخصصت له مكتبًا في غرفة كانت مخصصة من قبل لعمل الشاي والقهوة، فانسحب معتذرًا من المكان كله.

بعدها بأيام اتصلت به أم كلثوم تطلب منه أن يُسرع في عمل التعديلات المطلوبة على اللحن حتى تلحق الأغنية بالموسم الجديد. حاول فوزي لكن الظروف المحيطة به أغلقت صمام الموسيقى المتدفقة داخل روحه فاضطرت أم كلثوم إلى تأجيل المشروع.

بعدها بأيام وقع فريسة للمرض، لم يكن هناك طبيب واحد في العالم يعرف تشخيصًا لحالة إنسان نام ثم استيقظ على آلام مبرحة في جسمه، بدأ بعدها فقدان تدريجي ومنتظم للوزن بلا توقف حتى أصبح وزنه أقل من خمسين كيلو جرامًا. بعد أن اكتشف فوزي موسيقى جديدة استطاع مرضٌ جديد أن يكتشف جسد فوزي.. مرضٌ كان هو أول من أُصيب به في العالم كله، الأمر الذي جعل العلماء يُسجلونه في كل الموسوعات العلمية باسم «مرض محمد فوزي».

وفي مستشفيات نيويورك قرر فوزي أن يعود إلى مصر؛ ليس يأسًا من العلاج، ولكن خوفًا من أن يموت غريبًا.

بعد وفاة فوزي في أكتوبر ١٩٦٦ عن عُمر ثمانية وأربعين عامًا، شُيع جثمانه من عمر مكرم ملفوفًا بعلم مصر. بعدها اعتزل الكحلاوي الفن وتديَّن، وحاول محمد الموجي أن يستكمل تلحين الأغنية حتى تُغنيها أم كلثوم لكنه فشل. أغلقت شركة «مصر للأسطوانات» أبوابها بعد أن أفلست، ولقي بوب عزام مصرعه في حادثة سيارة، ثم انشغلت مصر كلها بنكسة يونيو.

رومانسية «هيرودوت»

كان «هيرودوت» رومانسيًّا عندما أطلق صيحته الشهيرة «مصر هبة النيل»؛ تلك الصيحة التي تشبثنا بها بقوة مثلما تشبثت نبيلة السيد بـ«عريس يا اماي»، وأصبحت من مقررات قصائد الفخر الكاذب التي نرددها ببلاهة كل صباح.

هل فكرت في معنى الجملة؟

مصر هبة النيل؛ أي أننا (وهيَّ مصر إيه غيرنا إحنا وشوية حاجات فوق بعض؟) أبناء هذا النيل نشبهه كثيرًا..

النيل لونه رمادي، وهو لونٌ منافقٌ ليس له موقف محدد، ويحاول أن يُرضي قطبي الألوان الأبيض والأسود، لونٌ ليس له طعم بخلاف لون البحر الأزرق الموصوف تأمله علاجًا للأعصاب وملهمًا للروح. نحن شعب رمادي بلا موقف واضح، مهادنٌ يسهل حكمه وتسهل السيطرة عليه بأمين شرطة، منافقٌ لمن هم أعلى منه سلطة أو ثروة أو شهرة، منافقٌ حتى للنيل نفسه بإطلاق اسم الورد على النباتات التي أجمع العلماء على كونها ضارة (ورد النيل).

النيل يجري في مقاسات ثابتة ومحددة سلفًا كعبد ذليل، بلا رغبة في المغامرة أو الثورة أو التمرد على الضفتين اللتين تحكمانه منذ قرون. يلتف المجرى

فيلتف معه النيل بلا تردد. نحن أيضًا لا نثور على الضفاف التي تعوق حر ولا تسمح لنا باكتشاف مناطق جديدة، حتى تكلّسنا وأصبحنا غير قاد على التغيير، بالضبط مثلما كان النيل عصيًّا على أن يغير اتجاهه ليدخل إ توشكى لأنه ببساطة فقد طموحه.

النيل إيقاعه بطيء، تعلّمنا منه أن «الدنيا ما طارتش» والحقيقة أنها تط من بين أيدينا بالتدريج؛ لأننا أصبحنا بحكم جيرتنا للنيل لا نصلح لموا الإيقاع الذي يسير به العالم. البطء سمتنا المميزة فوق كوبري أكتوبر، وم ملعب استاد القاهرة، وفي ورش النجارين في دمياط، وفي إجراءات التقاض وفي تنفيذ الوعود الحكومية، وفي العثور على فرصة عمل، وفي الحصول ع قرض، وفي وصول الإسعاف والنجدة والمطافئ، لكن للأمانة هناك أش سريعة (عندك مثلًا خدمة التوصيل من «ماكدونالدز» وموكب ر الوزراء).

النيل يسير ككيان واحد حتى يتفرّع في القناطر إلى فرعي رشيد ودميا كذلك نحن نظل نتحدث عن أننا كيان واحد ونفخر ونهلل لهذه الص حتى نصل إلى قناطر ما، فنتفرّع إلى فرع مسلم وفرع مسيحي على ضفا كل منهما هناك عدد من الجرحى والغرقى لم تُنقذهم أسطورة «عاش الهلا مع الصليب» من الأذى. نتفرّع إلى فرع أهلاوي وآخر زملكاوي لم يستط المنتخب أن يوحدهما أبدًا وسقط على ضفافهما مَن هو جريح ومَن أشعل فيه النار حيًّا. نتفرّع إلى متأسلم ومتعلمن، إلى غني يسحب من رصيد الوط الذي بات عاجزًا عن الإنفاق، وعلى الفرع الآخر فرع الفقراء.

«هيرودوت» الروماني كان يقصد بجملته هذه الفراعنة، الذين بنو حضارتهم بتقديس النيل واستفادوا من وجودهم إلى جواره، أيام الاحتفال

بعيد وفاء النيل الذي أُلغي لأنه لم يعد هناك وفاء على أيدينا نحن الذين لم نستفد من النيل إلا برفع أسعار الشقق المطلة عليه، تلك الشقق التي سرعان ما سينخفض سعرها عندما تُحكِم إثيوبيا سيطرتها على المنابع فيصبح ماء النيل غورًا، وساعتها ستستوي أسعار الشقق المطلة عليه مع أسعار الشقق المطلة على ترعة الزمر.

النيل ملوّث مثلنا تمامًا، تجري في دمائنا وفي مياهه المجاري نفسها. ومثلما قبل النيل إهانة التلوث والمخلفات قبلناها نحن أيضًا. النيل قبلة المنتحرين وكذلك الحياة في مصر في هذه الأيام. نُشبه النيل حتى في فخرنا بأشياء لا دخل لنا بها؛ فالنيل هو أطول أنهار العالم وهو مجد لم يصنعه النيل بنفسه، ونحن أبناء حضارة ٧٠٠٠ سنة وهي جملة خاطئة تحتاج دومًا إلى تصحيح؛ فالحقيقة أننا شعب بينه وبين الحضارة مسيرة ٧٠٠٠ سنة.

أما مقولة إن «اللي يشرب من النيل لازم يرجع له تاني» فهي أكذوبة تُشبه تمامًا أكذوبة أن المصريين «شعب دمه خفيف».

١٠ أوجه شبه بين أحمد عز وتامر حسني

في لحظة جرد لما تم في هذه الزاوية خلال الشهور الماضية اكتشفت أن هناك موضوعات مكررة، لذلك وحرصًا على التجديد قمت بإعداد قائمة بالموضوعات والأشخاص الذين أصبحت الكتابة عنهم مستهلكة ومملة، خصوصًا أن الكتابة بصددهم كانت مليئة بالنقد والسخرية دون أن يُغير ذلك شيئًا بخلاف أنَّ شَغل القارئ بهم سيمنحهم وجودًا في المخيلة أكثر مما يستحقونه. أعددت القائمة، وقبل أن أُعلقها أمامي لاحظت أنها تضم عناوين لموضوعات كثيرة، لكنها تضم اسمين اثنين فقط «تامر حسني والمهندس أحمد عز». اندهشتُ للعلاقة التي نشأت بينهما فجأة عبر قائمتي. صحيح أن أسباب التوقف عن الكتابة عن كل واحد منهما تختلف عن الآخر، لكن وجود الاسمين أمامي في مصير واحد جعلني أبحث عن أوجه الشبه بينهما.

لا شك أن هناك تشابهًا ما على مستوى الشكل تحديدًا فيما يتعلق بقِصر القامة؛ قِصر القامة ليست تُهمة بالمناسبة وليست استعارة مكنية، فكلاهما عالي القامة في مجاله، لكن لأنها عنصر مشترك بينهما قفزت إلى ذهني الحِكم المأثورة التي تحدَّثت عن قِصر القامة مثل: «كل قصير مكير»، و«احترس من كل ما اقترب من الأرض». وهنا اكتشفت وجه شبه جديد؛ فكلاهما مكير في مهنته، وكلاهما يحب

الاحتراس منه؛ فعز مدجج بالسلطة، وتامر مدجج بمُعجبين يحاربون الكون من أجله وسيكون لهذا المقال نصيب من هذه الحرب.

كلاهما، وفي سبيل الوصول إلى قدر من التميُّز يُرضي طموحه المهني، ربط اسمه باسم شخصية كبيرة وإن اختلفت الطريقة؛ فقد ربط أحمد عز اسمه باسم السيد جمال مبارك كصديقَين تجمعهما لقطات كثيرة وهما يتبادلان أحاديث هامسة تؤكد عُمق علاقتهما، فأصبح الرأي العام يربط بين اسم جمال مبارك وما له من دلالة وبين عز، فقصَّر هذا الربط عليه المسافات وقاده إلى بؤرة الضوء سريعًا. أما تامر فقد ربط اسمه باسم عمرو دياب ولكن بطريقة عكسية، فقد نصَّب تامر نفسه نِدًّا وخصمًا لدياب وسرَّب إلى الجمهور شعورًا بأن قامته من قامة عمرو دياب، إذا أعلن دياب عن تصوير الحلم أعلن تامر فورًا عن تسجيل قصة حياته، وإذا أعلن دياب عن مسلسل لرمضان أعلن تامر عن مسلسل بالمثل، بخلاف اتهاماته لدياب بأنه يقف في طريقه، وأنه كان سببًا في مشكلته الشهيرة التي قادته إلى الحبس، وظل تامر يُعمِّق هذا الشعور لدى الجميع إلى أن أصبح السؤال أمرًا واقعًا: «إنت تامراوي ولا عمراوي؟»

كلاهما يحتاج إلى المسرح ليحقق هدفه أيًّا كان المسرح. وليست مصادفة أن مسرح قاعة المؤتمرات الذي قدَّم عليه أحمد عز استعراضه في افتتاح مؤتمر الحزب قدَّم عليه تامر فقرته الغنائية من قبل. كلاهما يعتمد على شباب الفيس بوك في إدارة جزء من المعركة، عز يستعين بهم لعمل جروبات مضادة تهاجم كوسيلة للدفاع، وفي الوقت نفسه تُقرِّب عز والحزب وأمين السياسات من الشباب. أما تامر فتقف خلفه قبيلة من «النتيتة والفيس بوكاوية» يهجمون على أي موقع أو جروب أو منتدى به جملة تمس تامر من قريب وبعيد وينكلون بمحبي أي مطرب آخر إذا تجاوز حدوده.

كلاهما من المستحيل أن تكون مشاعرك حيادية تجاهه، فإما حب وإعجاب يصل إلى حد الانسحاق في حالة أحمد عز (راجع سيطرته على «الوطني» في البرلمان وهتاف أعضاء الحزب له في افتتاح المؤتمر)، ويصل حد الإغماء في حالة تامر (راجع البنات في حفلاته)، وإما كراهية تامة لمسها بوضوح بمجرد فتح سيرة أي واحد منهما في مقر عملك.

كلاهما مُتهرب، تامر تهرَّب من التجنيد وتلقَّى عقوبته ولن يُكررها، يتهرَّب عز دائمًا من وسائل الإعلام ويتعرَّض للعقاب دون أن يثنيه ذلك مواصلة التهرب. تامر «نجم الجيل»، وعز نجم «جيل المستقبل». تامر شاب مصري مكافح بدأ من الصفر ويعيش الآن في «عز»، وعز.. كل مرة أشو فيها بابقى نفسي...

Weekend

في محاولة لطمأنة شعب «شكَّاك بطبعه» كان الدكتور الجبلي هو أول من ضرب حقنة من مصل الخنازير أمام الكاميرات، الحمد لله الشعب اطْمن على الوزير ولمحت في عينَي البوَّاب نظرة فخر وهو يحدثني عن جرأة الوزير في التعامل مع عقَّار سبقته سُمعة سيئة ومخيفة كادت تثني الكثيرين عن أداء فريضة الحج. بدد الوزير هذه المخاوف والشكوك وجعلني أتمنى أن يقلده وزراء كثيرون، فيقضي وزير الداخلية أسبوعًا في أحد المعتقلات على طريقة «ستار أكاديمي» لنطمئن أنها ليست موحشة كما يروِّج الإعلام. ويقضي وزير الزراعة «ويك إند» في المزارع التي يُشاع أنها تُروى بماء المجاري، يتناول خلالها كل ما تجود به هذه الأراضي. ويخوض وزير التعليم امتحانات الثانوية العامة بنفسه ليُطمئننا أنها في مستوى الطالب المتوسط.. شكرًا للجبلي الذي يكافح في حدود إمكانيات وزارته بشكل يستحق التقدير، وليسامح الله الدكتور عاطف عبيد الذي اتضح أنه صاحب فكرة إسناد مهمة نظافة القاهرة والجيزة إلى شركات عالمية، فكرة جعلت «ورشة عمل الأسبوع» هي جلسات العمل المكثفة التي تعقدها الحكومة مشكورة، وتحاول من خلالها البحث عن مخرج قانوني لفسخ التعاقد مع هذه الشركات التي تتقاضى ٥٠٠ مليون جنيه شهريًا

من أجل تحويل البلد إلى مستنقع قمامة مترامي الأطراف، وتحويل الكناسين الشرفاء إلى متسولين بمقشات في الإشارات وعلى نواصي الكباري.

صرّح أمين سياسات الحزب الحاكم برغبة الحزب في «الانفتاح» على أحزاب المعارضة، بعدها بيومين «انفتح» باب القاعة التي كان يُعقد بها مؤتمر الحزب الدستوري الحر المعارض، ودخل عدد كبير من رجال الأمن بملابس مدنية ورسمية وقاموا بأخذ أسماء الموجودين في المؤتمر، بعدها بيوم «انفتح» باب السجن في وجوه ٣ من شباب حركة ٦ إبريل لأنهم كانوا يكتبون على جدران وسط المدينة «لا للتوريث». أنا شخصيًا قررت أن أذهب إلى العمل غدًا مرتديًا تيشيرتًا مكتوبًا عليها «لا للانفتاح».

حكمة الأسبوع: أهم درس من الممكن أن نتعلّمه من التاريخ هو أنه لا أحد يتعلّم من التاريخ.

إحباط الأسبوع: قد ظهر جليًا في تصريحات الفنان حسن يوسف الذي قال إن المسلسلات الدينية لا تحظى بنسبة مشاهدة عالية لذا قرر اعتزالها، على الرغم من أن معظم المسلسلات الخمسين التي عُرضت في رمضان الماضي كان لها علاقة بشكل غير مباشر بالدين؛ إذ إنها طلّعت دين عدد كبير من المشاهدين بالملل والسذاجة والافتعال. الكلام عن الدِّين كاد ينتهي لولا تصريح لأحد أرباب السوابق الكابتن الأخضر بلومي لاعب الجزائر الدولي، الذي قال فيه إنه يشك في إسلام الكابتن حسام حسن، واستشهد بانفعال حسن الزائد في الملعب واحتكاكه بالجمهور، الغريب أن هذا التصريح خرج من لاعب مُتهم بإحداث عاهة مستديمة في مشجع مصري بعد مباراة ٨٩ التي أهّلت مصر لكأس العالم بالفوز على الجزائر بهدف للكابتن حسام حسن!

أخذنا الكلام إلى ملاعب كرة القدم، لا بأس.

بهجة الأسبوع: أن مطربي المفضَّل أحمد عدوية أعلن أنه زملكاوي، الأمر الذي يُفسّر لماذا مستوى الزمالك دايمًا «حَبة فوق.. وحَبة تحت».

سقطة الأسبوع: كانت للكابتن مدحت شلبي الذي لم يراعِ حقوق زمالته للكابتن شوبير (أيًا كان رأيك فيه) وقال ساخرًا ووجهه يشع بالفرحة إن الحصانة قد رُفعت عن برنامج «الرياضة اليوم». سخريته جعلتني أتعاطف للمرة الأولى في حياتي مع علاء صادق، وأفهم سبب استقالته من العمل في مكان واحد مع شلبي.

حزن الأسبوع: كان لرحيل الدكتور مصطفى محمود.

مفاجأة الأسبوع: كشف الإعلامي وائل الإبراشي عنها النقاب في برنامجه الذي استضاف أدهم ابن الراحل والذي قال: «إن السبب وراء اعتلال صحة والده هو جواب أرسله مدير مكتب رئيس الجمهورية للشؤون السياسية، عام ١٩٩٤، عقب نشر الفيلسوف الراحل مقالًا في «الأهرام» أثار استياء القيادات الإسرائيلية، دخل بعدها في نوبة حزن شديدة أثّرت على صحته، خصوصًا أن الخطاب عبَّر عن توبيخ سياسي واضح من الدولة لم يقتصر فقط على كتابات الراحل، بل امتد إلى الاعتراض على محتوى «العلم والإيمان»». لم تكتفِ الحكومة بتوبيخ مفكر مهم، بل غابت عن جنازته بشكل أثار الاستياء، لكنني التمست لها العذر؛ فالحكومة لم تشارك في الجنازة لأنها كانت مشغولة في فعاليات فرح مقام في أشهر قاعات مدينة نصر، هذا الفرح ذو الزفة التي أصابت البلد بشلل مروري لمدة ثلاثة أيام «أحياه» كوكبة من المساهمين في «موت» الكثيرين برًا وبحرًا وتلوثًا وصرفًا صحيًا. عمومًا.. زواج مبارك.. إن شاء الله.

الدكتور البرادعي.. مفيش حاجة تيجي كده

نُصب مولد الدكتور البرادعي، بمجرد تلميح من الرجل أشعل حماس الإعلام قبل حتى أن نعرف كيف ينظر الرجل إلى مستقبل مصر، ولا حتى ملامح برنامجه لملاحقة ركب التطور الإنساني كما قال قبل شهور في «العاشرة مساء» دون إيضاح كافٍ.

الاستنجاد بالبرادعي لمجرد أنه شخصية عالمية مرموقة ونوبلية وشجاع في مواجهة أمريكا، يُذكرني بالطريقة التي يختار بها مجلس إدارة الزمالك مدربيه؛ يتعاقدون مع أسماء كبيرة في عالم التدريب سرعان ما تفشل مع الفريق، لأن مجلس الإدارة لا يعرف احتياجات الفريق بدقة ليتم بناء عليها اختيار المدرب المناسب.

أشم رائحة نزعة عاطفية في التمسك بالبرادعي، تُذكرني بمشاعر كثيرين بعد أن فاز أوباما في الانتخابات الأمريكية، فرحة مبعثها مجرد الحلم بالتغيير، والتغيير هو الشيء الوحيد الذي أتمسك به عند الكلام عن الانتخابات الرئاسية. لكن الدكتور البرادعي لا أشعر بحماس تجاهه، لا لعيب في شخصيته، لكن لعيوب كثيرة نعيشها تحتاج إلى شخص بمواصفات تقول المعلومات المتاحة عن الدكتور البرادعي إنها غير موجودة فيه. فإذا كان مبعث ثقتنا بالرئيس

مبارك أنه كان أحد قادة الحرب، فمحبتنا العارمة للرئيسين اللذين قدّما لمصر الكثير في فترة شبابها (ناصر والسادات) أن الأول ابن بوسطجي عرف معنى الفقر، وعاش في بيوت كادحة، وتواصل مع الشعب قبل وبعد الرئاسة بصدر مفتوح وعيون لمّاحة وقلب ملؤه التعاطف، أما الثاني فقد بدأ حياته من الصفر، وعمل سائق سيارة نقل، ومقاول أنفار، ودخل السجن، وقضى عمره في الجيش، أي أنه يعرف خريطة الشعب النفسية والاجتماعية بشكل ساعده في عمله بنسبة لا يمكن تجاهلها. أما الدكتور البرادعي فلم يعش في مصر منذ عام ٦٤ حتى يومنا هذا سوى ستة أعوام (٧٤-٨٠) قبل أن يستقر في الخارج متواصلًا مع البلد وناسه بميكانيزم السائح. هناك فجوة ما بينه وبين طبيعة هذا الشعب التي تتغير يوميًا وبمعدلات مُربكة، هو ليس على دراية بالمصالح المتشابكة، والكوادر المهمة، والأسماء التي أهدرنا قيمتها، والأفكار التي انقسم الشارع حولها. لا يعرف أسعار تذكرة المترو، أو رغيف العيش، أو أرقام البطالة، أو أعداد المنتحرين، أو أسماء المرشحين في انتخابات أي نقابة، أو الطريقة التي يمكن بها إرضاء شعب «شكّاك ومخوّن بطبعه». لا يعرف خريطة مشكلاتنا اليومية التي تكدر عيشتنا. لا يعرف أسماء الكُتّاب أصحاب المصداقية في الشارع أو المنافقين. لا يعرف مَن هم نجوم البلد حاليًا في شتى المجالات. ترشيح البرادعي يجعله عريسًا يتقدّم لمصر لتطلب يدها صالوناً، في وقت مصر فيه في أمس الحاجة إلى أن يتزوجها لكن عن حب.

وهذا لا يعني أنني أؤيد أسماء بعينها. ومن الآخر، المقارنة بين الدكتور البرادعي والسيد جمال مبارك تُشبه المقارنة بين منتخب روسيا بطل الكرة الطائرة وفريق كرة الماء في النادي الأهلي لمعرفة أيهما أكثر مهارة في لعبة كرة القدم. وبالمناسبة أعترض على تعليق الحزب الحاكم حول أن الكلام عن الانتخابات الرئاسية سابقٌ لأوانه، خصوصًا أن رجال الحزب هم روّاد الكلام

عن المستقبل وجيل المستقبل، والبحث عن رئيس لمصر قبل الانتخابات بشهور ليس سابقًا لأوانه، ولنا درس في الانتخابات الأمريكية الأخيرة التي استمرّت تصفياتها لأكثر من عام سبقته فترة طويلة لاختيار المشاركين في هذه التصفيات. وإذا كان الحزب الحاكم لا يعتبر الانتخابات الأمريكية درسًا مناسبًا لظروفنا سأحيله إلى الدرس المناسب الذي تعلّمناه من نانسي عجرم وهو أنه «مفيش حاجة تيجي كده»، وهي نصيحة أوجهها أيضًا إلى الدكتور البرادعي.

حرّك الدكتور البرادعي المياه الراكدة بتلميحه، وهذا هو أجمل ما قدّمه لنا؛ لأنه سيفتح الباب أمام نشاط سياسي قد يقودنا إلى مَن يصلح للمهمة بالفعل. أما الدكتور البرادعي فخبرته العريضة لا تناسب طبيعة مشكلاتنا أو تركيبتنا. صحيح هو فخر كبير لمصر، وصحيح أنه مهندس علاقات دولية ماهر، لكنني أؤمن بمقولة وحيد حامد على لسان عادل إمام في «عمارة يعقوبيان»: «البلد مش محتاجة مهندسين.. البلد محتاجة صيّع».

إحنا التانيين

أشهرَ كاتب ألماني إسلامه منذ سنوات، وبعدها قرر أن يزور عدة دول عربية ليقترب أكثر من المسلمين وعوالمهم، وأنهى جولته بأداء العُمرة، وعند عودته كتب مقالًا في «دير شبيجل» عن الرحلة، يمكن تلخيصه في الجملة التي أنهى بها الكاتب كلامه: «أحمد الله على أنه جعلني أدخل في الإسلام قبل أن ألتقي المسلمين».

أقدر شخص على الإساءة إلى بيت ما هو ابن البيت نفسه، هذا هو الدرس المستفاد.. خلّينا فيه وانسَ المثال الذي ضربته لك منذ قليل لأنني سأحدثك عن أمور أقل أهمية.

البرادعي وتامر حسني والنادي الأهلي؛ أحترم سيرة الأول وتاريخه ولمسته الرقيقة المهذبة التي تُعتبر إضافة إلى رصيد قديم ومتراكم للباحثين عن التغيير، وأُقدّر دأب الثاني وقدرته على استثمار كل الفرص المتاحة لدعم نجوميته، وأصفّق وفي قلبي مرارة (بحكم زملكاويتي)، ولكنها مرارة مختلطة بالاحترام للثالث؛ لأنه يُثبت دومًا أن نجاحه هو القاعدة بينما نجاحات الآخرين استثناء. لي تحفظات على كل واحد منهم تخص صميم عمله سبق أن كتبتها، لكن لديَّ ما هو أكثر من التحفظ بخصوص جمهور كل واحد منهم.

لن أكون دبلوماسيًّا وأقول إن تحفظي يخص قلة منهم، بالعكس.. تحفظي يخص قطاعًا كبيرًا: فثلاثتهم يعانون من حالة عنيفة من التعصب، بحيث إن الحوار معهم أحيانًا يبدو بلا فائدة. لا يقبلون كلمة نقد واحدة تمس مَن يشجعونه، وإنْ تجرَّأ أحد بالنقد لا يلقى حوارًا لكنه يلقى وابلًا من الشتائم (ويا ريت حتى بيعرفوا يشتموا بمنطق). يناضلون بالساعات على الفيس بوك واليوتيوب والمنتديات لدهس مَن يخالفهم الرأي بدبابات ثقيلة.

فلننحِّ جانبًا المتعصبين لتامر حسني بحكم أن جمهوره في مرحلة عُمرية يغلب عليها الحماس والعاطفة المتقدة، وجمهور الأهلي بحكم أن قطاعًا كبيرًا من جمهور الكرة في العالم كله تغلب عليه الضحالة الفكرية (أستثني منهم المثقفين والبسطاء الذين يستمتعون باللعبة فعلًا دون أن يعطوها أكبر من حجمها، فلا يذهبون إلى الاستاد محمَّلين بالحجارة، ولا يأتي في بالهم أن يُهشِّموا سيارة أو يحرقوا أتوبيسًا، ولا يخسرون صديقًا يُشجِّع فريقًا منافسًا)، ولكن ماذا أقول في جمهور البرادعي وهم يُفترض فيهم الثقافة والرُّقي والروح الوطنية بحكم كونهم دعاة للتغيير ويحلمون بمستقبل أفضل للبلد؟

للأسف لم يتعلَّم بعضهم من البرادعي أهم ما يناضل البرادعي شخصيًّا من أجله (الديمقراطية).

خانهم الذكاء، إذ أثبتوا أنهم لا يختلفون عن النظام الذي يريدون تغييره، فهم ينكلون بمن يوجه انتقادات إلى البرادعي بالضبط مثلما ينكل النظام وكتبته وصحفه بمن يوجِّه انتقادات إلى الرئيس.

أصابتهم لوثة الخلط المتعصِّب، فصاروا يخلطون بين البرادعي والتغيير، بينما الفكرة أقدم منه ويخدمها بضراوة وقوة وصلابة أناس شرفاء لم يتعصَّب من أجلهم أحد، ولم يظهر جروب واحد على الفيس بوك عندما اعتُقل أحدهم أو اختُطف لينال علقة ساخنة.

يتعلَّقون بالبرادعي تعلُّق الغريق بقشة، ويرون مَن يُعلِّق على أداء البرادعي بالسلب، أو يرى أن مشروعه رخوًا، وغير مكتمل الملامح، ويحتاج إلى أمور أكثر جدية من جلسات نقاش في الفيلا ورسائل على «تويتر» وهتاف على الفيس بوك، يرونه خائنًا أو منافقًا أو عميلًا للحزب الوطني.

لا مجال لمناقشتهم فشعارهم «إنت معانا ولَّا مع التانيين»، ولا دية لك إذا قلت إنك مش مع حد.

وهكذا، وبالوقت يتحوَّل المتعصبون للبرادعي إلى أسوأ دعاية له ولمشروعه. تحضرني مقولة السادات «دول لازم يتحاكموا بتهمة الغباء السياسي»، كان يقصد بها مراكز القوى في السبعينيات، وبصراحة نواة مؤيدي البرادعي التي تكبر بلهجة متعصبة جارحة يومًا بعد يوم ستتحول إلى نبات خرافي سيلتهم الجميع مثلما حدث من قبل؛ لأنهم لم يتعلَّموا الدرس ووقعوا في الغلطة نفسها التي نقع فيها من أيام الفراعنة.. غلطة تأليه الحاكم.

هناك من يُسيء إلى الإسلام من بين المسلمين أكثر من الرسام الدانماركي (مع الفارق الهائل العظيم الرهيب الشاسع في التشبيه)، حيث إن بعض البرادعوية يسيؤون إلى البرادعي أكثر من كُتَّاب النظام الحاكم وحوارييه.

الأهلي نادي المبادئ نعم، لكنه ليس فوق الجميع، إلا إذا ارتضى الجميع أن يكون نجم الجيل شابًّا متهربًا من التجنيد، والتغيير حلمنا كلنا ولكن ربطه بالبرادعي خطأ ساذج، ليس لعيب في البرادعي ولكن لأن الله لا يُغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم.

حملة «وردة لكل بليغ»

قبل ماتش العودة بأيام انطلقت من قلب القاهرة دعوة للرحمة والتسامح، قادها زملاء محترمون ينادون فيها بحُسن معاملة الأشقاء الجزائريين واستقبال كل لاعب في البعثة. تلك الدعوة النبيلة التي تُذكرنا بزمن الرياضة الجميل لا شك أنها صادرة من ناس - مع احترامي لهم - مالهمش في الكورة.

الجزائر بلاد نُحبها، ولكن المنتخب الجزائري حالة مختلفة عن كل منتخبات الدول العربية، والتاريخ يشهد على اللقاء المؤهل لأوليمبياد لوس أنجلوس ٨٤، والذي كان في القاهرة وفزنا فيه، لكننا شهدنا على الهواء الكابتن مجدي عبد الغني والكابتن إكرامي ينالان علقة ساخنة على يد الضيوف. وعندك المباراة التي أهّلتنا لكأس العالم ٩٠، بعدها قام الكابتن الأخضر بلومي بفقء عين طبيب مصري في أحد الفنادق بكأس زجاجية، وصدر حكم قضائي ضده لم يُنفَّذ حتى يومنا هذا. وعندك أكثر من علقة ساخنة نالتها الفرق المصرية المختلفة هناك. وهكذا يزرع المنتخب الجزائري الرُّعب في نفوس فريقنا، بالعنف، لا بثلاثيته التي أحرزها في غفلة من الحضري، ولا بمستواه الفني العالي. بل إن هناك فرقًا عربية أخرى (كعبها عالي علينا) ونخشاها

لارتفاع مستوى لاعبيها مثل تونس والمغرب، لكنّ المنتخب الجزائري بالذات اليوم جزء كبير من خطته في اللعب معنا على الترهيب والاستفزاز.

المباراة حماسية، والوصول إلى كأس العالم هو حلم جيل بأكمله يقف خلف المنتخب منذ ٢٠٠٦. أرجوكم لا تهدروا حماس هذا الجيل، ولا تجعلوهم يذهبون إلى استاد القاهرة وهمّ حاطّين فيونكات ورافعين دباديب وقلوب حمراء لطيفة بدلًا من الطبول الكبيرة والأعلام الضخمة واللافتات المُرعبة. ولكن هناك حملة تمنع أصحاب القلوب الضعيفة وجمهور الآيس كريم من التواجد في المدرجات في هذا اليوم. وباقولها من النهارده: مش عايزين الجنس الناعم في المدرّجات؛ لأنها ستكون مباراة خادشة للحياء. والذين ينادون بأن يكون يوم ١٤ نوفمبر كرنفالًا جيلًا مليئًا بالبالونات الملوّنة أحب أقول لهم: معلش ابقوا اعملوا كده في ٢١ مارس.

أما أهل الفن الذين لا علاقة لهم بالكُرة، والتي خرجت مانشيتات تقول إنهم ينضمون لحملة الوردة مثل مانشيت «آثار الحكيم والإعلامية تنضم إلى الحملة»، فلهم كل الشكر على مشاعرهم الناعمة وليتهم قرأوا تصريحات الفنانة الكبيرة وردة لصحيفة النهار الجزائرية، وردة التي عاشت أحلى أيامها في مصر ومنحتها مصر أكثر مما تحلم به (يكفي أنها أهدتها قلب بليغ حمدي وموسيقاه)، لم تتردد في أن تُذكرنا بأن اسمها «وردة الجزائرية»، وأنها مُتيقنة من قوة فريق بلادها وتقف خلفه، وقالت: «نملك مجموعة قوية جدًا من اللاعبين المحترفين القادرين على التعامل مع الضغط في مثل هذه الظروف، لذا لست خائفة عليهم، لأن الضغط سيكون على المصريين أكثر، الذين سيلعبون في بلادهم وأمام جمهورهم، فيجب على محاربي الصحراء أن يستغلوا هذه النقطة لصالحهم، وأنا لا أقبل بغير الفوز ليكون تأهلنا للمونديال عن

جدارة واستحقاق، كما أنني أشعر بغضب شديد عندما أسمع الناس تتحدث عن هزيمة بهدف واحد أو تعادل يؤهلنا للمونديال، يجب أن نذهب بفكرة الفوز لا غير».

وهذا حقها طبعًا، لكن ما حفظ لها احترامي أنها كانت صريحة ولم تلجأ للدبلوماسية الكاذبة في موقف مثل هذا، ولم تجامل المنتخب المصري ولا جماهيره مع أنها هي «الوردة» أصلًا.

أنا أيضًا مش دبلوماسي، ولن أتخلَّى عن حماسي وتعصبي يوم المباراة؛ لأنها المعركة الوحيدة التي سأشعر فيها أن البلد غير منقسمة وهو شعور أصبح نادرًا هذه الأيام، ولأن المنتخب هو الكيان المصري الوحيد الذي يُشرِّف مصر في المحافل الدولية دون أن تلفظه البلد مثل زويل والبرادعي، ولأن لاعبي المنتخب الجزائري الشقيق إذا لم نستقبلهم بهذه الروح «هياكلونا».

أعطوا لكل لاعب جزائري وردة، وسأُذكِّرك صديقي القارئ: سترى كل واحد منهم من منطلق استفزاز لاعبينا يلتهم الوردة التهامًا أمام الكاميرات وهو يلوِّح بعلامة النصر.

بس اتبسطنا

أكتب هذا المقال قبل بداية ماتش الجزائر. وبغض النظر عن النتيجة التي أتمناها لصالحنا بلا أدنى شرخ، أود أن أقول إنني شعرت بالسعادة خلال هذا الأسبوع وأنا أحيا حالة الإثارة اللذيذة والترقُّب المثير في كل مكان أدخله، ومع كل صديق أهاتفه، وفي كل برنامج أتوقف عنده؛ هناك شيء مشترك يجمع الناس الذين أعيش كواحد منهم، مُغرمًا بهم، أود أن أراهم دائمًا معي أو أنا معهم على خط واحد. بغض النظر عن النتيجة كان الأسبوع الماضي مليئًا بالوَنس الذي يليق بالمصريين: معظم أقاربي مالهمش في الكرة بس لك أن تتخيل أمي وهي تسألني بأسى: «هو حسني عبد ربه مش هيلعب ليه؟» وعندما أجبتها سألتني: «طيب هو حسني عبد ربه ده مهم يعني في الفريق؟» أما أصدقائي المغتربون فقد هاتفوني بعد انقطاع ليتلصصوا على الجو في مصر قبل الماتش وطالت حواراتنا الكروية الدافئة الضاحكة. خطيبتي التي لم أحضر معها ماتشًا للزمالك إلا وانهزم تطلب مني ألا أحضر معها ماتش المنتخب خوفًا عليه؛ قررتُ أن تُغلِّب انتماءها للمنتخب على مستقبلها كزوجة. أعلام مصر تُطل من معظم السيارات، تمر بجوار واحدة فتجد كلَّ مَن فيها يضحك في وجهك (أخيرًا الناس بتضحك في وش بعضها في مصر).

فرحتي بهذا الجو العام، بغض النظر عن النتيجة، تُذكّرني بقصة اتنين خرفان، كانا يعيشان فوق أحد الجبال حياة الأكل والشُّرب واللعب، إلى أن شعرا بالملل الشديد وفكرا في الانتحار، خروف منهما قال للتاني: طيب ما تيجي نجرَّب ننزل السوق ونشتغل يمكن نكسر الملل! الخروف التاني قال له: هنعمل إيه واحنا مش معانا غير جنيه واحد بس أنا شايله للطوارئ؟ الخروف قال له: واحد فينا يلم بطاطا ويشويها والتاني يلم درة ويشويها وننزل نبيعها ونشتغل ونكسب. عملوا كده فعلًا، وكل واحد جهز بضاعته ونزلوا السوق بدري جدًّا قبل ما أي حد ييجي. كل واحد فرش بضاعته في حتة وفضلوا مستنيين الناس بس محدش جه. الخروف بتاع البطاطا قال أنا هاروح أجبر بخاطر صديقي. راح له وقال له بكام الدرة يا عم؟ قال له بجنيه. إداله الجنيه وأخد الدرة وكانت لذيذة جدًّا. بعد شوية الخروف بتاع الدرة قال لما اروح أرد الزيارة. راح لصديقه وقال له بكام البطاطا يا عم؟ قال الواحدة بجنيه. إداله الجنيه وأخد البطاطا وكان هيعيط وهو بياكلها من كتر حلاوتها. بعد شوية الخروف الأولاني وحشه طعم الدرة اللذيذ، راح لصديقه واشترى منه واحدة واداله الجنيه. شوية والخروف التاني اشتاق لطعم البطاطا وراح اشترى واحدة.. وهكذا فضلوا رايحين جايين على بعض والجنيه محتار بينهم لحد بضاعتهم همَّ الاتنين ما خلصت قبل الناس ما تيجي، فقرروا يرجعوا الجبل. الخروف الأولاني قال لصديقه: مش ملاحظ إننا اشتغلنا وتعبنا وما طلعناش غير بنفس الجنيه اللي معانا؟ الخروف التاني بص لصاحبه وابتسم وقال له: «بس اتبسطنا».

٥٠٠ كلمة

هيَ كل ما أدين لك به عزيزي قارئ هذه المساحة، كيف تريدها اليوم؟ «رياضة مثلًا؟» أنا من الجيل الذي لم يشاهد حسن شحاتة لاعبًا وأحلم أن يذيع التلفزيون المصري مبارياته لنعرف كيف كانت تبدو أسطورته، كيف كان شكله، كيف كان يُمرر الكرة لزملائه، كيف كان يفرح بالأهداف التي أحرزها، كيف كانت أخلاقه في الملعب، وهل كان يبكي فرحًا عندما يفوز ببطولة مثل الآن. نريد أن نتصفَّح ألبوم شباب صانع بهجة المصريين الذي لا يعرف عنه جيلي شيئًا إلا أنه كان موهوبًا، وأن الجماهير المحبة كانت تهتف له: «حسن شحاتة يا معلم خلِّي الشبكة تتكلم»، بينما كانت جماهير الأهلي تستقبله بهتاف: «بيب بيب بيب.. كريم ابن الخطيب».

«هل تريد المزيد من الرياضة؟» ظل جزء من عقلي طوال ماتش الجزائر يتابع بتحفز الكابتن عبد الظاهر السقا، الذي - مع احترامي له - نسيناه تمامًا بعد أن استقر في تركيا يلعب دون أي أخبار عنه، مجرد لاعب شارك مع المنتخب قبل سنوات ثم خرج منه ومن البلد كله، وكنا واثقين أنه خروج بلا عودة إلا للاعتزال، لكن المعلم فاجأنا باختياره، وهو الذي تجاوز عامه السادس والثلاثين ليشارك في مباراة مصيرية. ظللت أتابعه بتحفز أتمنى أن

يسترها الله معه، وفي الوقت نفسه كنت أتوقَّع أن تأتينا الضربة عن طريقه من خطأ ما، لكنه خيَّب ظني وكان مُوفَّقًا بحكم خبرته ولياقته التي لم تخذله طوال الماتش. عارف لما تحس إنك فرحت لشخص ما تعرفوش، هكذت شعرت تجاه السقا الذي أعادته ربما دعوات الوالدين إلى الأضواء مرة أخرى ومنحته فرصة (إن شاء الله إن شاء الله) لأن يُنهي حياته الكُروية في كأس العالم؛ وهي فرصة لو كنت جبت سيرتها قدَّام السقا نفسه من شهرين كان هيرد عليك رد شبه الهتاف اللي كان جمهور الأهلي بيستقبل بيه المعلم.

«عايز إيه؟ أهاجم لك حد من الحكومة؟ طيب إيه رأيك في وزير الإعلام؟»
الحقيقة أجد صعوبة في تقبُّل فكرة أن يجلس الإعلامي المحترم حمدي قنديل في بلده دون عمل! لا أعرف كيف فات وزير الإعلام أو رئيس التلفزيون، الرجل المثقف المحترف أسامة الشيخ، أن يستعينا بطاقة تنوير وثقافة ووعي اسمها حمدي قنديل، إنه نموذج للرجل الذي نحتاج إليه هذه الأيام؛ لأن الناس تثق به ثقة عمياء، وهو قادر على استغلال هذه الثقة في تهذيب الرأي العام وتقوية مناطق الوعي الموضوعي لديه. سؤالي للسيد المحترم وزير الإعلام: كيف ينام وضميره المهني مستريح وهو يرى تامر أمين (دون ذكر أسماء) يُطل علينا يوميًّا بينما قنديل مطرودٌ من جنة إعلامنا؟! ولي سؤال للمهندس أسامة الشيخ رئيس تلفزيون الشعب: هل من حق الشعب أن يختار مَن يود مشاهدته على الشاشة التي يُمولها بالضرائب التي يدفعها أم يُفترض أن نتفرج على اللي انتو عايزينه؟

«إيه مثلًا؟ شوية سياسة؟» هل ستكرهني عزيزي القارئ إذا قلت لك إنني اكتشفت خلال متابعتي لماتش الجزائر أنني أشعر بالراحة تجاه علاء مبارك أكثر من شقيقه جمال مبارك؟ أعرف أنك غالبًا من أصحاب التحفُّظات

تجاه النظام ورموزه والجيل الثاني منه، لكنني لا أتحدث هنا في السياسة (خلّيها مفضفضة بأه). ربما كان شعوري بالراحة تجاهه أنني لمست في حضوره عزوفًا عن الأضواء، ربما تعاطفت معه كأب كان يتمنى أن يكون ابنه الراحل حاضرًا معه هذه المباراة حاملًا علمًا صغيرًا، ربما تعاطفت معه لأن سكان المقصورة لم يهنئوه بعد هدف متعب، ولكنهم اندفعوا ناحية جمال لتهنئته على الرغم من الحراسة المكثفة التي أحاطت به في حلقة مُحكمة، ربما لأن علاء لم يكن محاطًا بحراسة خاصة، ربما لأن الكاميرا ضبطته يقول بحرقة «يا رب» في الوقت نفسه الذي كنت أقولها فيه، في كل الأحوال أحب بس أن أؤكد حاجة صغيرة: «لا للتوريث».

«صديقي القارئ أسعدني مرورك، وليك عندي خبر حلو: المقال انتهى، أما أنا فقد أنجزت الالتزام المكلف به وعليه ٩٩ كلمة زيادة.. أرجوك ما تعدش ورايا».

العاهرة المستديرة

(عقب ماتش الخرطوم)

قبل الماتش أخرجتُ الغلم الكبير من شباك السيارة، كلما مررت بجوار سيارة أخرى عزف قائدها على الكلاكس تحية العلم الجديدة «تيت تيرتت تيت.. مصر»، كلما مررت بشخص يسير على قدميه ابتسم ورفع في وجهي علامة النصر، في إشارة دار السلام اختطف واحد العلم من يدي ثم غطى به مقدمة سيارتي وانحنى يُقبل العلم قبل أن يُعيده لي وهو عاجز عن الكلام يكاد يرتعش من فرط الحماس، سيناريوهات مشابهة أراها تتكرر على طول الطريق مع سيارات كثيرة يطل منها نجم الأسبوع الماضي «العلم».

بعد الماتش خرجت بالعلم نفسه في السيارة نفسها في الشوارع نفسها، ومررت تقريبًا بالناس نفسها، لكنني شعرت أني لم أكن أقود سيارتي، بل آلة الزمن التي هبطت بي في شوارع القاهرة ليلة نكسة يونيو. تدرّجت تعليقات مَن مررت بهم حاملًا العلم بعد المباراة بمرور الوقت، بدأت بـ: «شيلُه.. شيلُه» ثم «يا عم قطّعُه» ثم دخلت في مرحلة «إلبسُه»، وأشاحت عشرات الأيدي في وجهي غاضبة، والتقيت بأكثر من شخص عملوا نفسهم مش عارفين العلم، إلى أن اقتربت من المنزل مررت في إضاءة الشارع الخافتة برجل

ما إن رأى العلم حتى اتخذ وضع البصق بأن سحب من صدره بصوت عالٍ كمية من البلغم، وقبل أن يقذفها في وجهي اكتشف أنني جاره فكتم البصقة، وفي الوقت نفسه كان مضطرًا لأن يُلقي عليَّ السلام، فخرجت تحيته وكأنها صادرة عن مسخ يتحدث والبلغم يسيل على جانبي فمه.

قبل الماتش الجميع يتحدثون عن جمال السودان والروابط العميقة وأننا بلد واحد، الجميع يقولون إننا كنا موفّقين في اختيارها للمباراة الفاصلة، وإننا سنلعب في استاد القاهرة فرع الخرطوم. كنت ألفت نظر أصدقائي لأشياء كثيرة كذّبوها؛ قلت لهم اللقطات الواردة من شوارع الخرطوم لا يظهر بها شيء سوى علم الجزائر، وإنهم منذ فترة حاصروا السفارة المصرية، وإنهم غير مُلزَمين عاطفيًا بالوقوف إلى جوارنا، وإنهم لن يستطيعوا أن يؤمّنوا تغطية أمنية للمباراة، وإنني أتوقَّع كارثة.

بعد الماتش كنت أتلقَّى مكالمات تدور في فلك جملة واحدة: «عندك حق». قضيت الليل كله وشعوري بالشفقة مزدوج؛ جزء منه على المكالمات التليفونية المليئة بالصراخ والاستغاثة التي كان الأستاذ إبراهيم حجازي يتلقاها على الهواء في برنامجه من المصريين المطارَدين في ظلام ليل السودان، وجزء على الأستاذ إبراهيم نفسه الذي تجاوز الستين بقلب دخل غرفة العمليات أكثر من مرة؛ أشفقت عليه بعد أن أصبح مُلزمًا بأن يمتد برنامجه من العاشرة مساء حتى السابعة صباحًا من دون توقف، ليطمئن على الناس هناك وليُطمئن أهاليهم هنا. أما السودانيون فقد اختفوا بعد أن احتلت العصابات الجزائرية الخرطوم. كان النوم عصيًّا على الرغم من الإرهاق الشديد، كلما هممت بإغلاق التلفزيون كانت تمنعني مكالمة استغاثة جديدة.

قبل الماتش كنت أقول إنهم قلة من الجزائريين يحاصرون أهلنا في الجزائر، وإنهم لا يُعبِّرون عن بلد المليون شهيد، وإنهم أفضل منا كرويًّا، وإنهم يخبئون حسرتهم على اقتراب خروجهم من التصفيات بالعنف مثل أي جمهور مُتعصِّب في العالم، وإنهم ضحايا الصحف الصفراء والجهل.

بعد الماتش كلما سمعت كلمة «الجزائر» تذكَّرت بلغم الجار.

فريق الفنانين

في محاولة للحفاظ على ما تبقَّى من الصحة أخوض مباراة كرة قدم مع أصدقائي مرتين أسبوعيًّا أمام فريق من مراهقي النادي (عبد الله وعبد الرحمن ومارتن وعمر)، آخر مرة نكل فريق المراهقين بنا وهزمونا أربعة صفر، انهار صديقي المُسن وأقر بأفضلية الجيل الجديد، لا بسبب فارق اللياقة لأنه لم يكن شاسعًا، لكنه لفت نظرنا إلى ذكاء الفريق الخصم الذي سجَّل أربعة أهداف في أربع هجمات، بينما امتلك فريقي الكرة دون تفكير أو خطة فأهدر حتى فرصة التمثيل المشرِّف، وكنا أشبه بفريق الفنانين الذي يشارك في ماتشات الاعتزال.

هل الجيل الجديد أفضل؟ ممكن طبعًا، ولكنَّ جيلي ليس بائسًا لهذه الدرجة فهو آخر الأجيال المحترمة، جيلي هو آخر جيل شاهد فيلمًا «على بعضه»؛ لأنه حُرم من نعمة الريموت كنترول التي تسمح له بمشاهدة حتة من فيلم على «روتانا سينما» وحتة على قناة «فوكس» قبل أن يُغير المحطة ليشاهد حتة على «موجة كوميدي». كان فيلم السهرة يحصل على كامل تركيزنا (يعني هنروح فين تاني؟) الأمر الذي جعلنا آخر جيل نفسه طويل.

نحن آخر جيل تعلَّم احترام المواعيد؛ لأنه لم يكن يمتلك محمولًا يسمح له برفاهية تغيير الميعاد فجأة أو إلغائه دون مقدمات أو الاتصال لتقديم حجة

تسمح بالتأخير (أنا على الكوبري والكوبري واقف). اتفقت على ميعاد يعني لازم تلتزم بيه لأنك لا تمتلك أي اختيارات أخرى؛ فالشخص الذي واعدته ينتظرك في مكان ما، ولديك خياران: أن تُوفِّي بالميعاد، أو تخسره على الأقل لفترة. نحن جيل صاحبُ أقل عدد من مرتدي النظارات الطبية؛ لأنه لم يكن هناك كمبيوتر تضيع أمامه الساعات وجهاز تلفزيون يعمل ٢٤ ساعة (كان الموسيقار عبد الوهاب يُنهي الإرسال يوميًا بفرقته العسكرية والسلام الوطني في الواحدة بالكتير). نحن جيل شهد أقل نسبة عمليات إجهاض، ولم يعرف دعاوى إثبات النسب؛ لا لأنه جيل متربِّي، ولكن لأنه ما كانش فيه اختلاط أصلًا. نحن آخر جيل رئته سليمة؛ لأنه لم يشهد السحابة السوداء. نحن آخر جيل تناول طعامًا صحيًا وغذاءً حقيقيًا قبل ظهور المايونيز والكاتشب واللحوم المجمدة والفرايز والفواكه المُهرمَنة والخضراوات التي يجري في عروقها ما يجري في مثانة الإنسان. نحن آخر جيل تعلَّم أن يُعبر عن نفسه بالكتابة الحقيقية عبر هواية المراسلة وخطابات بنت الجيران وزميلة الكلية، قبل أن تظهر كتابة النت والموبايلات المسخ المبتورة. نحن آخر جيل استمع إلى تراثنا الموسيقي الأصلي وتعلَّم منه الكثير؛ لأنه ما كانش على أيامه «نجوم إف إم». نحن آخر جيل كان ألبوم صوره مشرِّفًا ومحترمًا قبل ظهور بنطلونات اللوويست. نحن آخر جيل لديه خيال؛ فالخيال لا ينمو إلا بالحرمان، وما كانش فيه حد محروم قدنا. نحن آخر جيل كان يحترم اللغة العربية قبل ظهور «بيس يا مان»، وكانت آخر حدود الصياعة لديه كلمة «قشطة» وهي كلمة فصحى. نحن آخر جيل عرف قيمة الأنثى قبل أن تُصبح مرطرطة على النت بمختلف توجهاتها. نحن آخر جيل نام كويس؛ لأنه ما كانش فيه على أيامه تشاتْنج.

صحيح أن الجيلَ الجديد يمتلك مقومات أكثر تساعده على الارتقاء بنفسه وتجعله يُحرز أهدافًا كثيرة، لكن لماذا أشعر أنه ما بيعرفش يمسك كورة؟

حصة تاريخ

يوم ٢٨ سبتمبر يعني الكثير عند جمال عبد الناصر، فهو اليوم الذي مات فيه مشروع الوحدة مع سوريا ووقع فيه الانفصال بثورة الضباط البعثيين (٦١)، وهو التاريخ الذي اعترف فيه عبد الناصر بثورة عبد الله السلال في اليمن مع إعلان تأييده لها، وهو التأييد الذي مات بسببه كثيرون من الجيش المصري (٦٢)، وفي ٧٠ توفِّي. وبينما كانت روح عبد الناصر تنتقل إلى الرفيق الأعلى كان يتم نقل معبدي أبو سمبل إلى موقعيهما الجديد فوق الهضبة بعيدًا عن بحيرة السد العالي.

كان للأزهر كلمة في الزي العام للمجتمع؛ فقد اعترض الشيخ الخضر حسين شيخ الأزهر (٥٢) على اقتراح القبعة غطاء للرأس قائلًا: «ليس من المحتم على أي أمة أن تجاري الشكليات التي لا تناسبها، حتى ولو كانت عالمية». تغيَّرت أيضًا شكليات كثيرة في حياتنا؛ فقد منع وزير الداخلية في العام نفسه المجاهرة بالإفطار في المحلات والأماكن العامة، بعدها بثلاثة أعوام تم تجريم لعب القمار في الأماكن العامة، بعدها بخمسة أعوام تم تغيير اسم البوليس إلى الشُرطة، وتم تغيير اسم المديريات إلى محافظات (مثلما كان النظام السوري يفعل في أثناء الوحدة). وفي سبتمبر ٧١ تغيَّر الاسم

من الجمهورية العربية المتحدة إلى جمهورية مصر العربية، ومن مجلس الأمة إلى مجلس الشعب، وتغيَّر شعار الدولة من «الاتحاد والنظام والعمل» إلى «العلم والإيمان». وبعد حرب أكتوبر تغيَّر النشيد الوطني من «والله زمان يا سلاحي» إلى «بلادي بلادي»، وقد حصل محمد عبد الوهاب على رتبة لواء بعد أن أعاد توزيع النشيد الجديد وأفقده كل ما به من حماس، مؤلف نشيد «بلادي بلادي» محمود محمد صادق، تُوفِّي قبل أن يسعد بسماع نشيده كسلام وطني، وقد تُوفِّي قبلها بشهور قليلة، بينما أسعد الحظ «أندريه رايدر» مُلحن «والله زمان يا سلاحي» بالوفاة قبل أن يرى سيد درويش يقصيه عن منصة المجد والتاريخ.

جانب درامي آخر يمكننا مشاهدته في تواريخ الوفاة، حيث كان بيرم التونسي والشيخ زكريا أحمد فريق عمل متميز قدَّم العديد من أغنيات أم كلثوم، تُوفِّي بيرم التونسي أولًا في يناير ٦١ وحزن عليه الشيخ زكريا حزن الأرامل، وفي ذكرى أربعين بيرم تُوفِّي الشيخ زكريا. فريق عمل آخر مكوَّن من المخرج فطين عبد الوهاب وإسماعيل ياسين، تُوفِّي فطين أولًا في أول مايو ٧٢، وأسرع إسماعيل ياسين للحاق به قبل نهاية الشهر نفسه. الأمر نفسه حدث مع اثنين يمكن وصف الصداقة الكائنة بينهما بأنها صداقة لدود، حيث كانا في تنافس مستمر، وهما أبو السعود الإبياري وجليل البنداري، وكلاهما كان شاعرًا غنائيًّا وسيناريستًا وكاتبًا مسرحيًّا، وكان العمل الفني في مصر مقسمًا بينهما تقريبًا، سرق الأول الأضواء برحيله المفاجئ في يوليو ٦٨، وأبى الثاني أن يسرق منافسه البساط من تحت قدميه فلحق به في العام نفسه.

ويكشف لي تاريخ الوفيات أسماء فنية تحوَّلت أعمالهم إلى تراث دون أن نعرف أصحابها، بما يعني أن أعمالهم صارت أشهر منهم مثل: إبراهيم جكلا مُلحن «يلَّا حالًا هنوا أبو الفصاد»، وسيدة حسن مُطربة «مبروك عليكي عريسك الخفة»، وحسين المانسترلي مُؤلِّف «وحوي يا وحوي»، وصفر علي مُلحن نشيد «اسلمي يا مصر»، وصالح عبد الحي مُطرب «ليه يا بنفسج»، وقد رحلوا جميعًا في سنة واحدة (١٩٦٢)، في المقابل وُلِد ناصر والسادات في عام واحد (١٩١٨)، وكذلك شكوكو وإسماعيل ياسين (١٩١٧)، وفي هذا العام نفسه وُلِد حماقي الأول (الملحن محمد الحماقي صاحب لحن «آه يا معلم يا معلم») الذي تغنَّت به صباح التي وُلِدت في العام نفسه الذي وُلِد فيه شريكاها في النجاح الملحن محمد الموجي والشاعر مرسي جميل عزيز.

أما تاريخ ٥ يونيو فلم يكن محمَّلًا بالهزيمة فقط؛ فقد شهد صدور العدد الأول من «الأخبار» (٥١)، وفي التاريخ نفسه (٥٦) وقَّعت جريدة «الأهرام» عقدًا مع محمد حسنين هيكل لتولِّي رئاسة تحريرها. أما السادس من أكتوبر فلم يكن يعني النصر فقط، لكنه أيضًا التاريخ الذي شهد صدور العدد الأول من جريدة «المساء» (٥٦) برئاسة خالد محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة، وقد حدد ناصر أن تكون هذه الجريدة يسارية لا شيوعية، وهو التاريخ الذي حضر فيه السادات إلى البرلمان ليعلن قبوله قرار المجلس ترشيحه رئيسًا للبلاد (٧٠)، وكان أول قرار صدَّق عليه هو قبول استقالة هيكل من منصبه كوزير للإرشاد القومي، وهو التاريخ الذي اغتيل فيه في ٨١، وفي التاريخ نفسه سنة ٥٦ قامت الحكومة المصرية بنقل اللواء محمد نجيب المعتقل في المرج، رغمًا عنه وسرًّا، إلى مدينة طما بصعيد مصر وتحديدًا بمحافظة سوهاج. جدير بالذكر أن الصعيد قد شهد أول مباراة لكرة القدم

في مصر حسب شهادة جريدة «الأهرام» في يناير ١٩٠٣، وكانت المباراة بين مدرسة إسنا ومدرسة سوهاج، وكان المفتش الإنجليزي حكمًا بينهما (بما يعني أنها المرة الأولى التي يتم فيها الاستعانة بحكام أجانب)، وللأمانة التاريخية كان الفوز لتلاميذ إسنا، بالمناسبة كان دخول صعيد مصر أو الخروج منه ممنوعًا إلا لمن يمتلك جواز سفر، وقد ألغت السلطات هذا القانون في يونيو ١٩١٩.

القوة ثم الاتحاد لا العكس

القصة الطيبة التي درسناها في كتاب القراءة الطيب عن الشيخ الراقد في فراش الموت وحوله أولاده يُعلمهم درس «في الاتحاد قوة» بأن جعل كل ابن يمسك عصا ليكسرها فيكسرها الابن بسهولة، ثم يجمع كل العِصي في حزمة ويطلب من كل ابن أن يكسرها فيفشل فنخرج بالدرس السابق ذكره. تلك القصة الطيبة كانت فخًا سياسيًا وقعت فيه قيادات متعاقبة بأن حاولت أن تطبقه على الأمة العربية.

دول ضعيفة متفرقة عندما تتحد ستصبح كيانًا قويًا، هذا ما تقوله النظرية وهنا تكمن السذاجة؛ فوحدة الضعفاء تمنحنا تجمعًا أكثر ضعفًا، مثل أن نفتح مستشفيين حكوميين بعضهما على بعض لنعلن الناتج النهائي صرحًا طبيًا، لديك الآن تكتل للبيروقراطية والفساد والجهل وقلة الضمير يقوى بأن تغذيه بالمزيد من الأشياء نفسها.

الأصل في الموضوع أن تكون قويًا ثم تتحد مع مَن يضاهيك في القامة لا مَن يضاهيك في اللغة والديانة فقط. عندما اتحدت الدول الأوروبية (ذات اللغات المختلفة) كانت كل دولة ناجحة ومتحققة وقوية في حد ذاتها، شعورها بالقوة رفع درجة طموحها وجعلها تحاول أن تحافظ على هذا النجاح وتضمن مستقبله، فاتحدت وهي تملك ثقافة الاتحاد. لكن أن يتحد الجهلاء،

أن تتحد دول نظامها قاسٍ وعنيف، أن تتحد دول فقيرة ومعدَمة، أن تتحد دول تُعشش فيها الأمراضُ والأوبئة، فذلك هو الجحيم بعينه.

القوة شرط للاتحاد والعكس ليس صحيحًا دائمًا. لماذا فشلت وحدتنا مع سوريا؟ لأن إحدى الدولتين كانت أقل قوة من استيعاب الأمر فبدا لها وكأنه احتلال أو سيطرة على السُّلطة، لو كانت كلتا الدولتين ندًّا لما خطر في البال مثل هذه المخاوف. لماذا فشل اتحادنا مع ليبيا؟ لأن الأخيرة شعرت بأن الوحدة تلغي شخصيتها؛ لأنها ضعيفة. لماذا فشل اتحادنا مع العراق واليمن؟ لأن الدول الثلاث تعاني من المشكلات نفسها بلا حلول، فأصبح اتحادها عبئًا إضافيًّا بخلاف سوء نية البعض في سعيه لهذا الاتحاد.

المصريون فقط لديهم صيغة أخرى للوحدة، فهم متحدون شعبيًّا مع كل دولة عربية على حدة: تُحتل الكويت فيفر أهلها إلى مصر، تُحتل العراق فيفر أهلها إلى مصر، وكذلك لبنان والسودان وفلسطين، حكام معزولون أو معارضون مطرودون أو مثقفون وفنانون يبحثون عن فرصة، تستقبلهم مصر بعقد اتحاد عرفي لا رسمي، وسيظل هذا السيناريو منصوبًا بحكم أخلاقنا. مصر هي الشقيقة الكبرى بابتسامة سائقي التاكسي في وجوه الضيوف لا بالحكومات، بأخلاقنا وكرم ضيافتنا لا بالمعاهدات، بقدرتنا المذهلة على التسامح لا باتفاقيات الشراكة. نحن كشعب نلعب لعبة الاتحاد ليس بحثًا عن القوة ولكن لأننا أقوياء بالفعل، وغضبتنا على الجزائر هي غضبة القوي، لذلك وأراهنك صديقي القارئ سننسى الاستفزاز الجزائري وسنستقبلهم بعد فترة بكرم ضيافة تعلوه طبقة من العتاب تزول في دقائق (كان النسيان سيصبح أسهل لو كنا صعدنا إلى كأس العالم). أما الشيخ الذي فشل أبناؤه في كسر حزمة العِصي فقبل أن يعلمهم كان يجب عليه أن يعالجهم من الأنيميا.

Weekend

محدش فاهم حاجة... تولى حسام حسن مسؤولية تدريب الزمالك فتعادل الأهلي بصعوبة مع الاتحاد. وأقام منتظر الزيدي (حسب اليوم السابع) مؤتمرًا صحفيًّا في باريس للحديث عن نضاله بالحذاء ضد بوش فضربه صحفي عراقي آخر بالحذاء، واتهمه بالولاء للديكتاتورية، وقال له: «وهذا حذاء آخر لك»، تفاداه الزيدي بمرونة أقل من مرونة بوش وانهال شقيق الزيدي ضربًا على البطل الجديد إلى أن أخرجه الأمن من القاعة. الجزائر تجر ناعم مع مصر وتعالج الخطأ بذكاء؛ فهي لا تعتذر لكنها تقوم بكل ما يبدو اعتذارًا مثل أن تصوت لمندوب مصر في انتخابات المنظمة البحرية الدولية عن طريق مندوبها الذي قال إنه فعل ذلك بتوصية من وزير الخارجية، ووزير الخارجية نفسه قال إن العلاقات بين البلدين لا تحتاج إلى وساطة وإنهم يدرسون تعويض خسائرنا هناك. الحكومة لا تشارك في تشييع جنازة الأميرة فريال وتكتفي بإرسال شخص مجهول يعترض على لف الجثمان بعلم مصر. والبرادعي (حسب جريدة الدستور) يشترط وجود حكام أجانب للمشاركة في انتخابات مباراة الرئاسة في الوقت الذي تتحدث فيه الميديا عن ارتفاع شعبية علاء مبارك للدرجة التي تجعل إحدى الصحف تتحدث عن

ترشيحه للرئاسة. ولا البرادعي ولا علاء ولا أي حد مرشح لخوض الانتخابات لاحظ أن أيام العيد شهدت ثلاث حالات انتحار بسبب الفقر في ثلاث محافظات مختلفة في الوقت الذي كوفئ فيه لاعبي المنتخب على إخفاقهم في أم درمان بستة ملايين جنيه، وعوضت الحكومة هذه المصاريف من جنينة الحيوانات بأن رفعت سعر تذكرة الدخول في العيد إلى الضعف.

تزداد يومًا بعد يوم أعداد المصابين بإنفلونزا الخنازير، الأمر أصبح مخيفًا والتجمعات أصبحت مصدر خطورة، ومع ذلك شهدت أيام العيد أكثر من ٥٠٠ حالة تحرش جماعي دون أن يتعلموا الدرس من آخر المصابين بالفيروس؛ نتنياهو (أكبر متحرش في العالم) الذي نصحه الأطباء بالراحة التامة. لكننا لم نعرف من الذي نصح هاني سرور عضو مجلس الشعب بالاختباء والهروب قبل صدور الحكم بالسجن ضده في قضية الدم الملوث، لكن المؤكد أنه هو الشخص نفسه الذي نصحه بأن يعلق في شوارع الأزبكية (دائرة سرور الانتخابية) لافتات قماش عريضة تهنئ أهالي الدائرة الكرام بعيد الأضحى، الأمر الذي قد يحول سرور إلى أسطورة في عيون أهل دائرته؛ فهو من الحكومة لكنه هارب منها ويتحداها في الوقت نفسه بلافتاته، فات الداخلية أن تكلف أمين شرطة بجاكيت جلد وطبنجة بملاحقة معلقي هذه اللافتات؛ فهم بداية الخيط الذي كان سيقودهم للوصول إلى هاني، لكن إذا كانت الشرطة لم تنجح في منع التحرش في وضح النهار فكيف لها أن تضبط معلقي اللافتات في ظلام الليل؟ لم تنجح الشرطة بالرغم من أن تقرير «ملتقى منظمات حقوق الإنسان المستقلة» قال إن مصر أصبحت دولة «بوليسية».

أحمد حسن يسدد وحراس المرمى يجاملوه لأنه كابتن المنتخب الوطني، هي المجاملة صدقني عزيزي القارئ وإلا ما معنى أن يقوم الوزير رشيد بضم الكابتن حسن حمدي لعضوية جهاز حماية المستهلك؟ بصراحة الأسبوع الماضي كان غريبًا للغاية، ولم يكن بالصحف أي خبر منطقي غير الخبر الذي نشرته جريدة المصري اليوم في بداية الأسبوع عن سيدة وضعت طفلًا برأسين في الإسماعيلية.

رسالة من المستقبل

عزيزي عمر ساكن العقد الأول من الألفية الجديدة.. تحياتي من العقد الخامس..

أشعر أنني مرتبك جدًا لأنك تضطرني إلى استخدام تقنية انتهت، وهي تقنية الخطابات. تخيّل نفسك مضطرًا للتواصل مع شخص من زمن الحرب العالمية الأولى ولا تعرف وسيلة سوى شفرة مورس!

تسألني كيف نتواصل مع بعضنا في العقد الخامس؟ الحقيقة نحن لا نتواصل أساسًا؛ فقد سحبت الحكومة من أجدادي البطاقات التي كنتم تقولون إنها ذكية (بطاقات الرقم القومي) والتي كان العيب الرئيسي فيها أنك قد تنساها في المنزل، وزرعت داخل كل مواطن شريحة، وجمعت الشرائح كلها في شبكة واحدة جعلت الناس مفتوحة على بعض، أو إن شئت الدقة «مفضوحة». يمكنك أن تُدخل رقم شريحة الشخص الذي تود التواصل معه وسيعرف هو كل ما يدور برأسك وبروحك دون كلمة واحدة، وهي ميزة، حيث اختفى الكذب تمامًا، وبناء عليه أصبحت الكراهية تسيطر على عالمنا في هذه اللحظات.

سيطرت السحابة السوداء على الأجواء، أصبحنا نُرى بعضنا بصعوبة، وهنا تظهر ميزة جديدة للشريحة الحكومية، أصبحت السحابة السوداء من عجائب الدنيا السبع الجديدة، وحوّلت مصر إلى مزار سياحي في بداية الشتاء حيث يزورها السُّياح من كل أنحاء العالم في هذا الوقت (علشان ياخدوا لون). وإذا كنت عشت العهد الذي يفخر فيه المصريون بإنجاز السد العالي فنحن نعيش عصر الفخر بإنجاز قومي كبير اسمه الشفاط العالي، حيث تم بناء شفاط ضخم في مدخل القاهرة يسحب السحابة السوداء ويُصدّرها إلى إسرائيل بأسعار رخيصة.

مر العالم خلال السنوات الماضية بأزمات اقتصادية مجنونة غيّرت قيمة الجنيه المصري. أصبحت عملة الجنيه الموجودة على أيامكم كنزًا أثريًا، حيث اختفت وحل محلها ورقة مالية واحدة فئة الـ٨ جنيهات، وأصبح سعر كل شيء يقاس بالـ٨ جنيهات؛ فرغيف الخبز سعره خمسة (٨ جنيهات) ولتر البنزين سعره تسعين (٨ جنيهات)، ولا تسألني عن الرواتب؛ فأنا مثلك أعمل كاتبًا في مجلة إلكترونية (انتهى عصر الورق بعد أن تحوّل إلى غذاء في بلاد كثيرة)، وأتقاضى خمسة ملايين (٨ جنيهات) شهريًا، أدفع معظمها كأقساط لشفاط المنزل وطائرتي الهليكوبتر الإيرانية الصنع.

آسف أعرف أن كلمة طائرة قد تُعطيك إيحاء أنني قد أصبحت ثريًا، ولكن الحقيقة أننا نعيش هذه الأيام طوفان الطائرات الهليكوبتر الإيرانية الرخيصة، مثلما عشتم طوفان التوك توك الهندي الرخيص في بداية الألفية. الشعب كله حاليًا يعتمد على التنقل بالجو، اختفت الميكروباصات وحلّت مكانها طائرات عملاقة يقودها انتحاريون هم بالأساس أحفاد قائدي الميكروباصات في عهدكم. وهناك طائرات النقل العام التي يتدلّى المواطنون من شبابيكها في

أثناء تحليقها في الجو، والباقون يستخدمون طائرات مثل التي أمتلكها. تغيَّر نوع المواصلات لكننا لا زلنا نعيش المشاكل نفسها التي كنتم تعانون منها، بالذات مشكلة العثور على مكان لركن الطائرة في وسط المدينة أو في شارع عباس العقاد. أيضًا التحدث في الموبايل لا زال ممنوعًا في أثناء التحليق، لكن تمَّ التخلِّي عن قانون حزام الأمان وأصبح يُشترط أن يرتدي الركاب جميعًا الباراشوت فوق ملابسهم. لم تعد الشُّرطة هي المسؤولة عن تنظيم المرور، ولكن الأمر برمته أصبح في يد الدفاع الجوي. تسألني عن السير في الشوارع فأقول لك إن تيارات الهواء الشديدة المنبعثة من الشفاط الموضوع في مدخل القاهرة بهدلت كل الناس.

انتهى عهد الشقق والفيلات، ويعيش كل واحد منا في كبسولة متر في متر مصنوعة من الحوائط الديجيتال، وهي كبسولة ذكية تتحول حسب إرادتك؛ فإذا أردتها حمَّامًا تخرج من الحائط خراطيم سحب مركزي لسحب الفضلات، وإذا أردتها مطبخًا تعطيك قائمة باختيارات الطعام والشراب سابق التجهيز وتقدمه لك في صورة حبات مركزة (الأكلة المفضَّلة بالنسبة لي هي حبة الأرز بالملوخية بالفراخ البلدي)، وإذا أردت أن تستقبل ضيوفًا تحول نفسها إلى قاعة فيديو كونفرانس، وإذا أردت أن تختلي بزوجتك فيمكنك أن تفعل ذلك في الطائرة التي تمتلكها.

الكبسولات موجودة في المدن الجديدة مثل وادي النطرون، وهناك كبسولات عشوائية موجودة في مصر القديمة (الشيخ زايد و٦ أكتوبر والتجمع الخامس)، وهناك كبسولات المصيف الموجودة على شواطئ منخفض القطارة وترعة السلام. أنا أسكن في كبسولة موجودة في كومباوند للصحفيين الشباب في الصحراء الشرقية، وفي طريقي لشراء كبسولة جديدة في الصحراء الغربية، وسوف أقوم بفتحها ديجيتال على بعضها.

انتهى زمن الفول والطعمية، وأصبحت الأكلة الشعبية هي التيس المطبي أو المندي بعد أن أصبحت دول الخليج غاية في الفقر؛ فقد جف البترول تمامًا في تلك المنطقة، وكان الكليب الأشهر لهذه الكارثة والذي بثته كل صحف العالم الإلكترونية يبين لنا أحد الخليجيين خارجًا من بئر عميقة في الصحرا وفي يده كوب مليء إلى أقل من منتصفه بالبترول، ثم يُقدِّمه لصاحب البئر الذي سحب مسدسًا ووضعه في فمه ثم أطلق النار ليسقط قتيلًا في الحال، بعدها نزل الخلايجة مصر بحثًا عن أكل العيش وافتتحوا سلاسل محلات أكل خليجي؛ الأمر الذي جعل حبات التيس المندي والكبسة والمقلوبة هم الأكثر شعبية في مصر. ستسألني أين ذهب البترول إذن؟ فأقول لك لقد ظهر البترول في مكان غير متوقَّع على الإطلاق، فقد ظل الكليب الأشهر لفترة في وسائل الإعلام يبين لنا أعدادًا كبيرة من سودانيين يرقصون حول بترول متدفق من بئر في غابة استوائية.

صديقي العزيز... أنا لا أكتب لك لأقول لك إن الحياة أصبحت صعبة، ولكن أكتب لك لأقول إن مصر تعيش أجمل أيامها بعد أن نجحت أخيرًا في تنظيم كأس العالم في توشكى التي تحوَّلت إلى مدينة أوليمبية، ونحتفل هذه الأيام لا بصعودنا إلى الأدوار النهائية (فقد خرجنا من التصفيات الأولى)، لكن نحتفل لأننا استطعنا بعد كل هذه السنوات أن نثأر لهزيمتنا من الجزائر في استاد أم درمان بأن انتصرنا على منتخب أم درمان نفسه واحد صفر، كان الاستاد في أزهى صوره وامتلأت المدرَّجات بالعلم المصري الجديد (لم تتغير الألوان ولكننا تخلَّصنا من النسر ووضعنا مكانه الشفاط)، وكان الاستاد يهتز بينما الجميع يغنون في صوت واحد السلام الجمهوري الجديد: «أكتر حاجة باحبها فيكي هيَّ دي... طيبيييييبة قلبك».

عقبال عندكو

(١)

العودة إلى الكتابة بعد انقطاع تُذكرني بمحاولات الأطفال الأولى للكلام. أجلس أمام اللاب توب وفمي مفتوح تكاد الريالة تتساقط منه على الكيبورد، أحاول أن أكتب جملة مفيدة وأعيد قراءة ما كتبته «ماما.. بابا.. إإح.. دا دا.. بوف»، هل الزواج هو السبب؟

الزنقة التي أنا فيها الآن في أثناء محاولة كتابة أول مقال بعد شهر من الزواج ذكَّرتني بكلام المُهنئين الذي كان أشبه بعلب حلاوة المولد المفخخة؛ يبتسم المُهنئ في وجهك ويحتضنك بحرارة ويُبدي لك فرحته وسعادته لكن لا بد في خضم هذه المشاعر المتأججة من جملة تنفجر في وجهك: «أخيرًا هتخش القفص.. عملت ليه في نفسك كده؟ مش كنت تسألني يا ابني! أهلًا بيك في الحزب.. ده آخر قرار انت هتاخده في حياتك.. ما كنت بعقلك.. بالشفا». كدت أنصرف في منتصف الفرح عائدًا إلى شقة العزوبية لولا أنني شعرت بأن حماتي قرأت في عينيَّ هذه الفكرة، طلبت بعدها من الـ«دي جيه» أن يرفع الصوت للدرجة التي تجعلني أرى المُهنئين مجرد شفايف متحركة، ولكن كنت أرى على الرغم من كل هذه الضوضاء في أعينهم شماتة ما، إلى

أن استطاع صديق حكيم أن يتسلل إلى أذني في لحظة صمت قبل البوفيه قائلًا: «لما نشوف هتعرف تكتب بعد الجواز ولَّا لأ». لم أستطع أن أرد عليه وأجهز عليَّ تمامًا بجملة جديدة: «لِعلمك هتفقد جزء كبير من شعبيتك بعد الجواز». عاد بعدها إلى مقعده وتركني أفكر في الأسماء التي دمرها الزواج. قلت لنفسي كل الكبار تزوَّجوا (جاهين وحداد ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وأبو تريكة وعمرو دياب). فكرت في الأسماء التي كانت العزوبية سر نجاحها فلم أجد سوى الكابتن ميمي الشربيني الذي لم يتزوَّج لكنه أنجب جيلين من المُعلِّقين يتحدثون بأسلوبه ويستخدمون مفرداته، والفنان زكي رستم الذي ترك الحبل على الغارب للفنانة فاتن حمامة في «سيدة القصر» حتى تشنق به نفسها فكانت النتيجة أنها أهملت تربية طفلها وجدي العربي الذي ما إن كبر حتى اعتزل التمثيل، والفنان عبد الحليم حافظ الذي منحته الوحدة جاذبية وتعاطفًا ما، لكن من أين لي ببلهارسيا تضمن لي كل هذا النجاح؟

التهاني موجعة؛ حتى أقرب أصدقائي قدَّم لي التهنئة المتعارف عليها بين العريس وشلة أصدقائه الذكور، وهي تهنئة أشبه بالتحرُّش الجنسي، قدَّمها لي صديقي بالنيابة عن الشلة وعلى وجهه ابتسامة الأطفال، ثم سألني: «تمام كده؟» قلت له: «والله كنت خايف تنسوا». حتى صديقي أحمد سعد اختار أن يجاملني بأغنية «أكدب عليك»، وظل لمدة نصف ساعة يكرر جملة واحدة: «شوف كنا في إيه وبقينا في إيه». حتى أستاذي حمدي قنديل الذي وضعت صورتي معه في الفرح في صدارة المكتبة قال لي: «مستنيين نشوف هتكتب إيه بعد الجواز». حتى ابن شقيقتي (طاهر) لم تعلَق بأذنيه من بين كل الأغاني التي لعبها الـ«دي جيه» سوى أغنية واحدة؛ أمسك بساقي في أثناء خروجي من القاعة وهو يغنيها راقصًا: «سُو يا سُو.. حبيبي حبسوه».

تزوَّجت واللي حصل حصل هاعمل إيه يعني؟ تزوَّجت وأنا أعرف أن الزواج لأمثالي هو عملية خصخصة ستحولني من «عمر طاهر» إلى «عمر أفندي»، لكنَّ عزائي الوحيد أن خصخصتي لم تتم على يد رجل أعمال سعودي، ولكن على يد بنوتة مصرية من السيدة زينب.

تزوَّجت ولم أشعر بالخطر الذي لفت نظري إليه المهتمون؛ يكفيني أن أجلس لأكتب فتطرق زوجتي باب مكتبي كل قليل لتسألني: «أعمل لك حاجة تشربها؟»، يكفيني كل هذا الدفء والاهتمام الذي فتح شهيتي للكتابة مجددًا وجعل أصابعي تستعيد لياقتها. وهأنذا أكتب أول مقال لي بعد الزواج وأراه مقالًا جيدًا وناجحًا، والصراحة أنا مدين بهذا المقال الجيد لزوجتي التي لولاها ولولا اهتمامها لكان هذا المقال أفضل من كده بكتير.

(٢)

كنت أفكر أن أقضي شهر العسل بعيدًا عن «الميديا» بكل فروعها، وتمسكت بالقرار عندما شاهدت زوجتي في اليوم الأول تشتري «الدستور» في أثناء سيرنا في أحد الشوارع وتلفه ثم تضعه تحت إبطها مثل أي موظف مصري. أقنعتها بأن مظهرها بالجريدة تحت إبطها لا يليق بعروس في شهر العسل؛ بصراحة هي اقتنعت برأيي، لكننا قضينا ليلة آخر عكننة أصدرت في نهايتها القرار الجمهوري رقم واحد: «مفيش جرايد لحد ما نرجع».

لقد كانت زوجتي على حق وأنا مدين لها باعتذار؛ فمع أول مطالعة للصحف بعد العودة من السفر شعرت أن المسلسل الذي نعيشه قد فاتتني منه عشرون حلقة على الأقل، أتابع الآن الأحداث بعد انتصاف تبعاتها وأحاول أن أعتمد على ذكائي المحدود في فهم ما حدث.

كان خروج يسري الجمل من منصبه كوزير للتعليم في اليوم نفسه الذي نُشرت فيه صورته وهو يتلقَّى تطعيم الإنفلونزا أسوأ دعاية لهذا المصل؛ فالأعراض الجانبية التي ترددت وأربكت الناس لم تكن مؤكدة، لكننا الآن أمام عَرَض جانبي مؤكد وهو أن مُتلقي المصل لا مستقبل له، فكيف تلومون على تلاميذ مصر الذين رفض ٩٠ في المائة منهم الحصول على التطعيم؟ كان الوزير عندما يخرج من منصبه يُقال عنه: «لِبس البيجاما»، لقد أصبح هذا المصطلح قديمًا، وأقترح عندما يخرج الوزير الآن أن يُقال عنه: «اتطعم».

ستسألني ولماذا لم يخرج وزير الصحة؟ والإجابة أنه ما اتطعمش ولا حاجة، وإن عملية تطعيمه كانت تمثيلية بوليسية الغرض منها الإيقاع بيسري الجمل، أُكرر هي بوليسية والدليل أنهم اختاروا ابن وزير داخلية سابق ليحل محل الجمل ردًّا من الداخلية لجمايل والده.

عدت فوجدت البلد كله يتحدث عن لاعب اسمه جدو، اللاعب شاب صغير السن جاء بديلًا للمصارع الدولي ميدو، وهكذا أثبت ميدو أنه وش السعد على بدلائه عمرو زكي ثم جدو. شاهدت اللاعب الذي يتميز بلياقة بدنية عالية لا تتناسب مع اسمه، لكنني اكتشفت أنه مخطط حكومي لتغيير الصورة التي يرسمها الشعب في ذهنه للشخص الذي يحمل هذا اللقب مع اقتراب انتخابات الرئاسة الجديدة.

عرفت أن مصر تبني جدارًا فولاذيًّا على حدودها مع غزة، ففهمت سر المخطط القديم الذي يتكوَّن من ثلاث خطوات: الأولى ضم أحمد عز إلى الحزب الوطني، والثانية منحه التسهيلات اللازمة لاحتكار الحديد، والثالثة استغلال كل هذا الحديد في مشروع كبير يعود بالنفع على الجميع. وهكذا

يموّل الحزب الحاكم نفسه بذكاء شديد ودون أن يتعرض لمساءلة النائب العام، لكنني شغوف بمعرفة الطريقة التي سيتم بها توزيع ناتج هذه النحتاية.

أسعدني خبر ترحيل النائب البريطاني «جالاوي» عن مصر، وإعلان أنه غير مرغوب فيه؛ لأنني أكره هؤلاء الأشخاص الذين يبنون أمجادهم الشخصية على قفانا. قد يراه البعض مناضلًا من أجل الفلسطينيين، لكن نضاله من أجلهم أسقط مواطنًا مصريًّا صريعًا وهو في بداية حياته برصاصة سنموت قبل أن نعرف هل أتته من حماس أم من إسرائيل، لكن الرصاصة لم تكن لتصيبه لولا قافلته التي جاءت محمّلة بالخير للفلسطينيين وبالفوضى لمصر. تحدث الكثيرون عن تعنت ما في التعامل مع القافلة، لكنني بصراحة لم أنزعج من المسار الذي حددته مصر للقافلة حتى تدخل أرضها؛ فمن حق صاحب البيت أن يختار الباب الذي يدخل منه الضيوف.

قالوا لي إن السيدة العذراء قد ظهرت عند عدة كنائس مصرية، وهو خبر لم أصدقه في حينها، ولكن عندما سقط الأقباط قتلى في ليلة عيدهم أمام كنيستهم في نجع حمادي تأكدت تمامًا أنها ظهرت؛ لقد ظهرت العذراء لتُبلّغنا برسالة ما، لكننا لم نصغِ إليها جيدًا.

(٣)

بنهاية الفرح كان جيب البدلة قد انتفخ تمامًا. هناك نوع من المهنئين عملي جدًّا ينقسم إلى نصفين: الأول يمدك بـ«النُّقطة»، والثاني يمدك بكل أنواع المقويات الجنسية المعروفة والنادرة؛ النوع الأول يعرف أنني داخل على مسؤولية جامدة فيُمولني بما تسمح به الظروف، والنوع الثاني يفكر بالطريقة نفسها بالضبط.

يتقدّم الصديق المُهنئ فيصافح العروس ثم يصافحني ويحضنني بذراع واحدة وبالثانية يدس في جيبي شيئًا ما، ثم يربت على كتفي بطريقة ذات مغزى تليها ابتسامة هي المغزى نفسه.

لم أستطع أن أميز «مين حط إيه بالضبط» وهذه مشكلة ستتجلى عند رد الهدية؛ فإذا كانت النُّقطة المادية دينًا مؤجلًا فالنُّقطة الذكورية كذلك أيضًا، النقود واحدة وهي احتياج إنساني عام، أما النُّقطة الذكورية الواجب ردها فيجب قبل ردها معرفة حقيقة احتياجات صاحبها ونقاط ضعفه التي يُعوضها بالنُّقطة المردودة؛ ذلك لأن الاحتياجات في هذه النُّقطة متباينة جدًّا واللي ينفع لشخص مش شرط ينفع لشخص تاني (راجع النشرة الداخلية المصاحبة للفياجرا).

كل الذي كنت أخشاه عند الخروج من الفرح أن يلمح أقارب زوجتي جيبي منفوخًا، ويدفعهم الفضول إلى معرفة ما به (وهذا حقهم جدًّا بالمناسبة) فيكتشفوا ما به، والنتيجة إني أنا اللي أتنفخ. في الوقت نفسه لم يكن هناك مجال للتخلُّص من هذه الهدايا الإجبارية وأنا في بؤرة الضوء، فقررت أن أتخلَّص منها عقب الوصول إلى غرفتي في الفندق.

في الغرفة أجّلت تنفيذ كل التقاليد المتعارف عليها من ترحيب بالعروس ونزع الطرحة عن رأسها وادعيت أني أريد أن أدخل الحمّام من ساعة الزفة، وجريت على الحمّام قبل أن تصطدم يدها بجيبي مصادفة فتسألني عما ينفخه بهذا الشكل (في بداية الزواج يكون اصطدام يد الزوجة بجيب الزوج صدفة وبعد فترة يصبح صدفة خير من ألف ميعاد)، المهم ألقيت حمولتي كلها في الحمّام؛ كانت المحتويات غريبة جدًّا ومختلفة لم أستطع أن أتبيَّن ملامحها، تضم حبوبًا ملوّنة من جميع الأحجام وأمبولات وزجاجات اسبراي قصيرة جدًّا وقطعًا

من الأفيون وسجائر ملفوفة لم يسعفني الظَّرف لاستكشاف سر خلطتها. وبينما تنحدر كل هذه الأشياء إلى القاع بفعل ماء الطارد المركزي الشهير بالسيفون، انتابني شعور ما بأنني ربما أكون قد تسرَّعت في اتخاذ هذا القرار.

كنت أعتقد أن الموضوع قد انتهى في الحمام، لكن المفاجأة أن كل شخص قدَّم لي نُقطة ذكورية كان يود أن يطمئن على المفعول، كان يريد أن يعرف إلى أي مدى كانت ناجحة، كل صاحب نقطة كان فاكر نفسه هو العريس، لذا بدأت التليفونات تنهال عليَّ بعد اليوم الرابع.

لم أجد غضاضة في أن أسأل كل متصل: «هو انت حطيت إيه في جيبي بالضبط عشان الحاجات كانت كتير؟» وكانت اللعبة مُسلية؛ هناك مَن أخبرني أنه صاحب الحبة الحمراء الصيني التي على شكل قلب، قلت له لقد جعلتني هذه الحباية ثورًا أعمى، فضحك ضحكة المنتصر ثم أردف قائلًا: «أنا عايزك تنبسط». صديق آخر أخبرني أنه صاحب الحباية التي يستمر مفعولها لمدة ثلاثة أيام، فقلت له إن مشكلة الحبة هي عدم قدرتي على الخروج إلى الشارع بعد تناولها؛ فقد جعلت شكلي فاضحًا للغاية للدرجة التي جعلت مدير الفندق يطلب مني عدم نزول حمَّام السباحة بهذا الشكل، فضحك أيضًا وأردف قائلًا: «تلاقيه كان غيران منك». صديق آخر قال إنه صاحب الاسبراي المخدِّر الذي يمنح سعة في الوقت، قلت له ممتاز المشكلة بس «إني نِمت في النُّص». صديق أخبرني أنه صاحب السيجارتين الملفوفتين، فأخبرته أنهما جعلتا العبد لله يعترف بكل تفاصيل ماضيه الأسود، فقال لي: «يبقى انت شربتهم على الريق يا معلم». صاحب الأفيون أخبرني أنه أهداني قطعة من أفخر الأنواع التي تشد الجسم كله، فأخبرته أن كلامه صحيح بدليل التشنجات التي ألمَّت بي في ليلة الدخلة.

مازحتهم جميعًا، وأكدت لكل واحد أنني «مش عارف كنت هاعمل إيه من غيره»، فلا يصح أبدًا أن أنتقد هدية قدَّمها لي شخص ما. لكنني لم أفكر في الاقتراب من كل هذه الأشياء؛ أولًا احترامًا لشريكة الحياة (على الأقل في الأول)، وثانيًا لأنني مؤمن تمامًا بأن الموضوع ليس عضويًّا، الموضوع كله في المخ.. الأمر الذي جعلني طوال شهر العسل عمَّال أخبط دماغي في الحيط.

مبارك يا دكتور نظيف

العزيز رئيس الحكومة أعرف أنها كانت صدمة قاسية أن تفقد شر... حياتك بعد أن قطعتما معًا أكثر من نصف المشوار، يحزن الواحد منا إذا غا... لاعبه المفضَّل عن التشكيل الأساسي فما بالك عندما ينفرط عقد الفر... فجأة؟

توقعتُ أن تُفرّغ أحزانك بعد رحيلها في العمل، وصدقت توقعاتي... نكدت علينا بما فيه الكفاية خلال الفترة الماضية. وبعد أن قرأنا خبر زواجك ... الأوان أن نفرح مجددًا، ولكن اسمح لي أن أسألك عن مغزى أن يُعلن المتحد... الرسمي باسم الحكومة خبر زواجك ليتصدر الصفحات الأولى بالبنط العريض في كل الصحف المصرية؟ هل شعرت مثلًا أن شائعات ما سوف تتسرب ... حياتك العاطفية، ففكرت أن تقضي عليها بهذا الخبر؟ (اسمح لي لقد سمح... بهذه الطريقة للشائعات أن تبدأ). هل شعرت أن وجودك في منصبك مهد... بالخطر لأنك بلا زوجة، الأمر الذي يرفضه النظام، بالضبط مثلما يرفض سكان عمارة كلها أُسر أن يسكن شاب عازب بينهم، فقررت أن تحمي موقعك بخبر بالبنط العريض؟ هل تعرّضت لملاحقة غرامية في الفترة الأخيرة، فقررت أن تنهيها بإعلان الخبر بهذه الطريقة بالضبط مثلما يفكر شاب على الفيس بوك

أن يحمي نفسه من ملاحقة المعجبات فيكتب في الاستاتيو «فرحي الشهر الجاي»؟ هل شعرت بنية للإطاحة بك، فقررت أن تُعلن الخبر لأن العُرف في بلدنا الطيبة هو عدم قطع عيش العريس الجديد؟ لا ولن أجرؤ على سؤال لماذا ستتزوج، ولكن نشر خبر زواجك بهذه الطريقة كان مستفزًّا؛ لأنه لم يكن مجرد نميمة سياسية منشورة في صحيفة مستقلة أو معارضة، لكنه كان خبرًا رئيسيًّا في الصحف القومية، الأمر الذي جعلني أفكر أن الشعب ربما يكون مدعوًّا للمشاركة في هذه الفرحة. فكرت أنك ستقيم الفرح في استاد القاهرة وستطرح التذاكر قبلها بفترة كافية مع شفافية في بيعها حتى لا يشتري نصفها الكابتن شوبير لوحده. فكرت أن الفرح سيسبقه مباراة كرة قدم بين منتخب ٩٠ ومنتخب الساجدين، وأنه لن يكون هناك مطرب واحد سيُحيي الفرح، ولكن سيتم تكليف عمار الشريعي وجمال بخيت بعمل أوبريت سيُشارك فيه كل مَن هو مُقيد في نقابة الموسيقيين أو يعمل بتصريح مؤقت على أن يُذاع الأوبريت كثيرًا في ذكرى عيد زواجك. فكرت أن التورتة التي سيصحب تقطيعها عرض الليزر والدخان ستكون على شكل مجلس الشورى أكتر حاجة بتطلّع دخان في البلد، وأن الداخلية ستتكفل بإطلاق الأعيرة النارية ابتهاجًا بك، وأهو بالمرة تخلَّص على حد مضايقها في الزحمة. فكرت أن القنوات الخاصة كلها ستضم الهواء في بث مباشر موحَّد يتم خلاله تلقي اتصالات المُهنئين وجمع النُّقطة، وأن بث الفرح سيكون مباشرًا وعلى شاشات كبيرة في كل مكان سيسبقه بث لتفاصيل ليلة الحنة التي ستقيمها في القرية الذكية. فكرت أن عقد القران سيكون مناسبة لتأكيد الوحدة الوطنية بأن يعقد قرانك فضيلة شيخ الأزهر ويكون شاهدًا عليه قداسة الأنبا كيرلس. فكرت أن الاحتفالات ستكون شعبية، وأنك ستُشارك الشعب بهجة إحضار العروس من عند الكوافير، وهنا فقط انتابني القلق وقلت إذا كان موكبك في الطريق

إلى العمل يُعطِّل البلد بالساعات فما بالك بالزفة؟ فكرت أن الزفة ستتقدمها موتوسيكلات يقودها أصدقاؤك وفي مقدمتهم الدكتور بطرس غالي (علشان لو حد وقف في طريق الزفة يسب له الدين على طول). فكرت أن أفضل من سيُزيِّن لك سيارة الزفة هو وزير البيئة بلا شك؛ فهو الوحيد القادر على تغطيتها كلها بورد النيل. فكرت في اللحظة التي سيطلب فيها الـ«دي جيه» من أصدقاء العريس أن يلتفوا حوله ليرقصوا.. ستكون لحظة تاريخية عندما نرى مجلس الوزراء كله قالعين الجواكت وعاملين دايرة ويرقصون على أنغام «أنا شارب سيجارة بُني.. كوكا كوكا كوكا».

في كل الأحوال، وعلى الرغم من أن الخبر لا يخصنا، وعلى الرغم من أن حياتك الشخصية لا تدخل في نطاق عمل المتحدث الرسمي باسم الحكومة المصرية، فإنني أتمنى لك السعادة، وأود فقط أن أُذكِّرك بمقولة كمال ياسين لشكري سرحان في «رد قلبي»: «إوعى حبك لإنجي ينسّيك حبك لمصر».

المواد الحافظة

لو أن مصر علبة سردين لفسدت من زمن، ولكانت الآن قابعة في قاع صفيحة الزبالة ينهش فيها جيش من قطط التتار؛ فالعلبة عُرضة منذ فترة طويلة لكل ما قد يُغير لونها وطعمها ورائحتها ويقضي على صلاحيتها وعمرها الافتراضي (الفساد والرشوة والمحسوبية والجهل والفتنة الطائفية والتعصب الأعمى والأمراض النفسية، الزحام والتلوث والضوضاء والسلبية وانعدام الضمير، القهر والتسلط وسوء استخدام السلطة، الروتين والفن الهابط والصحف الصفراء وأحوال التعليم والنقل والصحة والزراعة الرديئة، تشريد العمال وديون الفلاحين واعتزال جامعي «القمامة»، أحزان مَن سقط أبناؤهم ضحايا للإهمال والشعور بأنك في بلد لا تستطيع أن تحصل فيه على حقك، لعنة الموظفين المتكاسلين وأمناء الشُّرطة المتسلطين وغياب ضمير المعلمين وسذاجة المذيعات والمذيعين ورؤساء التحرير المكشوفين والوزراء الذين يسبون الدِّين).

ستُجنُّ مثلي عندما تكتشف أن علبة السردين ما زالت شهية، وأن المتن نفسه متماسك بدرجة كبيرة ويحتاج منك فقط إلى بعض الخلخلة أو الرَّج الشديد لتكتشف أنها ما زالت سليمة، كل ما في الأمر أن العلبة الصفيح قد صدأت وأصبحنا في حاجة إلى علبة جديدة.

لا بد أن السر كله في المواد الحافظة التي حافظت بالفعل على خامتنا الأصلية وحمتها من الفساد التام؛ المواد التي حمت تركيبتنا المصرية من أن تتلوث أو تتغير، وحمت هويتنا من الانسحاق تحت كل ما سبق ذكره.

قائمة المواد الحافظة تضم أسماء كثيرة في مُقدمتها، وبنسبة كبيرة، الأمهات المصريات اللاتي يزرعن في وعي الأجيال المتتالية أصولنا: أم تُسلِّم ابنتها هذه التركيبة كسرٍّ قومي فتكبر الابنة وتصبح أمًّا فتنقل السر لابنتها وهكذا. الأم المصرية تحافظ على هويتنا دون أن تدري؛ فهي أول مُعلم لتقاليدنا التي نحيا بها من صح وخطأ وعيب ويصح وما يصحش وحلال وحرام والأمانة واحترام الكبار ومراعاة حقوق الجيرة والدفاع عن الحق وخفة الدم واللماضة والطيبة وحسن الضيافة مهما كانت الإمكانيات، هي أجندة الاستعداد للأعياد والمواسم، من دونها لاختفت من زمن صواني الكحك وأكلة الجبايب في شم النسيم والقمح باللبن في عاشورا وزيارة الأموات في أول أيام العيد وطبخة القلقاس في عيد الغطاس وأسود الحِداد وحِنة العروس والزغرودة (أذان الفرح) أهم اختراع مصري. الأمهات اللاتي علمتنا العامية المصرية؛ فهن اللاتي كانت مهمتهن لفترة طويلة (قول ورايا)، هن اللاتي ربطن بيننا وبين المسلسلات، وهن اللاتي حفَّظننا منها كل أغاني التراث في كل المناسبات، وهن اللاتي عرَّفننا طريق الأمثال الشعبية فباتت أحد ملامحنا الرئيسية. الأم المصرية بما زرعته وتزرعه فينا تُعتبر سيدة المواد الحافظة لهويتنا، وهي التي تُذكِّرنا بما زرعته فينا: مَن نحن بالضبط.

هناك مواد حافظة أخرى كثيرة ما إن نراها أو نحتك بها حتى تتألق وتشتد بداخلنا إضاءة لمبة «أنا مصري»، فيطغى نورها على أي إضاءات أخرى مشتتة: آل البيت الذين يرقدون بيننا ونحبهم ونحتفي بهم كأنهم أهلنا، ما بين

مقام السيدة نفيسة الذي نغطيه بالتل وطرحة بيضاء كأنها عروس، وجدران مقام سيدنا الحسين التي نلتحف الهواء وننام إلى جوارها طلبًا للأمان، وشباك السيدة زينب الذي نرسل إليها من خلاله القبلات والسلام، إنهم أهلنا الذين نرجع إليهم محبة واحترامًا وتقديرًا لوصية جدهم عليه الصلاة والسلام بالاستقرار في مصر. لا تنتهي الفتاوى ويظهر كل يوم شيخ جديد ومفتٍ جديد، لكن يظل الواحد منا مستأنسًا بدعوة مجذوب لا يعرفه عند واحد من هذه المقامات أكثر من أي شيخ على الساحة.

أضف إلى تلك المواد الحافظة أصوات المقرئين المصريين (رفعت وعبد الباسط ومصطفى إسماعيل والحصري والنقشبندي مؤذنًا ومقدمًا للتواشيح)، إنها البصمة المصرية التي علَّمت الوطن العربي كله كيف تجعلنا كلمات الله ننتشي ونطمئن ونخاف ونفرح وتنهمر دموعنا قبل أن تتحول قراءة القرآن إلى مناحة، يكفيك أن تستمع إلى واحد من الأسماء السابقة فتطفح مصريتك على جلدك ومشاعرك. وهل يستقيم رمضان دون أذان الشيخ رفعت؟

أضف إلى المواد الحافظة التي تجدد شعورنا بمصريتنا مطبخنا الذي يقاوم آلاف المطاعم الإيطالية والأمريكية والصينية التي تسيطر على شوارعنا. تلك المطاعم العالمية التي تسقط بالضربة القاضية إذا ما دخلت أمام شخص مصري أصيل جائع في منافسة مع «ناصر البرنس» أو «بحة» بتاع الناصرية أو «الرفاعي الكبابجي» أو «محروس» بائع العدس.

أضف إلى المواد الحافظة أفلامنا القديمة والأصوات المميزة لمصريتنا، بداية من أم كلثوم، مرورًا بأحمد عدوية وشكوكو وإسماعيل ياسين، نهاية بصوت مصطفى محمود والشعراوي ومحمود سلطان وكابتن لطيف.

أضف إلى المواد الحافظة صورتك بملابس التجنيد. أضف إلى المواد الحافظة النكت التي نحفظها جميعًا منذ الطفولة، ودأبنا في البحث عن نكات جديدة. أضف إلى المواد الحافظة تجمعات الزي الموحَّد في صلاة العيد، وماتشات المنتخب، وعزاء السيدات. أضف إلى المواد الحافظة أن تدخل مصادفة إلى قهوة في وسط المدينة فتجد صاحبها قد علّق في الخلفية صورة كبيرة لجمال عبد الناصر.

ملف الحرب

ذهبت لأقص شعري، وفور خروجي من باب المحل اتصل بي صديق يطلب مقابلتي فحددت له موعدًا في أقرب محطة بنزين، سبقته إلى هناك وجلست أحتسي مشروبًا وأتابع ما يدور في ساحة المحطة من خلال زجاج المقهى الملحق بها، وفجأة ودون مقدمات تذكرت زجاج الشبابيك في معمل الكيمياء في مدرستي الثانوية؛ كان المعمل يشتهر بأنه المكان الأكثر ظلامًا في المدرسة، حيث طُلي زجاج الشبابيك بلون أزرق قاتم لم أعرف له مبررًا إلى أن سألت والدي فعرفت أنها كانت أوامر هيئة الدفاع المدني في أثناء فترة الحرب بين مصر وإسرائيل؛ حتى لا تنفذ الإضاءة ليلًا عبر الشبابيك فيصبح المكان هدفًا مكشوفًا لطائرات العدو الصهيوني. كانت الحرب قد انتهت من مدة طويلة وتلتها مبادرة سلام ثم رحل الرئيس مقتولًا على الهواء، وكانت هذه اللحظات أول ما تفتّح عليه وعيي، إلا أن الزجاج ظل مطليًا بالأزرق النيلي. كانت المعلومة مُلهبة لخيالي ومثيرة لحماسي، رُحت أذكرها لكل من معي في الفصل، وكنت أطيل النظر إلى الزجاج الملوَّن إلى أن أصبح هذا اللون عندي مرادفًا لمشاعر وطنية. كان أبي كريمًا معي فأرشدني إلى ما خلفته إرشادات الدفاع المدني في شوارع المدينة، ففهمت معنى الجملة التي كنت أقرؤها على

بعض الحوائط: «مخبأ خاص». كانت مكتوبة يدويًا، وكان الخطاط ضعيفًا في اللغة العربية فنسي أن يضع الهمزة فوق الألف فكنت أقرؤها كلمة واحدة طوال طفولتي: «مخباخاص». كنت جديدًا في التعليم، وكنت أعتقد أنها جملة لها معنى ما سأعرفه عندما أكبر. فهمت الجملة وعرفت أن هناك بيوتًا صنعت مخابئ خاصة بها للاحتماء بها في أثناء الغارات بعيدًا عن المخابئ العامة، حيث الاختلاط بالعامة والدهماء والغوغاء (النظرية نفسها التي بُنيت بها مارينا). كنت أسير في الشوارع فرِحًا باكتشاف معنى الجملة، وتولَّدت بداخلي الرغبة في دخول واحد من المخابئ الخاصة، فاخترت بيت صديق لي كانت جدرانه تحمل هذا المعنى، وعرضت عليه طلبي لكنه لم يفهم عما أتحدث، فعرضت الطلب على والدته فقالت لي ببرود إن المخبأ أصبح مخزنًا للأحذية. تذكَّرت أيضًا حائطًا أسمنتيًّا قصيرًا كان موجودًا في مدخل بيت قريب لي كنا نستخدمه في الاختباء في أثناء الاستغماية. كان الحائط موازيًا للمدخل ويترك مساحة تكفي للالتفاف حوله للدخول. سألت فعرفت أن الدفاع المدني طالب ببناء هذا الساتر حماية للبيت، وحتى يختبئ خلفه مَن يتصادف خروجه أو دخوله في أثناء الغارة.

كنت أرى آثار حرب لم أعشها، وكانت آثارًا مقدسة بالنسبة إليَّ، كلما رأيت تنويعات لها في أي مكان شعرت بخلطة من السعادة والوقار والشجاعة كنت تهزني كطفل (الزجاج الأزرق ولافتة المخبأ والساتر الأسمنتي)، واكتملت المجموعة في رمضان الذي سألت فيه والدي عن الصوت القوي الذي ينطلق مع أذان المغرب، فقال لي إنه صوت صفارة الغارة. يبدو أن المحافظ الجديد قرر أن لا يستغني عنها، وأن يستخدمها كإعلان عن الإفطار كبديل عن المدفع الذي لا يمتلك المحافظ واحدًا مثله، وإلى اليوم أنا فخور بأنني الوحيد بين أصدقائي الذي استمع إلى صفارة غارة حقيقية وليست في الأفلام.

هجمت ذكريات مخلَّفات الحرب عليَّ في محطة البنزين، ومنحتني شعورًا بسعادة بها رائحة أيام الطفولة، حتى إن صديقي عندما وصل دقق النظر في ملامحي ثم قال لي: «مالك كده شكلك صغرت عشر سنين؟» لم أشأ أن أُكذِّبه. لكنني بحثت عن مبرر مقنع فقلت له: «يمكن علشان لسه حالق؟!».

سِلّم الخدّامين

لو كان لي أن أختار بديلًا للنسر الذي يتوسط علمنا (والذي يفترض في لوجو العلم أن يعبر عن شيء يوجد في مصر فقط) لن أضع الأهرامات؛ لأنها أصبحت شعار جريدة تنشر أسماء المسؤولين في صفحتها الأولى وتنشر أسماء الشعب في صفحة الوفيات، ولن أضع أبو الهول؛ لأنه شعار محافظة الجيزة، ولن أضع أبو تريكة؛ فحسن شحاتة أولى، ولن أضع أقراص الطعمية؛ لأنه في غفلة منا لم نحاسب عليها أحدًا استطاعت إسرائيل أن تسجل الطعمية باسمها في موسوعة الأكلات العالمية (ده بجد مش هزار)، ولن أضع وجه السلعوة التي ظهرت عندنا فقط؛ حيث اهتزت صورتها كثيرًا بعد أن استطاعت سيدة صعيدية أن تقتل سلعوة ضالة خنقًا بيديها فاختفت من بعدها السلالة كلها، لكنني سأختار بلا تردد «سِلّم الخدّامين»؛ هذا السلم الخلفي الموجود في كثير من العمارات القديمة بمنطقة وسط البلد بديلًا للسلم الشرعي الرئيسي. عند بداية ظهوره كان الهدف منه أن يستخدمه جامعو القمامة والمكوجية وبائعو اللبن والخبز والشغالات، بمرور الوقت أصبح الطريق المعتمد لكل مَن هو مُلتف على الأصول أو باحث عن شيء لا يحق له: لصوص الشقق على سبيل المثال أو العشاق الذين يتسللون إلى فراش النساء الخائنات بعيدًا عن أعين البوابين.

سِلّم الخدّامين الخلفي المظلم الملتف الذي يندر أن تجد شخصًا يحرسه أصبح فلسفة الحياة في مصر، هناك من لجأ إلى السلم الخلفي لأنه لا يوجد سلم آخر واضح، ولكن الأغلبية تلجأ إليه لأنها سيئة النية وعارفة إنها بتعمل حاجة غلط: شخص يريد أن يستخرج شهادة مخالفات لتجديد رخصة سيارته لا بد له من سِلّم خلفي يقلل حجم الغرامات إلى أكثر من الربع ويسلمها له خالصة مخلّصة دون أن يتكبد مشقة صعود السلم الطبيعي. خريج شاب كله طموح ورغبة في الحياة يبحث عن الوظيفة التي يحلم بها لا بد من سِلّم خلفي اسمه عضو مجلس الشعب عن الدائرة يتقاضى المقابل الذي يسمح له بالحصول للشاب على الوظيفة عبر سِلّم خدامين آخر في المكان الذي سيمنحه الوظيفة. فتاة تحلم بالشهرة والنجومية وتحقيق حلم التمثيل لا بد لها من سِلّم خلفي يمر بحفلات وسهرات وعلاقات غير بريئة. البلد يبحث عن تمويل فلا يسلك سِلّم المشروعات والعمل الجاد الطبيعي، لكنه يسلك سِلّم الخدّامين فيمرر قوانين تضخ له احتياجاته سواء حقيبة الإسعافات الأولية أو الضريبة العقارية أو تجديد بطاقة الرقم القومي كل فترة بحجة أن ملامح الإنسان تتغير (التجديد يُكلف الفرد مبلغًا قد يصل إلى مائة جنيه.. اضرب في ٨٠ مليونًا). تفشل الحكومة في إقناع الشعب بفكرة الجدار الفولاذي فتسعى لإقناعه باستخدام الدِّين كسِلّم خلفي بإصدار فتوى تجعل الجدار واجبًا وطنيًا قد يتحول بمرور الوقت إلى مزار ديني. عدد غير قليل من النُّواب وصلوا إلى مقاعدهم عبر سِلّم خدّامين نعرفه جميعًا. الباحثون عن الثروة يمرون بسِلّم خدّامين الفساد والغش. الباحثون عن نزوة لا تؤرق ضمائرهم يمرون باتجاهها على سِلّم خدّامين المسيار وما شابهها من فتاوى، حتى مستقبل الرئاسة في مصر لا يسير في طريق طبيعي، لكنه يمر بسِلّم خدّامين كبير اسمه المادة مش عارف كام وسبعين.

المجتمع نتيجة أفكاره، ونحن نتبنى منذ فترة فكر سِلّم الخدّامين والنتيجة أنه لم يعد هناك طريق واضح يمكنك أن تسلكه حتى النهاية فتصل إلى حقك أو على الأقل تحقق ما تحلم به، جزء من خيبتنا يكمن في وجود هذا السلم. قد يرى البعض أن إزالة هذا السلم تبدو مهمة مستحيلة، والحقيقة أننا لا نحتاج إلى إزالته... كفاية بس تنوروه.

لا تستعمل المصعد في حالة الحريق

كنت أعتقد أن بطولة الأمم الإفريقية نذير شؤم، هذه المرة أصبحت مؤكدًا. مع انتصاف البطولة هناك دائمًا كارثة؛ في ٢٠٠٦ غرقت العبّارة، وفي ٢٠٠٨ اقتحم الفلسطينيون مدينة رفح، وفي ٢٠١٠ داهمتنا السيول، ومع ذلك فقد فسّرت لي المتابعة الدقيقة للماتشات سر الهجوم على أي شخص ناجح؛ فكل من في الملعب لا يهاجم إلا الشخص اللي معاه الكرة (وهذا بالمناسبة هو أفضل تعريف للناجح)، أما المتميز فهو الشخص الذي يفشل الناس في تصنيفه. للتصنيف سقف إذا لمسته ستصبح ناجحًا، وإذا لمسته أبدًا ستصبح شخصًا يحافظ على نجاحه. التميز أن تلمس في كل مرة سقفًا جديدًا، الجلوس في البيت جعلني فيلسوفًا، فأنا لا أغادر البيت إلا نادرًا عملًا بنصيحة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «نِعم صومعة الرجل بيته». أقضي الوقت مستمتعًا بأشياء كثيرة، أكثرها دفئًا الاستماع عبر اليوتيوب إلى موسيقى «تتر مسلسل «سنوات الضياع» التركي» مُغناة بكل لغات العالم، وأكثرها إثارة للشجون متابعة مسلسل «الرحايا» للمرة الثانية.

استغنى شحاتة عن خدمات عمرو زكي فقرر الأخير أن يرد بالاحتراف، لأن الاحتراف سيد الأدلة. استغنى شحاتة عنه بحجة أنه مصاب بينما كاد

يضم أبو تريكة (لولا اعتراض الأهلي) وهو يعرف أنه لن يلمس الكرة قبل شهور. التناقض يجري في دمنا لذلك لم أندهش عندما اكتشفت أن كوبري «١٥ مايو» يمر بطول شارع «٢٦ يوليو» (عادي). الناس وجهات نظر والبيّاعون نوعان: نوع «بيّاع أحسن من بضاعته»، يُجيد استقبالك بطريقة غاية في السمسمة تُجبرك على شراء ما لا تحتاج إليه تقديرًا له، ونوع «بضاعته أحسن منه»، لكنّ تكاسله وتعاليه وقلة حماسه تجعلك تتراجع عن شراء شيء أنت في حاجة ملحة إليه. لذلك أتقبل من زوجتي بسعادة بالغة كل ما تضعه أمامي على السفرة؛ فهي تنتمي إلى النوع الأول. لكنّ الزواج جعل احترامي لعمال الدليفري يزيد؛ فعامل الدليفري يقطع كيلومترات طويلة معرّضًا خلالها للحوادث أو للاحتكاك بأمناء الشُّرطة؛ ويقف عند باب بيتك يُقدم لك طلبك ويرضى بأقل بقشيش ممكن، بينما الزوجة تكاد تطلب منك أن تسجد لها لأنها قطعت المسافة من المطبخ إلى الصالة حاملة لك كوبًا من الشاي.

ماتشات الأمم الإفريقية جعلتني أعيد اكتشاف نفسي، فلم تستطع مهنتي ولا ثقافتي أن تمحو بعضًا من تعصبي الأعمى، وكنت أشعر بحرج ما بيني وبين نفسي وأنا أتمنى خروج تونس والجزائر من البطولة بفضيحة. بلغ بي التعصب أنني كنت أُشجع مالاوي لأول وآخر مرة في حياتي أملًا في أن تفوز فتخرج الجزائر. قلتُ لنفسي يا رب نلتقي بالجزائر في قبل النهائي ونهزمها فنهدأ قليلًا ونستعيد محبتنا لهذا الفريق العربي فنصبح قادرين نفسيًّا على تشجيعه ومتابعته في كأس العالم. مفيش حاجة مضمونة، والدليل الهجوم على الدكتور مصطفى الفقي بعد حواره الذي فضفض فيه بكلام عن مستقبل الرئاسة، فانقلبت الدنيا عليه لأنه قال إن مستقبل الرئاسة مرهون برضا أمريكا وقبول إسرائيل، ولم تنقلب الدنيا على من وصل بنا إلى هذه النتيجة، لذلك يجب أن نتوقف عن الهجوم على الجزائريين ونبدأ في الهجوم على مَن تسببوا فيما حدث في أم درمان، هؤلاء الذين واصلوا خيبتهم بالفشل في أن يأتوا لنا بحقنا.. مع تحياتي لملف الشكوى.

العقل يرفض المعصية وإذا لم تستجب يقوم بتوجيهك، وشبيبي اتغيرت واحنا لسه محلك سر، والإنجليز هاجموا الشُّرطة في الإسماعيلية في ٢٥ يناير ومن يومها والشُّرطة بتنتقم من الشعب، ونائب القمار كان كلما وضع أمامه مساعده قائمة بالشكاوى والطلبات ينظر إلى القائمة ويقول لمساعده: «خد سيف»، وأنا الزواج حبّبني في قعدة البيت أكثر، وأصبحت بفضل بطولة الأمم الإفريقية أتسامح مع انفعالات زوجتي وأراها مجرد «نرفزة ملعب».

كورة كولا

(١)

شخصان يشاهدان لقطة لبعض لاعبي المنتخب يسجدان بعد انتهاء ماتش الجزائر.

شخص ١: مش ملاحظ إن شيكابالا هو اللعّيب الوحيد اللي ما بيسجدش معاهم؟

صوت: الأهلاوية بيشجّعوا مصر واحنا معاهم.

(٢)

شخص أنيق جدًّا يجلس على كرسي المكتب وساقاه لا تلمسان الأرض، يتابع لقطة تُركّز فيها الكاميرا على جدو، يمسك الموبايل ويتصل بشخص ما.

الشخص: باقولك إيه هاتلي اسم جدو الرباعي.. أنا قررت نرشحه في إسكندرية.. هينزل في الدايرة بتاعة هشام طلعت مصطفى.

صوت: أحمد عز بيشجّع مصر واحنا معاه.

(٣)

شخص أمامه آلة حاسبة ضخمة من اللي بيستخدمها موظف الكاشير في «كارفور»، يتابع بانفعال شديد الفرص مهلة التي يهدرها متعب كل دقيقة.

الشخص: يا تييت!.. تييييت... ده انت هيطلع تييت تيتت!..

صوت: بطرس غالي بيشجّع مصر واحنا معاه.

(٤)

شخص يُدخن سيجارًا ويُفنّط أوراق الكوتشينة وحوله ثلاثة يجلسون بالملابس الداخلية وقد تكدّست أمامه على المنضدة كل ملابسهم وأموالهم، يكادون يموتون بردًا بينما حسني عبد ربه على وشك أن يلعب ضربة الجزاء، ينظر إلى أصدقائه بتحدٍّ.

الشخص: أنا هانزل بـ٢٠٠ جنيه على البلانتي ده إنه هيضيع، مين هينزل قصادي؟

الثلاثة ينظرون إليه ببلاهة.

صوت: نائب القمار بيشجّع مصر واحنا معاه.

(٥)

شخص وحوله مجموعة من الصعايدة يتابعون المباراة، الشخص ينزعج بشدة مع كل هدف يدخل في الجزائر ويبلغ توتره مداه مع الهدف الرابع فيقف صارخًا.

الشخص: مش معقول اللي بيحصل ده! أنا بكرة هاقدم استجواب أطالب فيه بفتح المنافذ أمام الجزائريين.

صوت: مصطفى بكري بيشجّع مصر واحنا معاه.

(٦)

شخص يرتدي مريلة الحلّاق والأخير يصبغ له شعره بينما يشاهدان ماتش الجزائر، بنهاية الماتش يشرد قليلًا.

الحلّاق: بتفكر في إيه حضرتك؟

الشخص: بافكر آخد خطيبتي ونروح نحضر النهائي في الاستاد.

صوت: رئيس الوزراء بيشجّع مصر واحنا معاه.

(٧)

شخص له هيئة قوية يجلس في مكان غامض يشاهد المباراة، يتابع لقطة للحَكم وهو يتغاضى عن احتساب ضربة جزاء صحيحة لمصر، يُدقق النظر في الحَكم ثم يرفع سماعة التليفون المجاور له.

الشخص: أنا عايزكو تحطولي سماعات الحكام دي تحت المراقبة.

صوت: وزير الداخلية بيشجّع مصر واحنا معاه.

(٨)

أشخاص يفترشون العراء وهم ملتحفون بالبطاطين ويتابعون ماتش الجزائر على تلفزيون يستمد الكهرباء من بطارية جرار زراعي، يشعُرون بتعاطف ما مع الجزائريين بعد أن دخل فيهم الهدف الرابع.

شخص: تصدقوا يا جماعة إن المخرّات بتاعة ربنا فيها رحمة عن المخرّات بتاعة حسن شحاتة؟

صوت: ضحايا السيول بيشجّعوا مصر واحنا معاهم.

(٩)

أشخاص عيونهم ضيقة للغاية يتابعون ماتش مصر والكاميرون، يتابعون بتركيز حسن شحاتة، الكاميرا على شحاتة يتمتم بجملة ما، شخص منهم يصرخ فيهم.

الشخص: أوكيه يا اولاد.. فوانيس رمضان اللي هننزل بيها السنة دي بتقول جملة واحدة بصوت شحاتة: «يا رب.. يا حبيبي يا رسول الله».

صوت: الصينيون بيشجّعوا مصر واحنا معاهم.

(١٠)

أشخاص بهم مسحة من الوقار يتابعون حسن شحاتة وهو يستغيث أمام الملايين بالرسول.

شخص: كويس إننا عملنا الانتخابات بتاعتنا والمنتخب مسافر، لو شحاتة هنا كان نجح باكتساح.

صوت: مكتب إرشاد الإخوان بيشجّع مصر واحنا معاه.

(١١)

شخص بتابع المباراة النهائية في مكتبه ومع نهاية الماتش يفتح الباب ويخرج على شباب كثيرين أمام أجهزة الكمبيوتر.

الشخص: أوكيه يا جماعة إحنا هننزل بكرة بالمانشيت ده «أحمد حسن شحاتة وإخوته في الطريق إلى القاهرة بالكأس».

صوت: إبراهيم عيسى بيشجّع مصر واحنا معاه.

شجّع... شجّع

وحّد النصر الجمهور المصري، لكنها أيام وسيدب الخلاف بشكل سيُطعِم البرامج الرياضية عيشًا طازجًا، فبعد أن استقر في الوجدان أن «الأهلي فوق الجميع» فرض جدو شعارًا جديدًا وهو أن «الاتحاد سيد البلد». سباق الشعارات سيستمر فترة ولن يشارك فيه أحد غير الناديين، ولا تتوقع أن تسمع فيه كلمة للزمالك؛ لأنه قال كلمته منذ زمن: «الزمالك يمرض ولا يموت».

وحّد النصر طريقة التفكير بين الناس؛ فالكل يتمنى أن تستمر هذه الفرحة وهذا التوحُّد والوهج الذي شهدته الشوارع المصرية في شيء آخر غير الكرة، والحقيقة أن الكلام نفسه سمعناه في ٢٠٠٦ وفي ٢٠٠٨ وخلال هذه السنوات الأربع لم تستمر هذه الروح إلا في الكرة فقط، بل إنه لن يُسمح للمصريين بالاتحاد والتضامن بهذا الشكل إلا في حالة فوز المنتخب، إذا كان المدونون والنشطاء المصريون عندما قرروا أن يسافروا إلى نجع حمادي ليتضامنوا مع أشقائهم الأقباط تم القبض عليهم!

وحّد النصر بين كل مكاتب التلغراف في الجمهورية، الصيغة واحدة وعنوان المرسَل إليه واحد، حتى اللاعبون أنفسهم كلما تكلّم واحد منهم كان يُهنئ ويُهدي النصر إلى السيد الرئيس.. إللي ما فيه واحد منهم فكّر أن يُهدي الكأس إلى والدته التي تعبت فيه ومعه أكثر من كل رؤساء العالم!

وحّد النصر جهود الأيدي العاملة في مجال البيروسول فازداد إنتاجهم خلال الأسبوع الماضي لتغطية احتياجات المحتفلين، الناس عايزة تفرح وشعار الفرح «ولعها ولعها»، يظن البعض أنها الفرحة، لكنني أؤمن تمامًا أنه العقل الباطن.

وحّد النصر بين المسلمين وجعلهم يخرجون بالأعلام وقد نزعوا منها النسر وكتبوا على المساحة البيضاء «يا حبيبي يا رسول الله»، لكننا نحتاج إلى نصر يوحّد المسلمين والمسيحيين، تُرى كيف سيكون رد الفعل عندما يقود هاني رمزي منتخب الشباب إلى البطولة القادمة وهو يقف على خط الملعب يقول بإيمان وبصدق: «الله يا عدرا»؟

وحّد النصر بين شاشات التلفزيون، وأصبحت مضخة للمشاعر الوطنية والأغنيات المؤثرة، ستكبر الأجيال الجديدة واسم مصر محفور في قلوبها بسن الرجل. المشكلة أنه بمرور الوقت سيصبح هدف جدو في غانا مثيرًا للقشعريرة أكثر من مشهد عبور القناة، وأن مشهد جمال مبارك يهلل فرحًا في المدرجات سيصبح أكثر إثارة للوطنية من مشهد جمال عبد الناصر وهو يُصدِر قرار التأميم، وأن سجدة أحمد فتحي على أرضية استاد بنجيلا ستجري معها الدموع أكثر من مشهد سجدة أول جندي مصري تطأ قدماه أرض سيناء في أكتوبر.

وحّد النصر بيننا وفرحنا وانشغلنا بالفرحة لأننا مصريون بجد؛ نفرح ونسخر من فرحتنا، نفرح ونقول «اللهم اجعله خير»، نفرح يومين ونعيش عليهم، لكننا طيبون، ولهذا كان هناك شخص ما مصري بالبطاقة مثل أحمد عز أذكى منا جميعًا قرر أن يستغل انشغالنا بالفرحة حتى الصباح ليسلب البلد بمشروع قانون في اليوم التالي أوضح ما تملك: آثارها.

فضيحة في استاد القاهرة

حفل طهور جماعي أو عقيقة توأم ملتصق، هذا ما شاهدته في استاد القاهرة تحت شعار حفل تكريم المنتخب الوطني.

جمال وعلاء مبارك في صدارة المنصة وبؤرة الضوء أما أصحاب النصر الذين سفُّوا نجيلة بنجيلا حتى يُسعدوا هذا الشعب ويُسعدوا أنفسهم فهم يجلسون في مرتبة أقل وبين الجماهير وكأن السيدين جمال وعلاء كانا رأسَي حربة المنتخب في مبارياته، أفهم أن يجلس في المنصة رئيس الجمهورية أو رئيس الحكومة أو حتى رئيس مجلس الشعب، لكن هل كان أمين السياسات مندوبًا عن سياسة الرئيس (وهو بالمناسبة منصب أيًا كان شاغله أقل من أن يُمثل السيد الرئيس)؟ وإذا كان هو مندوب الرئيس الرسمي في مثل هذه المناسبات الرياضية لماذا لم يكن مندوبًا عنه في نهائي الكأس بين إنبي وحرس الحدود، ولّا دول مش من مقامه؟ أما علاء مبارك فهو مواطن مثلي مثله، قد يستطيع الحصول على تذكرة في المقصورة أو الدرجة الأولى في ماتش مهم بعلاقاته مثلما يفعل كثيرون، لكن أن يحمل كأس إفريقيا ويلوح به للجماهير، طيب على أساس إيه؟ وإذا كان السيد جمال يُمثل بوجوده الحياة السياسية في مصر فما كان يحق للسيد علاء أن

يقبل على نفسه الوجود في مكان يسمح لأي شخص أن يسأله: «إنت هنا بصفتك إيه؟»

كان هذا هو انطباعي الأول الذي جعلني أدرك منذ اللحظة الأولى أن هذا المهرجان سيتحول بعد قليل إلى فرح بلدي، وهو ما حدث بوصول عمرو دياب، الذي كان باديًا على ملامحه التأفف من سوء التنظيم، ولم يتوقَّع عندما ينزل إلى أرضية الملعب أن يخرج له من تحت الأرض أناس مجهولون يجرون خلفه يُقبِّلونه ويستوقفونه من أجل صورة معه على الموبايل، للدرجة التي جعلت عمرًا يفقد أعصابه فدفع المحيطين به بقوة وصرخ فيهم: «أنا مش عايز حد خالص، أنا مش محتاج وصاية، امشِ يا حبيبي اتفضل، إنتو بتجروا ورايا ليه؟» ثم اضطرب صوت عمرو وهو يغني إلى أن طلب من فرقته أن تتوقف حتى يعود إلى المسرح جريًا وهو في غاية الضيق من الزحام والفوضى بخلاف البوت اللي كان لابسه.

المشوار الذي قطعه عمرو داخل الاستاد كشفَ الكثير من ضعف الإمكانيات التنظيمية؛ فقد كان النجم العالمي يجري في الظلام بلا إضاءة كافية، بلا كاميرا قادرة على نقل الصورة للناس، في الحقيقة الكاميرات الأساسية واحدة كانت مشغولة بالمنصة والأخرى بلاعبي المنتخب الذين كانوا يجلسون في كابينة «٢»، حيث أمسك كل واحد بهاتفه متصلًا بشخص ما ليتأكد أنه طالع في التلفزيون. أيضًا جعلنا هذا المشوار نكتشف أن أنجولا بإمكانياتها البسيطة كانت أشطر منا. وتذكَّر عزيزي القارئ الكردون المُحكم الذي أقامه الأمن الأنجولي ولم يسمح لأحد بدخول الملعب أو الخروج (بمن فيهم محمد زيدان) حتى انتهت المراسم.

وكانت الفضيحة الكبرى عندما صعد لاعبو المنتخب إلى المسرح والتفوا حول عمرو لفة أصدقاء العريس حول مطرب الفرح، سيبك من أن ثلاثة

أرباع الموجودين على المسرح لا نعرفهم؛ فهم ما بين ابنة خالة شيكابالا على أحفاد شوقي غريب على بنت أخت أحمد عيد عبد الملك. وكان العبث على أشده لدرجة أن أحمد عبد الرؤوف ضرب المحمدي على قفاه أمام الكاميرا، بينما عمرو يغني «إللي ضحى لجل بلده»، في اللحظة نفسها التي كانت الكاميرا الأخرى مترددة فيها وتسأل نفسها عن المقصود بأغنية عمرو هل هو جمال أم علاء ثم اختارت الكاميرا أن تأخذ المنصة توتاله.

استلم الحضري الطبلة وهذا حقه كعريس، لكن أحمد حسن كان أول عريس في العالم يصعد إلى الكوشة وهو يحمل ابنته على كتفه. كان المشهد عبثيًا للغاية، لكنني سرعان ما استسلمت له وقلت: «أكيد أنا منفسن»؛ فما المانع أن يحمل علاء مبارك الكأس ويلوح بها، إذا كان عمرو دياب نفسه أعطى الكأس لابنه عبد الله يلعب بيها شوية؟

Weekend

لغة الحوار في مجلس الشعب المصري أصبحت نسخة من لغة الحوار في موقف المنيب، بدأ الأمر بسب الدين كإهانة للمواطن، ثم أصبح سب الدين مرادفًا للحماس السياسي والنزعة الوطنية مثلما قال النائب الدساوى (حسب المصري اليوم) دفاعًا عن المزارعين (ذنبهم إيه يطلع ميتين أبوهم؟). قريبًا سيطلب نائب ما الكلمة فيقف صارخًا في المايك: «إيه سفن إيه»، فيرد عليه نائب آخر بـ«شات اب ذا فاك اب»، وهو النائب الذي سيكون شعار حملته الانتخابية «خد فطيرك». قريبًا ستعرض جلسات مجلس الشعب في التلفزيون وقد سبقتها علامة «+١٨»، ممثلي الشعب يمثلونه في أسوأ ما فيه هذه هي حكمة الأسبوع.

أما اكتشاف الأسبوع: لا أحد في مصر يكمل عمله بالجودة التي بدأ بها ومنهم الدكتور زاهي حواس الذي شن حربًا ضد قانون الآثار وكانت ناجحة، لكن عندما حوصر في مجلس الشعب قال إن أحمد عز هو «الفلاح الفصيح»، والحقيقة أنه لا علاقة بينهما سوى أن عز قد تنطبق عليه شكوى الفلاح الفصيح الرابعة للفرعون والتي قال فيها: «إن كيال أكوام الغلال يعمل لمصلحته الشخصية».

كان المجلس يوم مناقشة قانون الآثار نسخة من مسلسلات السيت كوم الكوميدية، وأصبح ضروريًا عند إذاعة جلسات البرلمان أن يتم تركيب صوت ضحك الجماهير عليها، فقد كانت سذاجة المجلس في الدفاع عن أحمد عز طفولة، وقالوا إن عز لم يتقدم بقانون الآثار، لكنه اجتهد وهو مشكور على جهده (على حد تعبير الدكتور مفيد شهاب) لتقديم دراسة تقارن بين قوانين الآثار في عدة دول، طيب راجل بتاع حديد إيه اللي يخليه يجتهد في قوانين الآثار؟ وقالوا إن دراسته كانت بخصوص التصرف في الآثار وليس الاتجار بها (على أساس أن التصرف معناه تأجير معبد الكرنك قانون جديد).

وكانت شخصية الأسبوع الأكثر احترامًا في البرلمان (مقارنة بزملائه) هو نائب الوطني عمر هريدي الذي لم يسب الدين لحواس اعتراضًا على تشهيره بها في الصحف واكتفى بأن يقطع عليه الطريق ليقول له: «إنت راجل مش حازم»... الله عليكم.

اندهش صديقي من أن طعام العشاء الذي أقامه الرئيس على شرف المنتخب المصري كان يضم فقط البيتزا وساندويتشات الكبدة (حسب المصري اليوم)، فقلت له: «اديني مليون جنيه في إيدي وأنا أروح أتعشى معاك تراب». الأصدقاء لعنة.. واحد منهم يرى أن الجميع سيتورط في إفساد «جدو» بالمدح الزائد والتدليل والهدايا إياها، سألته عن الهدايا إياها فقال لي إن محافظ البحيرة أهدى جدو شقة في دمنهور، فسألته وكيف ستفسده فقال لي: «شاب ونجم وحليوة.. أكيد هيجيب فيها نسوان»، وهو الكلام الذي اعترضت عليه جملة وتفصيلًا إلا أن صديقي قال لي: «هو ده حال أي لعيب يروح الزمالك». صديق آخر لفت نظري إلى أنه بعد الإعلان عن حفل تكريم المنتخب الذي سيخصص دخله لضحايا السيول والذي سيحييه عمرو دياب بعدها بيوم واحد بدأ تامر حسني في الإعلان عن حفله الذي سيخصص دخله للغرض

نفسه، ثم قال لي كنت أعتقد أن ضحايا السيول في حاجة لنا لكن تامر جعلني أكتشف أن هناك من هُم في حاجة لضحايا السيول.

كتاب الأسبوع: «حجرتان وصالة»، أحدث إصدارات إبراهيم أصلان بغلاف محيي الدين اللباد.

مقال الأسبوع: للزميل وائل قنديل في الشروق الذي كان عنوانه «تذكرنا جدو ونسينا محمد ناجي» وتحدث فيه عن الأديب الكبير محمد ناجي الذي أثرى المكتبة العربية بروايات فاتنة ويرقد الآن فريسة لمرض عضال ينهش كبده، وبعد إلحاح كبير على الدولة تبرعت بمائة ألف جنيه في حين أن علاجه يحتاج إلى أكثر من مليون جنيه جُمع معظمه بمجهود الأصدقاء، وقارن قنديل في مقاله بين سخاء الدولة في تسفير جمهور الألتراس لتشجيع المنتخب وبخلها على واحد من أجمل أبناء هذا الوطن.

شخصية الأسبوع: كل مواطن تخطى الزحام والظروف الاقتصادية والمشاكل الشخصية والبرد القارس واتجه إلى معرض الكتاب ليشتري ولو كتابًا لطفله الصغير، إنه نموذج للمواطن «إللي يتشال على الراس».

مطربة الأسبوع: إليسا بأغنيتها التي تقول فيها «إزاي أرجع لحد قدر يمد إيديه عليّ». ومن غير إليسا نصدقه إذا ما غنى عن التحرش الجنسي؟

ملاحظة الأسبوع: الوطنية وجهات نظر، هناك من يسب الدين وهناك من يسرق، وكله في حب الوطن، عندك مثلًا الشكوى الجماعية التي ناقشها مجلس محلي بني سويف بخصوص المدارس التي سُرقت منها الأعلام لاستخدامها في تشجيع المنتخب (يورونا هيجيبوا أعلام من فين لما شحاتة يدرب نيجيريا)، وإن كنت أعتقد أن النظام لن يترك شحاتة يفعلها (مفيش واحدة تقدر تفرط في الراجل اللي بيأكلها عيش).

وحياة أمك؟!

لا تثق أبدًا بشخص يبدأ كلامه معك بجملة «أصلي عيبي إني صريح»، هذا الشخص وقح للدرجة التي تجعله يجمّل عيبًا خطيرًا فيه ويحوله إلى ميزة، ليس هذا فحسب، بل إنه أيضًا يتحدث عن هذه الميزة بنكران ذات.. شفت البجاحة؟!

الشخص الذي يقول لك إنه مريض بالصراحة، هو مريض بالفعل، ولكن بأشياء أخرى، فهو يُخفي خلف الصراحة انفعالات سلبية كثيرة، هو إما كذاب بالفطرة ويعرف ذلك، ويعرف أن مَن يستمع إليه يكذّبه في خياله فيبادر بمنح نفسه لقب الصريح ليغلق باب الشك.

وإما هو يتخذ هذه الجملة كمدخل للتدخل فيما لا يعنيه، أو لإبداء الرأي في موضوع لم يطلب أحد فيه رأيه.

وإما شخص يشعر بالغيرة ويعرف أن غيرته مفضوحة فينعت نفسه بالصراحة كغلاف وردي ورقيق لانطباعه المليء بالنفسنة ليقنعك بأنه شخص موضوعي.

وإما هو شخص فاقد لخاصية اللباقة ويعرف أنه متى تحدث فإنه يدب كلامًا جارحًا وعنيفًا وغير موضوعي، فيحاول أن يُجمِّل قلة ذوقه بلفت نظرك إلى كونها صراحة.

وإما هو شخص له مصلحة مضادة لمصلحتك ويعرف أنه سيقول كلامًا قد يجعلك تشك في نياته فيخبرك أنه يتعامل معك بصراحة وضمير، وانت عارف أنا باعزَّك قد إيه، من أجل تثبيتك.

وإما هو شخص مالوش فيها، وخياله محدود وفهمه على قده، ويريد أن يبرر وجهة نظره الجاهلة أو رأيه الأحمق بأن الصراحة بتزعّل وكلمة الحق بتضايق.

وإما هو شخص يضع لك السم في العسل، ويكون العسل في مقدمات من نوعية: «إنت عايز الحق ولّا ابن عمه؟» و«هاقول لك رأيي وربنا شاهد على اللي في قلبي»، وبعدها يقدم لك الرأي الذي سترى به خطرًا ما «بس انت عارف إني ماليش مصلحة».

وإما هو شخص دمَّر حياته الشخصية أو المهنية بارتكابه حماقة ما، وعندما تواجهه بحقيقة أنه قد دمر نفسه يأبى أن يظهر أمامك كأحمق، وتبلغ به الجرأة أن يحول حماقته إلى بطولة، فهو عيبه أنه صريح ولأنه صريح لم يتحملوه في العمل فطردوه أو أخَّروا ترقيته.

وإما هو شخص ذكي للغاية، ويريد أن يلعن سنسفيل جدودك ويمسح بك البلاط لأي سبب في ذهنه دون أن يخسرك أو يخسر مصلحة مرتبطة بك، أو ينقل إليك رسالة سب وقذف دون أن ترد عليه بمثلها، فيبني حائط دفاع على صخرة قيمة إنسانية عظيمة اسمها الصراحة لا تملك نقدًا لها، وإذا ما

حاولت تحطيم هذا الحائط سيفاجئك ببرود: «أنا كنت عارف إن صراحتي هتزعلك».

لا تثق بشخص يبدأ كلامه معك بـ«عيبي إني صريح»، لا تثق أصلًا بشخص يرى أن الصراحة عيب.

ردُّ اعتبار

كانت لعبة الكُتاب الصحفيين المفضَّلة منذ عشر سنوات (ولا أستثن نفسي طبعًا) هي كتابة مقالات نقدية تسخر من المذيع ممدوح موسى ببرا الفنية، والمذيع حازم الشناوي ببرنامجه «الكاميرا في الملعب».

المهذبون كانوا يسخرون، ولكن كان هناك من يكتب عن موسى والشناو بشكل مهين بلغ أن قالوا إن موسى متزوج من ابنة رئيس التلفزيون وقتها أما الشناوي فقد اعتبروه مثالًا للواسطة؛ حيث كان يعاني من لدغة خفيفة في حرف الراء. لكن وللأمانة كانا الاثنان يحظيان بنسبة مشاهدة عالية.

مرت سنوات واختفى كل منهما وتغيرت خريطة التلفزيون وقتها. واليوم بعد أن قادني ظرف ما للجلوس أمام التلفزيون لمدة طويلة جدًّا، وبعد طول ترحال بين القنوات بكل جنسياتها اكتشفت أننا جميعًا مدينون باعتذار لموسى والشناوي، بل لا تنزعج يا صديقي إذا أخبرتك أنني أعتبرهما من الروّاد... واحدة واحدة وما ترميش الجُرنان من إيدك.

موسى كان الإرهاصة الأولى لمعظم البرامج الفنية الترفيهية الموجودة حاليًا على كل الشاشات. موسى أول من استضاف النجوم السوبر ستارز بعيدًا عن الاستوديوهات وخرج بهم إلى الشوارع وحاورهم في أمور شخصية تافهة

بعيدة عن الفن، وسمح لنا بأن نرى النجوم في شكل جديد ومسلٍ في وقت لم نكن نشاهد النجوم سوى متخشبين أمام مذيعات القناة الأولى أو أنصاف النجوم في «في بيتنا نجم» مع فاطمة مختار. استطاع موسى أن يغير أولًا نوع النجوم، وثانيًا الشكل الذي يظهرون به. ثم ظهرت الفضائيات وفي أذهان معظم مذيعيها أن يقدموا ما قدمه موسى لكن بشكل أفضل وأكثر ترتيبًا، لكنهم لم يخرجوا عن الفكرة التي ظهر بها موسى في نهاية التسعينيات «نجم سوبر + كلام شخصي».

أما الشناوي فقد كنا ننتظره على القناة الثالثة في العاشرة والنصف بعد انتهاء المباريات المهمة. الشناوي هو الإرهاصة الأولى لكل البرامج الرياضية واستوديوهات التحليل الموجودة في كل مكان. الشناوي هو أول مذيع مصري يوجد في أرض الملعب لينقل الكواليس قبل وبعد المباراة، وكان يحاور المدربين واللاعبين والحُكام وجهًا لوجه لا هاتفيًا، وكان يقيم في برنامجه استوديو تحليليًا (على الواقف) يناقش فيه المباراة. كنا ننتظره لنعرف لماذا ألغى الحكم الهدف الفلاني، ولماذا خرج اللاعب فلان، وسر المشادة الجانبية بين حامل الراية وحارس المرمى. وللأمانة لم يخذلنا يومًا ما؛ فقد كنا نجد عنده الإجابات دائمًا. ربما لم يرزقه الله بجاذبية أصحاب الدكاكين التحليلية ببدلهم الكاملة ورابطات العنق الملونة والجيل، لكن أكاد أجزم أنهم جميعًا تمنوا لو أنهم أخذوا مكانه في نهاية التسعينيات.

موسى والشناوي، لقد لعب كل منهما دورًا مهمًا في حدود إمكانياته، ربما كانت هناك مشكلة في القبول، ربما أزعجتك أسئلة موسى ومداخلاته الساذجة، ربما امتعضت من «التّرنجات» التي كان يرتديها الشناوي، لكن للأمانة يجب أن نشكر لهما اجتهادهما عملًا بنظرية «الفضل للمبتدي وإن أحسن المقتدي».

جبتوا المرارة للريس

أدعو للرئيس كما أدعو لكل إنسان بالشفاء وطولة العمر. لا أعتقد أنني قد أدعو على شخص يومًا ما أن يبتليه الله بالمرض؛ فهي دعوة قاسية ولا يصلح معها الهزار، هذا يقيني خصوصًا بعد أن رأيت بعيني زوجة البوّاب تدعو على جاري الضابط المفتري الذي لطش ابنها بالقلم أمامي حتى سال الدم من فمه قائلة: «ربنا يهدك.. روح يا شيخ إلهي يوقع اللقمة من حنكك». أُصيب بعدها الرجل بشلل جعله يعيش شهورًا طويلة على المحاليل، إلى أن رجونا الست جميعًا أن تسامحه فقالت خلاص مسامحاه، وكان أن رحمه الله بعدها بيومين فمات.

جبتوا المرارة للريس، بأعدادكم التي تتزايد كل يوم دون أدنى شعور بالمسؤولية (الراجل هيجيب لكم منين؟). لقد بح صوته وهو يطالبكم بالسيطرة وضبط النفس، لكن ظهور اختراع الفياجرا هدم كل محاولاته. يبذل الرجل مجهودات خرافية ليؤمّن لكم لقمة العيش ويا ريت عاجب، ألَّا كل يوم اعتصامات وإضرابات واحتجاجات وإحراج على الهوا (المنحة يا ريس)، حتى يوم منحنا علاوة عالية نسيتوها وتذكرتوا أن الأسعار ارتفعت في اليوم التالي كنموذج للزوجة ناكرة الجميل. شكاوى لا تنتهي من الفساد ومن العلاج

والتعليم والبيئة وقانون الطوارئ والأنابيب، وضغط متواصل على الرجل دون أن يُقدّر أحد أنه في النهاية بني آدم مثلنا وليس سبايدر مان. تطالبون بالتغيير وإنه كفاية؛ وهو أمر جارح (إذا كان ميدو ما استحملش نفسيًّا إن حسن شحاتة يغيره في نص الماتش، إزاي هيستحملها هو بعد العِشرة دي كلها، صحيح إن لما ميدو خرج نزل عمرو زكي وجاب هدف الفوز... بس ده مش موضوعنا)، حتى عندما ظهر ابنه في الصورة هاجمتوه، وهاجم الجميع التوريث مع أن البلد كلها قايمة عليه؛ يكفي أن تنظر للافتة أي طبيب كبير لتجد تحتها لافتة تحمل اسم ابنه، وهكذا هو الحال في كل مجال بداية من المحاماة، مرورًا بالعطارة، نهاية بالنقاشة (جات على الرئاسة وبقت كُخة؟). لم يعترف أحد بفضله إلا بعد أن فاز المنتخب ببطولة الأمم، وهتفتوا أن المنتخب كويس زي ما قال الريس، لكن بعض الخبثاء طالبوا الرئيس أن يقول على أي شيء آخر إنه كويس (هو بالعافية يعني؟! طب ده منتخب الساجدين.. غير كده مفيش حد في اللي مسيطرين على البلد بيركعها).

شعب يفقع المرارة.. لم يُحذّر أحدُ الرئيس قبل أن يتولى مسؤوليتنا، ولولا أن الرئيس رياضي بطبعه ولاعب اسكواش ولا يدخن ولا يسهر، لحدث ما لا يُحمد عقباه. حمدًا لله إنها جت على قد المرارة؛ فشعبُنا مُرهِق ويمْرِض: سعد زغلول طلب البخاخة وهو على فراش الموت وأخذ جرعة وابتسم قائلًا: «مفيش فايدة» ثم مات. الملك فاروق ضغط الشعب عليه حتى أصابه بخلل في الهرمونات جعله يحيط نفسه بالنساء بينما هو مالوش فيها. عبد الناصر أصيب بالسكر وكان يوماتي على الله يفتح عينيه الصبح على جلطة في ذراعه أو ساقه. أما السادات فقد وصل إلى مرحلة الزهق من هذا الشعب فاستبيع تمامًا وقرر ألا يرتدي القميص الواقي ضد الرصاص، لكنه قبلها كان اختار لحكم البلد واحد عنده صحة.

لا تُضِف تعليقًا

المتأمل لتعليقات القُراء على المواقع الإلكترونية للصحف سيعرف حجم المأساة التي نعيش فيها، جهل وانطباعات ساذجة وخليط من الاستظراف وقلة الذوق والاتهامات سابقة التجهيز وتلميحات سيئة المعنى، حالة من النشاط في منطقة تكشف عورة المجتمع الذي نعيش فيه، وتجعلني أطالب أصحاب المواقع الصحفية بفلترة هذه التعليقات لأنها قبل أن تسيء إلى أصحابها (أصحاب الأسماء المستعارة) تسيء إلى الجريدة نفسها؛ إذ إنها تُثبت أنها المفضّلة لدى قطاع واسع من الجهلاء أصحاب اللياقة البدنية العالية، بخلاف أن هذه التعليقات تفسد عمل الآخرين بأقل مجهود؛ فالكاتب الذي يجتهد ليقدم ٥٠٠ كلمة خلاصة تفكيره وبحثه بلغة صادقة وبسيطة وغير مضللة، ويجتهد حتى يرضى ضميره عن الناتج النهائي، هذا الكاتب سيفاجأ بقارئ يجلس أمام الكمبيوتر يعبث بأنفه ويقرأ سطرًا من المقال ويترك سطرًا بشكل يتعالى فيه على الكاتب، ويُشكك في ميوله وفي نيّاته ويسيء الظن به لله كده في لله، وكأن الكاتب مندوب مبيعات من الذين يمرون على المقاهي ليبيعوا للناس بضاعة مضروبة. جهل مطبق يقود القارئ إلى أن يفسد مجهود الكاتب بتعليق سخيف أو جاهل يشتت ذهن قارئ جاد يود أن يقول كلمة

مفيدة للناس وللكاتب، فينشغل بالرد على القارئ الجاهل وتتحول ساحة التعليقات إلى مرحاض عمومي بعد أن استهلك الكاتب نفسه في تحويلها إلى حديقة عامة.

التعليقات عندنا تُثبت أن القارئ أنواع، هناك القارئ المنفسن الذي يُعلّق على خبر مثل خبر «حفل عمرو دياب في حب مصر» قائلًا: «حب مصر إيه وهو بياخد ٧٥٠ ألف دولار في الحفلة؟!» ولن تستطيع أن تعرف بالضبط من أين حصل القارئ على هذه المعلومة. ويأتي بعده قارئ ساذج ليتعامل مع المعلومة باعتبارها حقيقة فيوجّه شحنة من السباب إلى عمرو ويكشف في نهاية تعليقه عن كونه - بخلاف أنه ساذج - مدّعي وطنية، ويريد أن يمنح كلامه الساذج ثقلًا ما فيختتم تعليقه بـ«ولن أقول غير أن القدس يصرخ يا عرب». هناك القارئ ذو الثقافة الدينية السطحية الذي يقول تعليقًا على خبر وفاة الضحية ٣٣ لإنفلونزا الخنازير: «متى سنتمسك بتطبيق الشريعة وحكم الدين؟ إنه عقاب الله». هناك القارئ أبو دم خفيف الذي يُعلّق على خبر تعيين أول سيدة في منصب سكرتير عام لمحافظة بور سعيد قائلًا: «المهم المحافظ ما يخونش مراته معاها». هناك القارئ المتشدد الذي يمسح بكرامة الكاتب الأرض لأنه قال آدم وحواء ولم يقل سيدنا آدم وسيدتنا حواء. هناك القارئ المجامل الذي يُعلّق على الكاتب بوصفه بالكاتب «العسُولة». هناك القارئ الأوفر الذي يتمادى في إظهار إعجابه بأن يُعلّق متسائلًا: «إنت بتكتب فين تاني عشان نقرالك؟» هناك القارئ الذي يحفل رده بالمعلومات الخاطئة التي يتداولها البوابون بعضهم مع بعض (سيعلق قارئ أعرف على هذه الجزئية قائلًا: «وما لهم البوابين مش بني آدمين ولّا إيه؟»). هناك القارئ الذي كان يحلم أن يصبح كاتبًا فيكتب تعليقًا أكبر من المقال نفسه، رد يكشف لماذا فشل هذا القارئ أن يصبح كاتبًا.

القُرَّاء نعمة كبيرة؛ فهناك قراء تعلمت منهم الكثير، وهناك قراء غيّروا طريقة تفكيري، وهناك قراء صححوا لي معلوماتي بكل أدب واحترام، وهناك قراء ألهموني أفكارًا لمقالات وكتابات حصدت بها النجاح لوحدي، وهناك قراء أعاروني كتبًا، وآخرون جمعوا لي دراسات أو إحصائيات دعمت مقالي، وهناك قراء بأعينهم لا أعتبر أي شيء جديدًا أكتبه ناجحًا إلا عندما أعرف أنه لاقى قبولهم واستحسانهم، وفكرت كثيرًا فيما يجمع بينهم وفيما يميزهم عن القراء الذين يفقدون أعصابهم بمجرد رؤية جملة لا تعجبهم في المقالة، فاكتشفت أن القراء أصدقائي كانوا صادقين في تواصلهم معي للدرجة التي تجعل كل واحد منهم حريصًا على أن يتواصل بشكل شخصي ولو عبر رسالة قصيرة أو إيميل لإبداء الإعجاب أو للفت نظري إلى خطأ ما أو وجهة نظر غير مقنعة، هو شخص محترم ينافس الكاتب في دأبه وحرصه على المصلحة العامة، هو قارئ يسعى الكاتب خلفه (علشان يصحح له الواجب)، ولا يختلف كثيرًا عن النوع الآخر من القراء الذي يشبه الصبية الذين يجرحون السيارات الغالية بمسامير صدئة.

طوبى لأواخر الثانوية العامة

بعد أن انتهت زفة أوائل الثانوية العامة بالمكافآت الهزيلة وفلاشات كاميرات الصحف وبرامج «التوك شو» ومصافحة المحافظ والوزير وشعور الأهل بالفخر واستقرار الأوائل في كليات القمة أو في الكليات التي يرغبون في الالتحاق بها (لن يتركهم أحد يضحُّون بكليات القمة في سبيل ما يحبونه، الأمر الذي يفسر وجود أطباء تجار ومهندسين صحفيين وصيادلة مصممي رقصات)، بعد أن انتهت الزفة وانفض المولد أستطيع الآن - وأنا ضميري مستريح - أن أفسد فرحة الأوائل بما يرونه إنجازًا عظيمًا.

أن تكون عنصرًا في منظومة رديئة ثم تتصدر المشهد فهذه شهادة بأنك خلاصة الخلاصة وزهرة الزهرة في الرداءة، وأن تكون «وش القفص» بشهادة الحكومة السيئة بالنسبة إلى محصول نظامها التعليمي السيِّئ فهذا يعني أنك تُشبه حبات الخوخ الحكومي المهرمَنة ذات الحجم الضخم المبهر ولكن بلا طعم. من حقك أن تفرح بأنك واحد من العشرة الأوائل في الثانوية العامة في أي مكان في العالم ما عدا مصر؛ لأن النظام التعليمي فيها باطل؛ وما بُني على باطل فهو باطل، صحيح أننا نقول برافو للأوائل من قلوبنا لكنها تشبه البرافو التي نقولها لشخص حكى لنا كيف أنه وجد طريقة لتخفيض مخالفات البناء

أو مخالفات رخصة السيارة إلى الربع، وصحيح أن الحكومة تحتفي بالأوائل وتمدحهم، لكن وبما أن مذمة الناقص في حقك شهادة بأنك كامل فمدح الناقص في حقك شهادة بأنك الحاج كامل.

كيف تفرح وأنتَ الأول في سباق يسيطر على أجواء المنافسة، فيه تسريب للامتحانات، وأخطاء في التصحيح، وضياع لورق الإجابة في الطريق إلى غرفة الكنترول، وغش جماعي، وعدم تكافؤ للفرص ما بين تعليم حكومي وتعليم خاص، وعجز مادي لأسر فشلت في أن تجعل أبناءها يحصلون على دروس خصوصية (التي اعترف الأوائل بحصولهم عليها في كل المواد)؟ كيف تفرح بأنك الأفضل في نظام به مدرسون بحاجة إلى أن يتعلَّموا من جديد، وإلى أن يخضعوا لاختبارات لتحديد مستواهم وتحديد الأجر الذي يستحقونه (دون أن يتم الاستغناء عمن رسبوا في هذه الاختبارات)؟ كيف تشعر بالفخر وأنت الأول على نظام قائم على الحفظ والتسميع وليس قائمًا على الفهم والرغبة في التعلُّم؟ كيف تفخر بالتفوق في نظام لا يعلمك كيف تكتشف نفسك ومواهبك وتعرف ما يليق بمستقبلك، ولا يساعدك على أن تعرف «إنت عايز إيه بالضبط»، ويعلمك التحايل بأن تراهن على الأسئلة المتوقَّعة والحتت المهمة لتحصد درجات لا لتتعلم؟

إن أوائل الثانوية العامة، مع احترامي لهم وتقديري التام للعذاب الذي عاش فيه أهاليهم كبقية الأسر المصرية، هم نسخة من القيادات الحكومية الموجودة في مختلف الأماكن، الذين وصلوا إلى مناصبهم لاعتبارات كثيرة لا يُشترط فيها الكفاءة ولكن يُشترط أن «تفهم الفولة ماشية ازاي وتعمل المطلوب منك دون تفكير». ومثلما انبطح موظف صغير أمام مطالب رؤسائه ليصل إلى منصب أعلى انبطح الأوائل أمام نظام تعليمي فاسد يطالبهم بالحفظ

والدروس الخصوصية ليصلوا إلى الكليات التي يرغبون في الالتحاق بها (وهو فساد على صُغير مبرر بالحرص على المصلحة وبأن البلد ماشية كده). ومثلما يصل الموظفون إلى مناصبهم العليا ثم يضيعون بعدها في غياهب التاريخ يضيع الأوائل، ونادرًا ما نرى شخصًا منهم قد وصل إلى مكانة تفيد البلد، بل إن البلد توليهم اهتمامًا سطحيًا (مكافأة تفوُّق في الكلية تصل إلى ٢٠٠ جنيه)، ولا تتابعهم الدولة بعد الثانوية أو تتعامل معهم باعتبارهم كوادر مهمة يجب الاعتناء بها للاستفادة منها، ذلك لأن الدولة نفسها تفهم أن أوائل الثانوية العامة حاجة والنجاح في الحياة حاجة تانية.

ستسألني وهل يملك أحد ألَّا يتحايل لينجح ما دام النظام يسير بهذه الطريقة؟ وسأقول لك من حقك أن تتحايل كما تشاء، لكنني أحتفظ بحقي في أن أرى أواخر الثانوية أشخاصًا طبيعيين أما الأوائل فلا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في وجه شبه ما بينهم وبين الحاصلين على مراكز متقدمة في دوري الشركات.. صحيح هم أيضًا متفوقون لكنهم في النهاية موظفون.

جاذبية سائقي التوك توك

«فُكّك م اللي انت فيه» أغنية فريق «أرابيان نايتس» أصبحت هي المفضَّلة عندي هذه الأيام، تُذاع بانتظام على محطة «نجم الجيل» (مزيكا سابقًا). في أوقات الملل (تِنذر تقول طول الوقت) أمسك الريموت كنترول، أُخرج البطاريات لأعضعضها قبل أن أتجوَّل بين غرف فندق النايل سات من أجل فكرة سريعة عما يدور في كل غرفة ثم أعود إلى مزيكا فأجد الأغنية «لسه ما جاتش».

هناك جملة معينة في هذه الأغنية تمنحني سعادة الأطفال: «الناس الموهوبة رُخصها مسحوبة». هل تعرف لماذا تعترض الحكومة على ترخيص التوك توك؟ لأن سائقيه موهوبون بالفطرة؛ إنهم يقودون نصف سيارة من دون باب، تعتمد في اتزانها على تيارات الهواء وصوت البيز القادم من السماعات القوية والتويتر الموضوعة بعناية على جانبي مسطرة القيادة. إن أغنية واحدة من توزيع طارق مذكور بكل ما فيها من إيقاعات قوية صاخبة كفيلة بجعل التوك توك ينقلب عدة مرات كبرميل مكعب حطه السيل من علٍ، لكن مهاراتهم تجعلهم يُحكمون السيطرة على التوك توك في ظل أغنيات أكثر ضجيجًا وعشوائية.

تمر بي كل أنواع المركبات يوميًا (ما عدا الدبابات)، ولا يأسرني إلا سائق التوك توك بكل ما فيه من جاذبية؛ مهاراته تليق بسائق في الليفل قبل الأخير في سباق سيارات البلاي ستيشن، يظهر له فجأة أشخاص [illegible] أنفسهم لكن الغريب أنه لا شيء يحدث لهم؛ ماهر في تفادي أخطاء الشرطة، يمتلك من الدقة ما يجعله يمر بين سيارتين متجاورتين دون أن يلمس إحداهما. لا يزعج الآخرين عندما يسير مسرعًا في الاتجاه المعاكس، ويستقبل سباب الآخرين بابتسامة أبو تريكة، [illegible] التوك توك [illegible] على جانبه الأيمن في [illegible] خادع بفضل [illegible] فيخرج [illegible] الركاب ويعدلون التوك توك بينما الأغنية [illegible] في الإم بي ثري [illegible] مشوارهم بالبهجة نفسها (أعرف أصدقاء [illegible] ركبوا التوك توك [illegible] كل شوية)، [illegible] الأخلاق أكثر [illegible] أخلاق سائقي الميكروباص [illegible] فهو لا يتأخر عن توصيل سيدة مُسنة إلى باب بيتها وربما صعد بها إلى باب الشقة.

إنه أدهم شرقاوي عصرنا الحديث، الذي ينحاز إلى الغلابة وتطارده الحكومة وتضيق عليه الخناق دومًا حتى لا يتسلل إلى العالم الخارجي فيعكنن على الباشوات أصحاب السيارات الفارهة. إنه بطل شعبي يتحمَّل سيوف الهواء المثلج التي تنخر في عظامه من الناحيتين من أجل الآخرين، محبوب من الجميع، يكفي أن تشاهده يسير بسرعة ثم يخرج ساقه فجأة من التوك توك وهو يمر بصديق له ليضربه بالشلوت ويجري فيبتسم صديقه ويرد له التحية بمرح: «ماشي يا ابن الـ...». إنه نجم سينمائي.. هل صادفته هذه الأيام يقود مركبته وهو يرتدي الجينز والجاكيت الجلد، بينما أحاط رقبته بتلفيحة سيناوي زاهية، ودفن كفيه في جوانتي صوف؟ ذقنه نصف حليقة، وتتدلى من شفتيه السيجارة وقد انبعث من جنبات التوك توك صوت أغنية حزينة «أنا عايش ومش عايش». إنهم عشاق «لايقين جدًا» في الجروح والهزائم العاطفية.

كانت لعبة الطفولة المفضَّلة عند كثيرين هي أن يفرد يديه كأنه يمسك بـ«جادون»، ويجري في دوائر ومنحنيات وهو يصرخ: «بيب.. بيبب بيييب»، معظمنا قادته اللعبة إلى أن يلبس في رجل مُسن فيأخذه ويسقط أسفله، أو إلى أن تضربه سيارة تمتلك «بيب حقيقي». فشل معظمنا وتحوَّل الناجحون إلى سائقي تكاتك.

لو لم أكن أُحب مهنتي لوددت أن أكون سائق توك توك. الجملة السابقة نصف صادقة، فحبي للكتابة ليس هو الذي يحول بيني وبين هذه الأمنية؛ فالحقيقة أنني لا أمتلك ربع مهارات سائقي التوك توك، ولا أُضاهيهم في الجاذبية. إنها أُمنية غير واقعية، لكنني أمتلك واحدة صادقة وحقيقية... أتمنى أن أستقل توك توك تكون شغَّالة فيه بالصدفة أغنية «فُكَّك مِ اللي انت فيه».

سينما الأطفال

اتصلت بأحد أساتذتي أناقشه في مشكلة ما تخص حياتي الشخصية، لم أكن أبحث عن حلول، قد كان بحثي عن الحوار مع شخص أستطيع أن أعتبره «معايا على نفس الموجة». يُخطئ الواحد كثيرًا ويتكبَّد خسائر فادحة عندما يستشير شخصًا يرى الحياة بمنظور مختلف، شخصًا يُقدِّم لك حلًّا يرضيه هو شخصيًّا، ويجعله أمام نفسه الشخص الموضوعي الحكيم دون أن يكابد واحدًا بالمائة من آلامك وحيرتك (وعلى رأي المثل: إللي قاعد في المدرَّجات هدَّاف). حاورني أستاذي باللغة التي أفهمها، وامتص طاقتي السلبية بقدر كبير، وفي نهاية الحوار قرر أن يستعين في كلامه بنماذج من الأفلام السينمائية (وهي عادتنا ودرس قديم تعلَّمته منه) ليؤكد لي المعنى، ذكر مثالًا قويًّا ومقنعًا جعلنا ننسى المشكلة وندخل في حوار عن السينما قطعه فجأة بجملة كانت درسًا جديدًا، إذ قال: «والله باين السينما دي هيَّ اللي تاعبانا في حياتنا».

صحيح يا أستاذ، نحن الذين نُصدِّق السينما تعبنا في حياتنا كثيرًا؛ لأن السينما حاجة والواقع حاجة (بالضبط زي الحب والجواز). هناك أشياء كثيرة نُصدِّقها وهي غير واقعية، الأمر الذي يزيد في «كلكعتنا».

نُصدِّق أنهم «عاشوا في تبات ونبات»، باعتبار أن الحب نهايته الزواج (وهي جملة واقعية وصادقة إذا أمعنت في قراءتها). تنزل التترات على البطل والبطلة بملابس الزفاف بما يعني ضمنيًا أنها بدأ رحلة السعادة. مَن الذي نقل لنا هذا الانطباع الساذج غير السينما! إن التبات والنبات أسطورة حتى لو تزوجتَ الفتاة التي تحلم بها، فالميلودراما كلها تبدأ بعد الكوشة.

نُصدِّق أن الخير ينتصر، وهي معجزة لا تحدث إلا في زمن الأنبياء أو في سينما «جالاكسي» في حفلة منتصف الليل مع بعض الفيشار، لكن ما إن تغادر القاعة وتكتشف أن هناك شخصًا ركن صف تاني وعشَّق سيارته واختفى (لأنك ركنت بالخطأ سيارتك في المكان المخصص له)، وتركك أنت وزوجتك «مرصرصين في البرد» بلا حيلة، فتعودان إلى البيت في تاكسي وتعود أنت لاستعادة سيارتك في اليوم التالي. وقتها ستعرف أن الشر مسيطر. ويا سلام إذا عدت في اليوم التالي ووجدت الأربع فِرد على الأرض!

نُصدِّق أن الواحد باستطاعته أن يهزم الجميع إذا دخل في مشاجرة، لمجرد أنه شجيع وقلبه لا يعرف الخوف أيًا كانت مقاساته، والنتيجة أن الضحايا يتساقطون في شوارع مصر كل يوم.

نُصدِّق أن المال لا يجلب السعادة، في حين أنها مجرد وجهة نظر يُكذِّبها الواقع كثيرًا.

يُصدِّق الواحد أنه البطل دائمًا، في حين أنه يلعب طول الوقت أدوارًا ثانوية في حياة الآخرين: يلعب دور الأب، والجار، والرجل الذي كاد البطل يدهسه بسيارته، والضحية التي اختارها اللص، والمتهم الذي يشك فيه الضابط، والزبون الذي ينتظره البقال.

نُصدِّق أن الأشخاص يتغيرون إلى الأفضل فجأة، وهي كذبة كبيرة (محدش بيتغير).

نُصدِّق أن كلمة «النهاية» تعني راحة كل الأطراف، وحلًا لكل المشكلات، في حين أن كلمة «النهاية» لا مكان لها في الأحداث الواقعية، فكل نهاية تسلمنا إلى بداية جديدة.

ممكن أعمل «أوردر»؟

يقولون هل تعرف ما أفضل طريقة تلفت بها نظر أي فتاة؟ أن تتزوجها، وساعتها ستضمن أنك ستلفت نظرها طول العمر. البنت المصرية تبدو ساذجة، ولكنها ليست سهلة. وعمومًا لم تفلح البنت المصرية في مجال الرياضة إلا في الألعاب الفردية؛ الموضوع له علاقة بالتركيبة النفسية للفتاة المصرية، فإذا قلنا كرة القدم على سبيل المثال ستجد أنه من الصعب على ١١ فتاة أن يتقبّلن فكرة ارتدائهن زيًّا موحدًا في مكان واحد. إذا دخلت فتاة مكانًا ما ووجدت فتاة أخرى ترتدي فستانًا مشابهًا ستُصاب بإحباط وارتباك نفسي، فما بالك لو وجِدتْ في مكان به ١٠ فتيات على الأقل يرتدين نفس ما ترتديه بالضبط؟ لكن في المقابل أنا مقتنع برأي صديقتي التي قالت لي إن المرأة تصلح للانضمام إلى الجيش والمشاركة في الحروب أكثر من الرجل؛ لأن أي فتاة ميزتها الطبيعية بقدرتها على أن تتحمّل النزيف لمدة أسبوع دون أن تفقد حياتها. صديقتي ليست مسترجلة، لكنها ترى أن أهمية الرجل لا تزيد على أهمية ماكينة التصوير؛ إذ إن الهدف من الاثنين هو مجرد الحصول على نسخة (تتربى في عزك إن شاء الله).

هذه الأيام أتابع قناة «مودرن مصر» التي تُذكّرني ببطولة دوري الشركات. وعلى رأي صديقي، لا أعرف كيف يكون شعارها مصرية ١٠٠٪ وأسمها أصلًا «مودرن»؟! لم تستطع القناة أن تشغلني كثيرًا، لكن يشغلني حاليًا عودة قضية تدريس الجنس في المدارس للظهور مرة أخرى، ليس لديَّ اعتراض عليها، لكن كل خوفي إنهم يبدوا العيال واجب يحلوه. كلنا تخرجنا في المدارس، مدرسة وحيدة لم يخرج منها شخص حي أبدًا: «مدرسة التاريخ». لا تُدقق في كلامي، لا تُدقق في شيء أصلًا، ولا تنظر إلى الدنيا من قريب؛ فالدنيا تبدو أجمل كثيرًا من بعيد، فيقال الحياة في الأصل كوميدية جدًّا، ولكن الممثلين ثقيلو الدم. يُصبح الشخص ثقيلًا بمرور الزمن، وبداخل كل شخص ناضج طفل بُطل، كلما تأمل هذا الشخص نفسه في المرآة ليسأله: «إيه اللي حصل لك؟». نحن لا نعرف قيمة الأشياء إلا بعد أن نفقدها، لكن أرجوك تفاءل فنحن لا نعرف قيمة الأشياء المفقودة إلا عندما نجدها.

عُمرك اشتريت حاجة لأبوك في عيد الأم؟ أنا فعلتها في فترة المراهقة واشتريت له من مصروفي ولاعة غالية، على الرغم من أنه لا يدخن، لذلك لم أندهش عندما أجبرني على إعادتها للمحل، صاحب المحل رفض أن يستعيدها فاضطررت إلى الاحتفاظ بها وهكذا بدأ طريق التدخين. لم يكن التدخين موجودًا في حساباتي للمستقبل، لكن أُحب أن أخبرك أنني قد أقلعت عن التفكير في المستقبل لأن المستقبل أسرع من التفكير فيه. وأصبحت مضطرًّا إلى الاهتمام بصحتي بعد أن جعلتني الظروف مثار اهتمام الأطباء، الأطباء الذين تعلّمت من كثرة ترددي عليهم شيئًا مُهمًّا: «إذا دخلت إلى عيادة ووجدت الزرع الموجود بها ذابلًا على وشك الموت انصرف بسرعة ولا تزُر هذا المكان من جديد». ولأنني أقلعت عن التفكير في المستقبل لم أعد وحيدًا، وبعد أن كان الشخص الوحيد الذي يسأل عني هو صاحب معرض

السيارات الذي اشتريت منه سيارة بالتقسيط، أصبح لديَّ زوجة تسألني يوميًا عن الصحة والمزاج، ثم تسألني عن قسط النادي وقسط الشقة وقسط القرض، فالرجل يُشبه حساب البنك؛ لا بد أن يكون به الكثير من النقود علشان يكون فيه «فايدة».

هل تعرف ما أفضل طريقة تجعل أي فتاة تقبل الزواج منك؟ أن تلفت نظرها، ولكن حاول أن لا تلفت نظرها أكثر من اللازم بعد الزواج (خد مساحتك)، حتى لا تُصبح مثل سائق التوك توك الذي رأيته منذ يومين في إمبابة يسير شاردًا وقد كُتب على التوك توك: «فداك زوجتي يا رسول الله».

عالم وِسخة

أبذل جهدًا انتحاريًا يا صديقي حتى تخرج هذه الزاوية سالمة من جو الإحباط الذي يسيطر على البلد، أكاد أُستشهد وأنا أهرب من الأزمات والفساد واللاأمل حتى أخرج لك بقصة مفيدة أو حكمة قد تكون فارقة معك أو حتى ابتسامة تمنحك بعض الأمل. أُنهي المقال وأنا في حالة إعياء، صدقني بعد كتابة مقال العدد الأسبوعي منذ يومين ظللت منهكًا طوال اليوم، أشعر بضربات قلبي متسارعة كأنني كنت في معركة. أتحمل سخافات البعض من أجل قليلين يقولون لي إن يومهم لا يستقيم إذا لم يبدأ بـ«منتهى السعادة». أفر كمن يفر من الأسد من كل هذا الهراء الذي نعيشه والذي هو كفيل بتقصير العمر وقطع الرزق ووأد أي أمل في بكرة. أحاول أن أسخر منه حتى أساعدك يا صديقي وأساعد نفسي على تجاوزه وابتلاعه قبل أن يبتلعنا.

لكنني اليوم مرهق للغاية، لا أشعر بأي ميل إلى الطبطبة والتهوين عليك ورفع روحك المعنوية. أود أن أقول لك إننا نعيش في خطر، تعيش على متن سفينة على وشك أن تغرق، هي فقط متماسكة حتى هذه اللحظة؛ رحمة من الله ببعض الطيبين الذين يعيشون بيننا، ولولاهم لكنا جميعًا في قاع البحر منذ سنوات.

فساد وجهل وبيروقراطية وظلم وتلوث وقهر وقلة إحساس وقلة ذوق ورشوة وسرقة وقوادة وقلب للحقائق وتنكيل بالبسطاء وقسوة على مَن لا ظهر له، جهل وسرقة للأفكار، وتزوير وتدليس ونجاح مجاني يحصل عليه اللصوص وأرباع الموهوبين، صفر في القدرة على الإبداع والتجديد، صفر في القدرة على خلق مناخ صحي نعيش فيه، صفر في لغة الخطاب السياسي، صفر في لغة المعارضة، صفر في دور النشر وشركات الكاسيت وشركات الإنتاج السينمائي والصحف بكل أنواعها المستقلة قبل الحكومية، الكل يتاجر بالبلد، ولا أحد يرى غير نفسه حتى مَن يدَّعي النضال والثقافة. الشهرة من نصيب المهرجين والمتآمرين ولصوص الأفكار وحاملي الشنطة وحاملي الفوطة أحيانًا. العلماء يهجون، والراقصات تستقر في البلد. بلد يسيطر عليه المدعون في شتى المجالات، والناس تغرق في جهل عظيم فلا تُفرق بين الأصلي والتقليد. الصين احتلتنا، وأراضينا اشتراها الإسرائيليون وأمراء الخليج ورجال الأعمال برخص التراب، والمخدرات أصبحت سمة مميزة للشباب الذين لم يجدوا فرصة للظهور إلا كجمهور في برامج «التوك شو». وطن أبعد ما يكون عن صحيح الدين، وغارق بين بحرين كلاهما مظلم: بحر التشدد وبحر الانحلال. بلد أقرب في تكوينه ورائحته وسُمعته إلى شركة قطاع عام، لا أحد وصل إلى مقعده عن كفاءة واستحقاق، ولا نظام في طريقة إدارته، ولا خطة مستقبلية له، ولا طموح للعاملين فيه سوى الحفاظ على مقاعدهم. أما طرقاته الضيقة فتمتلئ بالهلّيبة وآكلي العيش بالفهلوة والسرقة والسمسرة وتخليص المصالح ولَيّ عنق القانون. شركة لا مكان فيها للشرفاء، ولا صوت يعلو فيها على صوت الجهل، ولا قدرة لموظفيها على حسن التعامل مع الناس. شركة تُحقق خسائر تتزايد يومًا بعد يوم، وكلما ظهر فيها موظف يود أن يلفت النظر إلى الخسائر يتم نقله إلى الأرشيف. شركة الكسبان الوحيد فيها هم اللصوص.

نعيش أيامًا سوداء يا صديقي! إذا كانت لديك فرصة للهجرة أرجوك هاجر، وإذا كان ابنك أو شقيقك يحلم بالهجرة أرجوك لا تقف في طريقه، وإذا كنت برَّه أساسًا أرجوك خليك عندك؛ فالبلد لن ينصلح حاله قريبًا حتى لو تغير النظام، فالمشكلة الأكبر في الناس، الهجرة يا صديقي الهجرة.. الحياة ليست بروفة وستعيش مرة واحدة فحاول أن تعيشها صح.

Weekend

تصحيح الأسبوع: لا تُصدِّق أحدًا يقول لك هاجر واترك البلد حتى لو كان كاتبك المفضَّل. تنفعل المرأة في لحظة يأس وتصرخ في زوجها: «طلقني طلقني»، وهي لا تعنيها بالمرة، لكنها موجوعة لدرجة أن كلامها يخرج دون أن يمر بعقلها، الرجل اللي على حق لا يستجيب للدعوة ويعرف أنها لحظة غضب، ويستجيب لها الرجل اللي بيتلكك، لذلك أعتذر لك يا صديقي عن المقطع الذي طالبتك فيه بالهجرة من البلد – فقط – لأنها دعوة انهزامية كان يجب ألَّا أتورط فيها، هذا رأيي ورأي كثيرين هاتفوني طوال يوم الخميس لمراجعتي في هذه الدعوة (أخص بالذكر النائبة المحترمة جورجيت قلليني، وعمي صلاح عبد الرحمن أول من أقرضني كتابًا في حياتي بغض النظر عن إني ما رجّعتوش لحد النهارده). أعتذر عن الدعوة إلى الهجمان من البلد؛ فمَن أفسدوه لا يستحقون أن نتركه لهم مقشرًا، وحتى تتغير الظروف إلى الأفضل آدينا بنغلّس عليهم وخلاص. أسحب الدعوة، وبصراحة كنت أفكر في الاعتذار عن مقالي «عالم وِسخة» كله لولا أنني شاهدت ماتش الأهلي وسمير محمود عثمان ضد فريق إنبي.

أغنية الأسبوع: منير «فين الولد ما يروح لازم يعود اسمر».

ملاحظة الأسبوع: إدارة المستشفى الألمانية مضى عليها أكثر من أسبوعين وهي تُصرِّح بأن الرئيس سيغادر خلال أيام والرئيس لا يغادر. لقد عاشرت الإدارة الألمانية المصريين فترة كانت كفيلة بتغيير طباعها، حيث بدأت الإدارة تُطلق تصريحات تُشبه تصريحاتنا في أزمة الأنابيب أو أزمة الخبز.

مواجهة الأسبوع: الملط رئيس الجهاز المركزي للمحاسبات يقف في البرلمان ليقول إن الحكومة تسير إلى الخلف، أحمد عز يُكذِّبه بدعم من بطرس غالي، بطرس غالي مشغول في أثناء الجلسة بلعب السوليتير على محموله، السوليتير أول الطريق إلى القمار، ونائب القمار لم يكن ينوي أن يهادي الوزير بجهاز من الـ ٥٥٠ محمولًا المضبوطة معه في المطار، فرفض غالي أن تتصالح الجمارك معه، غالي يعتبر تقارير الملط مغلوطة وقال له نصًّا: «يجب أن نقارن التفاح بالتفاح والبرتقال بالبرتقال». طيب بالنسبة لـ«الكاكا» التي نعيش فيها يا سيادة الوزير؟ الملط نموذج للرجل الشجاع الذي ستستغني عنه الحكومة قريبًا، لكن لا خوف، فإذا رحل الملط فكلنا «ملط» والفضل للفكهانية.

حكمة الأسبوع: يقول ابن القيم: «لما طلب آدم الخلود في الجنة عن طريق الشجرة، عُوقب بالخروج منها.. ولما طلب يوسف الخروج من السجن عن طريق صاحب الرؤيا، لبث فيه بضع سنين»، فليكن طلبك من الله عن طريق الله: «ربنا ياخدهم».

شخصية الأسبوع: مدين أنا باعتذار للمعلِّق الكُروي محمود بكر عن كل جملة بها سخرية بايخة كتبتها عنه يومًا ما؛ لقد أصبح هذا الرجل هو عشقي الأول في مجال التعليق، وأصبحت أتحمَّل الغندور ومصطفى عبده من أجله. كثيرون قلدوا وتأثروا بالرائع ميمي الشربيني، لكن بكر مدرسة خاصة وسكة لوحده سيصعب تقليدها. لا خلاف على خبرته الكُروية وتحليلاته الرائعة التي تقول ما تفكر فيه وتكشف أفكار المدرِّبين، ولكنني أتحدث عن خفة الدم

والذهن الحاضر والتشبيهات الساخرة الذكية. أحبه عندما يقول: «هاهاهاها وجون هاهاها...» على أساس إن الجون حاجة تضحك. أو عندما قال في ماتش للاتحاد: «شادي محمد كان بيلعب في الأهلي وبعدين راح...» فاها ولم يكمل الجملة ولم يقل راح فين، بس الحقيقة إن شادي محمد «راح فعلاً». أو عندما يخاطب المشاهد كأنه زوج أخته: «ولو كنت في البلكونة بتشرب سيجارة ولسه راجع أحب أقول لك إن الأهلي جاب جون والماتش «شيكلة حلو». أو كأن المشاهد ابن بنته، قال قبل ماتش الأهلي: «إللي عنده امتحانات يروح يشوف مستقبله الماتش مش هينفعه». تحية لهذا الرجل الذي يستحق لقب «أحمد فؤاد نجم التعليق الكروي».

دهشة الأسبوع: سألني ابن صديقي: «هيَّ الجنة تحت أقدام كل الأمهات يا عمو؟» فقلت له: «نعم تحت أقدامهن جميعًا» فسألني - وكان صادقًا: «حتى أمنا الغولة؟».

سؤال الأسبوع: سألني قارئ: «في رأيك ما الفارق بين صلاح جاهين وفؤاد حداد؟» تسألني عن اثنين من كبار مُعلمي شعر العامية في مصر، والفارق بينهما أن جاهين في قصائده كان يسأل ولكن فؤاد حداد كان يسأل ويجيب.

تنبيه الأسبوع: سترفع الدولة الدعم عن المولود الثالث في كل عائلة كوسيلة لإجبار الناس على تحديد النسل حسب تصريحات المصيلحي، ولن يحصل الطفل الثالث على أي حصة تموينية (يبقى ياكل مع إخواته)، ولن يتعلم بمصروفات حكومية (يبقى إخواته يذاكروا له)، لكنه بلا شك سيؤدي الخدمة العسكرية وسيدفع الضرائب...إلخ. المولود الثالث.. الحكومة لا تعترف به لكنها ستستخدمه وقت اللزوم.. بالضبط زي جماعة الإخوان المسلمين.

الكثيرون أمامي وهم محقون؛ فهي كتابة على الرغم من أنها أُنجزت في نهاية الستينيات فإنها ما زالت قادرة على استفزاز العقل والمشاعر مع نهاية العقد الأول من الألفية الجديدة.

رسالة الأسبوع: صديق قارئ بلغ به التعاطف مع صاحبة رسالة «فتاة متحرش بها»، التي نُشرت من يومين، أن أرسل إليَّ يطلب المساعدة في الوصول إليها ليتقدم للزواج منها، ربما هو ليس تعاطفًا بقدر ما هو إعجاب بفصاحة الفتاة وقدرتها على رسم علاقتها بالبلد الذي لم تعد تحبه.

جريمة الأسبوع: القبض على نائب القمار في مطار القاهرة وهو يحاول تهريب ٥٥٠ هاتفًا محمولاً. واضح أن الرجل يحاول أن يعوض خسارته، لكن خسارة إيه؟ لقد قال النائب إنه كان ينوي توزيعها كهدايا على أبناء دائرته (نحو نصف مليون جنيه إذا اعتبرنا المكنة الواحدة بألف جنيه على الأقل)، إذن هو لم يخسر شيئًا. صحيح سيفكر كثيرًا قبل أن يتسلل إلى أي صالة قمار ليحقق أرباحًا، لكن صالة البرلمان ما زالت مفتوحة أمامه. عمومًا لقد تم سحب الـ٥٥٠ موبايل الهدية، وقالت له الجمارك: «إحنا هنهادي الناس بمعرفتنا».

رجل الأسبوع: الملازم خالد الحسيني؛ الذي طلب من أحد المواطنين أن يبتعد بسيارته عن سور مستشفى أبو الريش لأنه يقف في المكان الخطأ، فوجد المواطن منهارًا لا يقوى على الحركة لأن ابنه مريض في المستشفى ويحتاج إلى نقل دم، فكان أن ساعده الضابط في تحريك سيارته ثم توجَّه معه إلى غرفة الابن وتبرَّع له بالدم وانصرف قبل أن يتلقَّى كلمة شكر، لكن الأب تعرَّف على بياناته من استمارة البيانات التي حررها الحسيني قبل التبرُّع ثم وجَّه إليه وإلى الداخلية عمومًا خطاب شكر.

تطوُّر الأسبوع: كان مسلسل قتل الأزواج على يد الزوجات ردًّا وتطورًا طبيعيًا لانتشار حوادث الاغتصاب، وجاء مسلسل ضرب التلاميذ وربما قتلهم على يد المدرِّسين ردًّا وتطورًا طبيعيًا لحادثة الكادر.

سوء تفاهم الأسبوع: ارتكبت كزوج خطأ ما، ثم حاولت أن أبرره بأنه قلة خبرة، وقلت لزوجتي: «إن الزوج مثل النبيذ؛ كلما مر على تخزينه وقت طويل صار أكثر جودة» فكان أن خرجت اليوم وأغلقت على العبد لله باب الغرفة من برَّه بالمفتاح.

خبر الأسبوع: الرئيس سيعود بحمد الله سالمًا إلى أرض الوطن خلال أيام. بس محدش قال لنا الوطن نفسه هيعود إمتى؟!

حيرة [illegible]

... الإمام نظرة سريعة على الصف الأول ويقولها بلهجة من يؤدي ... «استقيموا يرحمكم الله» فيلتفت المصلون يمينًا ويسارًا وهم يلوحون ... ليأخذ خطوة إلى الأمام ويطالبون المتقدم من ذراعه بنصف خطوة إلى ... حتى يستقيم الصف.

... رد فعل المصلين على هذه الجملة في كل مرة وأدعو الله أن يفهموا ... الحقيقي منها: «استقيموا في حياتكم حتى يرحمكم الله، لا تتشنجوا ... حرصًا على استقامة صف المصلين ثم تنسوا الاستقامة فور أن تغادروا ... قد يغفر الله اعوجاجًا خفيفًا في اصطفافكم للصلاة، لكنه لن يمنحكم ... إلا إذا استقمتم في حياتكم».

... نظرية «امش عدل يحتار عدوك فيك»، وللإنسان عدو واحد: ... وإذا استقمت ستحتار فيك نفسك ولن تهزمك، وتسلم من ... وساوسها وشرورها وتنغيصها وهذه هي الرحمة بعينها.

... يعني إيه؟

... يعني «امش عدل يرحمك الله» أو «استقيم يحتار عدوك فيك».

Weekend

لا أعرف ما الذي يمنعني من أن أبدأ مقالي بـ«بسم الله»؛ ربما خوفي منك يا صديقي، فربما كنت ترى أن المكان اللائق لمطالعة مقالي هو الحمَّام. آن الأوان أن تُقلع عن هذه العادة الرديئة، وأن تحترم مقالي قليلًا لأنه «بسم الله» نبدأ فقرتنا بحكمة الأسبوع: يقول «روبرت فروست»: «إن البنك هو مكان يقرضك مظلة عندما يكون الطقس معتدلًا ويطلب منك استعادتها عندما تمطر».

معلومة الأسبوع: التمساح هو الكائن الوحيد الذي يُحرِّك فكه العلوي ليأكل، أما الأسد فهو الكائن الوحيد الذي «يحلِّي» ثم «يحدِّق»؛ فهو يتناول فريسته ثم يتجه إلى أكثر مصادر الماء ملوحة من حوله فيلعق طميه المملح ليقضي على الطعم السُّكري الذي خلَّفه دم الفريسة في فمه. الأسد هو الكائن الوحيد الذي يأكل بالطريقة نفسها التي وعدنا الله أن نأكل بها في الجنة؛ راجع الآيات فستجد الفاكهة دومًا مُقدَّمة على اللحوم، فليسامحنا الله إذ إننا لم نلتفت إلى إشارته في الترتيب الذي يجب أن نتناول به طعامنا لأننا غالبًا لدينا اختيار واحد: «يا اللحمة يا الفاكهة».

كتاب الأسبوع: المجموعة القصصية «بالأمس حلمت بك» لبهاء طاهر، لم أقرأها قبل هذا الأسبوع، وربما أكون آخر من قرأها في جيلي، حيث تغنَّى بها

أبو إصبع

لم أكن أتصور أنني عندما أدخل صيدلية «العزبي» بعد منتصف الليل أجد بِرما موجودًا بها، رآني فابتلع حبة ما ثم صافحني، احتضنته بفرحة وسألته عما يفعله في الأجزخانة في هذا الوقت، لكنه سحبني من يدي خارجًا واتجه بي إلى المقهى المقابل وطلب لنا قهوة، قلت له: بتسهرني، فقال لي: ما تبقاش كلاسيكي.

طلب بِرما شيشة تفاح، وبعد أول نفس أعادها إلى الصنايعي؛ لأنها ارقة كنتالوب، ثم سحب سيجارة من علبتي، أشعلها ثم قال لي وكله أسى: يرضيك اللي عمله بركات في ماتش الزمالك؟

قلت له: بصراحة أنا زملكاوي صحيح لكني مسامح بركات؛ لأنه ليس من هذا النوع من اللعيبة التي تشهر إصبعها في وجه المنافسين، هو أرقى كثيرًا وتاريخه يشهد له، صحيح أن بركات ملك الحركات، بس ليس هذا النوع من الحركات. لن أنسى لبركات أنه في أول ماتش يلعبه مع الأهلي ضد الإسماعيلي، ناديه القديم، أحرز هدفًا ثم وضع رأسه في الأرض خجلًا ولم يستجب لتهنئة الزملاء احترامًا لجمهور الإسماعيلي، أعجبني تصرفه ساعتها وكسب احترام الجميع بعدها، ولم يصدر عنه ما يجعل أي جمهور يغضب منه

أو يسبه. أقول لك على حاجة كمان: أنا باحب بركات أكتر من أبو تريكة بركات أكبر سنًا وأكثر تعرضًا للإصابات، لكنه أكثر ثباتًا في أدائه، وكمان أخف دمًا بملامحه التي تُشبه الملحن العفريت منير مراد. وبعدين برضه بلاش مجلس إدارة الزمالك على قدهم؛ يعني يوم ما يحبوا يغلّسوا على الأهلي يختاروا اللاعب الغلط، عارف لو كانوا اشتكوا حسام عاشور ولّا إينو ولّا أحمد حسن كنت أقول لك ماشي، لكنهم اختاروا لاعبًا يحبه الزملكاوية ويحترمونه لأنه موهوب بالفعل. ستقول لي ولكن جمهور الأهلي لا يحترم الزملكاوي الموهوب مثل شيكا"مثلًا، سأقول لك إن الأهلاوية اللي بيفهموا بيحبوا شيكا ويحترموه وبيحلموا إنه يلعب في الأهلي، لقد قالها لي صديقي الأهلاوي المتعصب في الماتش الأخير، بعد أن لَمّ شيكا الكرة ولعبها عرضية لجعفر محرزًا الهدف الأول، قال لي بنرفزة: «يا أخي شيكا ده..» فقلت له: «إممم.. ماله؟» فقال لي: «ما اعرفش رجله طويلة كده ازاي». وبعدين بركات الجميع يعلم أنه مشجع قديم للزمالك، وعنده مشكلة في أعصاب أصابع يده، وعندما يفرح أو يغضبْ تصبح أصابعه مفرطة في وجه الجميع مثل بلح الشام، وانت ونصيبك بأه في الصباع اللي ييجي في وشك، وأنا مسامحه حتى لو قضى مدحت شلبي الليل كله يعيد ويزيد في اللقطة عشان يورينا صباعه، وسيديهات رايحة وسيديهات جاية ولجنة طوارئ، ومحدش فكّر إن لعّيب زيّ بركات مستحيل عقله يطاوعه في أن يختم تاريخه بحركة من هذه النوعية. وبعدين بركات هو أكثر لعّيب أضحكني في هذا الماتش؛ في البداية شاط أحمد غانم الكرة في وجهه وأظلمت الدنيا في عينَي بركات، ورأيناه وهو غير قادر على أن يفتح عينيه، وعمل لنا فيها الشيخ حسني (مش شايف مش شايف أنا اتعميت) وبعدين راح مثبت الـ ٨٠ مليون. وأضحكني في الهدف أيضًا؛ لأنه لم يستخلص الكرة من أحد مدافعي الزمالك ولكنه جرى على عماد متعب واستخلصها منه

بمهارة وكأنه يقول له: «إنت لسه هتتمطع وتلف حوالين نفسك.. إوعى»، استخلصها بمهارة وعمل عملته.

ظل برما يستمع إليّ بهدوء دون أن يقاطعني ثم قال لي: إنت عمّال تتكلم تتكلم ومش فاهم قصدي. سألته عن قصده فقال: قصدي يرضيك اللي عمله بركات إنه يغلّس على الزملكاوية ويسرق فرحتهم.. دي حاجة في منتهى البواخة منه بصراحة. قلت له: لم يحدث أن سرق فرحتنا إطلاقًا، ولعلمك أنا باعتبر إن الزمالك فاز على الأهلي ٣-٣ في هذه المباراة، الزمالك لا يلعب من أجل البطولات ومحبتنا له لا تتأثر بهذه المكاسب الدنيوية، نحن نشجّع الزمالك بنظرية حسين فهمي في فيلم «مافيا»: «إنت ما بتحبش أمك عشان هيّ أحسن واحدة في العالم».

قلتها، فما كان من برما إلا أن قال لي: «... أمك» وهو يشير إليّ بإصبعه. استطعت في هذه اللحظة أن أصوره بكاميرا الموبايل وسأحمّل الكليب على اليوتيوب تحت عنوان «برما بيصبّع لعمر طاهر»، وأتوقع أن يعاقبه «بيل جيتس» بإغلاق حسابه على الفيس بوك حتى نهاية موسم التزاوج.

قال لي برما: هل تعرف معنى الإشارة بهذا الإصبع؟ فقلت له: الموروث الشعبي يقول إنها حركة قبيحة لا تصدر إلا عن عيّل سيس أو عن إبراهيم سعيد، فقال لي: زمان كان الملك يجلس ويدخل عليه العامة حاملين الشكوى، هذه الجلسة كان يحضرها سيّاف الملك، إذا كان الشاكي محقًّا في شكوته ويمتلك دليلًا ويقدمه بأدب واحترام لمجلس الملك كان الملك يحلها له ويجزل له العطاء، أما إذا كان الشاكي قليل الأدب أو أحمق أو متجنيًا يشير الملك بإصبعه إلى السياف فيقطع رقبته، أول مَن طبّق هذا القانون هو الحاكم بأمر الله، ويُقال إنه كان مصابًا بالروماتيزم في عظام الجسم، وعندما كان يشير إلى

السئاف لم يكن يقوى على تحريك أي إصبع سوى الأوسط، وهكذا أصبح الإصبع الأوسط علامة على الغضب وعلامة على أن من يوجَّه إليه سوف يتعرض للنفخ.»

قلت لبرما: إذا كنت الحاكم بأمر الله وهبطت في زمننا هذا فإلى من ستُوجه إصبعك الأوسط؟ فقال لي: الرصّة التي يمكن أن تقرأها في أي مقال من مقالات إبراهيم عيسى (الفساد والتلوث والتعليم والقهر والديكتاتورية والتزوير والرشوة والخنوع والأمراض والاستهتار... لولولولولوي). قلت له: دا انت شايل قوي من البلد، فقال لي: لم يلاحظ أحد أن إبراهيم باشا يجلس فوق حصانه في ميدان الأوبرا منذ سنوات وهو شاهر إصبعه في وجه البلد كله لدرجة إنهم سمُّوه تمثال أبو إصبع، ولا حد اتكسف ولا حد حس على دمه كل ما واحد يعدي عليه يفتكره عامل صباعه لحد تاني، إبراهيم باشا قال كلمته من زمان وخلدها بالحجر وبالحجم الطبيعي في مركز البلد لكن بلا فائدة، أنا الوحيد الذي كلما مر به نظر إليه قائلًا: «عندك حق».

أمسك برما بعلبة سجائري ليسحب واحدة أخرى فوجدها انتهت فأشهر إصبعه في وجهي مرة أخرى، كاد يخترق عيني، لكنني تفاديته بمهارة. قام برما وكله غضب وأشار إلى تاكسي قائلًا: «الشيشيني؟» زكب ثم اختفى. حاسبت القهوجي ثم توجهت إلى الأجزخانة وسألت الدكتور عن نوع الدواء الذي اشتراه الرجل الذي صافحته واحتضنته أمامه قبل قليل، فنظر إليَّ الدكتور باستغراب قائلًا: «دي أول مرة أشوف حضرتك في حياتي».

خيرُ مَن يُمثلكم

لو كان الأمر بيدي لاختزلت مجلس الشعب في ٣٠ حلقة كوميدي وبعتها لقناة «موجة»، ربما يعرضونها كجزء سادس من برنامجهم الهزلي «توك شو»؛ في حياة البرلمانيين طرائف وهذه الطرائف نابعة من سخافة المواقف، وإن كنت للحق الموضوع كله إهانة للشعب، فالأعضاء هم مندوبوه، وزمان قالوا تعرف الشخص من مِرساله، والمرسال يدل على المُلك، ونحن شعب ملك ولكنه ملك المانجو الموجود أسفل كوبري غمرة، والنتيجة أن مراسلينا يعيشون في «الفخفخينا» بينما الشعب نفسه يحاول بل ريقه بـ«عصير الزلط». فلِمَ تلومون البرلمانيين وهم مجرد مراسيل؟ بعضهم اخترناه بمحض إرادتنا والباقي اختاروه بالنيابة عنا. أما مَن اخترناهم بمحض إرادتنا فقد اخترنا معظمهم بمحض الجهل، في الصعيد اخترنا المراسيل من منطلق القبلية والعصبية، الانتخابات في الصعيد شكل من أشكال الثأر، تُدار المعركة بنظرية لا يصح أن ينجح ابن عائلة فلان ويسقط ابن عائلتنا، الصعيد نفسه بكل كبرياءه وشموخه يقف ذليلًا أمام مناديب الحزب الحاكم، طمعًا في الحصول على دعم يقصّر المسافات. أما الفلاحين فقد توارى معظمهم أمام طموح الوزراء وقيادات الحزب ورجال الشُّرطة السابقين في الحصول على المقعد.

هل سمعتني أتحدث عن برامج عمل؟ هل سمعتني أتحدث عن فكر سياسي؟ هل سمعتني أذكر كلمة مثقفين في الموضوع؟ هل تعرف شعارًا غير «خير مَن يُمثلكم»؟ إنها إهانة لا يجب أن تسكت عنها عندما ترى رجلًا أنت تعرف كل أبعاده يقول بجرأة يُحسد عليها إنه خير مَن يُمثلك، كيف ترضاها على نفسك؟ لقد وافقنا على مبدأ نسبة ٥٠٪ عمال وفلاحين دون أن نفكر فيها أو نُحسن استغلالها، فكانت النتيجة أن ٥٠٪ من العمال والفلاحين بدلًا من دخول البرلمان أصبحوا ينامون على رصيفه في انتظار نظرة رضا للحصول على الحد الأدنى من الحياة الكريمة. راهنًا على الأثرياء وقلنا إنهم لن يتخذوا المنصب كتجارة: تأشيرة وظيفة هنا بكام ألف، وعقد عمل هنا بكام ألف، وقرار علاج على نفقة الدولة بكام ألف. قلنا الأثرياء لن يأخذوها سبُوبة، أتاري طموحهم أكبر من التفاهات السابق ذكرها؛ فالصفقات مداها أوسع: عبّارة مُتهالكة تشق بحرًا من الدم الفاسد، ومنضدة قمار في ملهى تغني فيه مطربة مقتولة، ومكسب بيع أراضي الدولة ينفقه المحامون لتبرئة المتهم. راهن البعض على ضبط المنظومة برجال يرفعون لواء الدين فصار البرلمان ثاني أشهر ساحات سب الدين في مصر بعد استاد القاهرة. وفي زمن العولمة والقرية الذكية وثورة التكنولوجيا أستعير جملة نشوى مصطفى في فيلم «اللمبي»: «أكاد أجزم إن مفيش ولا واحد منهم عنده إيميل أدريس ولا أيس كيو». البرلمان في الألفية الجديدة لم يأخذ من التكنولوجيا سوى السيديهات التي يوزعها الأعضاء بعضهم على بعض محملة بفضائح الزملاء. راهن البعض على كبار العائلات ورجال الشُرطة في أنهم سيصبحون عضمة ناشفة لها سطوة وحضور، لكن معظمهم – مع احترامي الشديد لهم – تحوّلوا إلى عازفي إيقاع يبدؤون في العزف بمجرد إشارة من سليم سحاب البرلمان السيد أمين التنظيم.

ما الذي يشغل المجلس طوال فترة انعقاده؟ أن يرفع الحصانة أو أن يسمح للعضو بالإدلاء بأقواله؟ أن يجبر العضو على الاعتذار أو أن يطرده من الجلسة؟ أن يسحب العضو تصريحاته النارية أو أن يعتدي عليه واحد من نواب الأغلبية أو أن يُحذف كل ما حدث من المضبطة؟ أن يحضر الوزير الاستجواب أو أن تنجح حملة إيقاف الاستجواب؟ أن يهتم بتقارير المستشار الملط أو أن يقلل من أهميتها؟ أن يلعب الوزير «السوليتير» في أثناء الجلسة أو أن يتبادل الأعضاء اللب والمكسرات؟ طيب.. وما الذي يشغل الشعب الذي يُمثله المجلس؟ بركات كان يقصد مين بصباعه؟

الرصاصة لا تزال في جيبه

ظللت طوال ليلة السبت أتنقل بين القنوات بحثًا عن أي فيلم من أفلام أكتوبر. تمنحني هذه الأفلام قدرًا من السعادة لا يمكن الاستهانة به؛ ربما لأنها ارتبطت عندي بمرحلة الطفولة، ربما لأنها ارتبطت بيوم إجازة بكل ما تعنيه الكلمة من راحة نفسية. لذلك كان إحباطي عظيمًا لأنني لم أجد فيلمًا واحدًا على أي محطة.

صباح الأحد استيقظت ووجدت فيلم «أغنية على الممر» في بدايته، فجلست أشاهد الفيلم بإخلاص شديد، لم يمر ببالي أن أجد بطل الفيلم يتصل بي تليفونيًّا، كان الفنان الكبير محمود ياسين أمامي على الشاشة ومعي على الموبايل في الوقت نفسه، عرفت بعد أن قال لي أنا فلان أنه بصدد مناقشتي في مقال أمس عن أفلام أكتوبر، قلت ربما انزعج من ملاحظة ساخرة على ما قدمته السينما المصرية من أفلام عن الحرب، وقد كنت محقًّا.

لكن الفنان الكبير كان كبيرًا حتى في أسلوب نقاشه وفي طريقة عرضه لوجهة نظره، فكانت مكالمته بصفته أهم أبطال أفلام حرب أكتوبر احتفالية تفوق ما كنت أمنّي به نفسي احتفالاً بهذا اليوم. حكى لي الفنان الكبير كيف كان تصوير هذه الأفلام عملاً مرهقًا وضخمًا في الوقت نفسه، تطلّب منه

البقاء على الجبهة أكثر من عام تحت إمارة مخرجين كبار، بينهم مخرجون إيطاليون متخصصون في تنفيذ المعارك. حكى لي عن الجنود الحقيقيين الذين كانوا يتعلّمون منهم كيف دارت الحرب. حكى لي كيف استحال على الممثلين تسلق خط بارليف لتصوير هذا المشهد، على الرغم من أن الجندي العادي كان يتسلقه في ثوانٍ أمامهم ليُعلّمهم الأمر. حكى لي عن رفقة أسماء كبيرة من لواءات الجيش كانت توجههم وتُعدل عليهم في أثناء العمل ودقة اهتمامهم بالتفاصيل. كانت قصصه ممتعة ومشرفة بشكل جعلني أراجع نفسي فيما كتبته، وأسأله إن كان صادف في المقال ما قد يفسد فخره بهذا الإنجاز، فرفض بكل أدب أن يُعلّق على ما ضايقه وإن كان باديًا أنه يرى أن هذه الأفلام ربما من الظلم أن يتم النظر إليها بعين ساخرة. قال لي إن اللقطات التي تم تصويرها مثلاً في «الرصاصة لا تزال في جيبي» هي اللقطات المستخدمة من يومها وحتى الآن في صناعة كل الكليبات والأغنيات الوطنية والتقارير ونشرات الأخبار والأفلام التسجيلية. قال إن جيله كان مخلصًا لهذه الأعمال دون توجيه من أحد أو أي تكليف من جهة ما، وإن جيله فخور بها، ثم سألني ضاحكًا: «إنتو بأه عملتوا إيه؟» وهنا سيطر عليّ الصمت قبل أن أقول لنفسي وكلي خجل: «عملنا... يوم الكرامة».

ظللت ليلة كاملة أبحث عن فيلم من أفلام أكتوبر، فقضيت ساعة مع بطل معظم هذه الأفلام في حوار لم يكن ينقصه شيء سوى موسيقى عمر خورشيد التصويرية، فشكرًا لهذا الفنان الذي نفخر به جميعًا، وتحية لحسن تقبله لوجهة نظري ولروحه الطيبة المرحة وملاحظته الذكية التي جعلتني أضحك ملء قلبي عندما قال: «وبعدين إنت قلت إني اشتركت في ست أفلام عن الحرب وما حصلّيش أي إصابة... إيه رأيك بأه إنهم في فيلم «الوفاء العظيم» قطعوا لي رجلي!».

سِلّم «الطوارئ»

(١)

في كل مول أو سنتر أو مستشفى أو فندق، ستجد دائمًا سلمًا مكتوبًا عليه «سِلّم الطوارئ» أو باب للطوارئ، ستجد دائمًا مخرجًا يحميك في حالة الطوارئ، لكن مصر هي المكان الوحيد الذي يوجد فيه طوارئ دون أن يكون هناك أي مخرج.

(٢)

من الثابت تاريخيًا أن حالات الطوارئ تُوحِّد الصفوف وتُقرِّب بين الناس، مثل الحرب أو الكوارث الطبيعية، المشكلة التي تطول الناس كلها تمنحهم قدرًا ما من النضج والتفهُّم.

أفهم أن الطوارئ تكون مقبولة بعقوباتها وحِدّتها إذا طُبقت على مياه النيل التي على وشك أن تضيع منا، سنتقبل الحزم في معاملة مَن يهدرون الماء في أمور تافهة مثل رَي ملاعب الجولف، أو مَن يلوثون المتاح لنا مثل المصانع التي تصب مخلفاتها أمام الجميع عبر مواسير ضخمة في منتصف النهر تمامًا.

أفهم أن يكون هناك طوارئ في مجال الكهرباء؛ لأننا نواجه مشكلة ما، لقد ـت – مثلًا – بالنداء الذي وجّهه وزير الكهرباء إلى الناس بتخفيف أحمال ـهرباء المنزلية ساعتين يوميًا بعد المغرب (التكييفات والغسالات وخلافه) لا نجد أنفسنا فجأة في ظلام دامس بعد أن انقطعت الكهرباء عن القاهرة ضواحيها عدة مرات في يوم واحد خلال الأسبوع الماضي.

أفهم أن نحاكم المحافظ الذي يترك المصابيح العامة وأعمدة الإنارة ـاءة طوال النهار.

لكني لا أفهم أن نعيش كلنا مُهدَّدين ومُعرَّضين لمن يجيد لَيّ عنق القانون ليطبق علينا قانون الطوارئ ولو في صورته الجديدة، «الإرهاب والمخدرات»، لأن الطوارئ التي نعيش فيها وتخنقنا منذ ثلاثين عامًا لم تمنع الإرهاب ولا المخدرات. المفاجأة أن الطوارئ التي هرستنا واحدة من أهم الأسباب التي قادتنا إليها.

(٣)

الحكومة في تمسُّكها بقانون الطوارئ تُذكرني بتوفيق الدقن عندما عثر على طاقية الإخفا فحقق بها كل أحلامه، الحكومة لبست لنا طاقية الإخفا وهي لا تملك أي وسيلة أخرى لفرض سيطرتها وتحقيق أحلامها. بس احنا السبب، نحن «عبد المنعم إبراهيم» الرجل الطيب الذي ترك طاقية الإخفا تضيع من يده لتُصبح بين يدي مَن لا يستحق. نتساهل أن تطلعلنا الحكومة كل شوية وتنهال علينا «تلطيش» وهي تسألنا: العلبة دي فيها إيه؟

كيف تُصبح مسؤولًا حكوميًا ناجحًا؟

هناك مواصفات للمسؤول الحكومي الناجح، وأعني هنا الناجح بمقاييس الحكومة نفسها، وهو المسؤول القادر على كسب الود والرضا، وصاحب القدرة على الوصول إلى موقعه في أقصر وقت ممكن والاستمرار فيه أطول وقت متاح.

١- أن يكون شخصًا «جلده تخين»، لا يتأثر بالنقد أو الهجوم أو الفضائح، لا يهتز لوجود صحفي يطارده بالوثائق والمستندات ليكشف جهله أو فساده، ولا يحرك ساكنًا للمانشيتات تتحدث عن كوارث تسبَّب فيها، ولا يفكر مثلًا في الاعتراف بخطئه أو لا قدر الله في الاستقالة بسبب مسؤوليته عن أزمة ما.

٢- يُفضَّل أن يكون شخصية عامة مكروهة قدر الإمكان.

٣- لا يُشترط أن يتولَّى موقعًا يطابق دراسته أو تخصصه العلمي أو المهني؛ من الممكن أن يكون مسؤولًا في هيئة البريد ثم يتولَّى مسؤولية وزارة النقل، أو خريج هندسة فيتولَّى رئاسة جهاز الشباب، أو لواء سابقًا فيتولَّى مسؤولية هيئة الكتاب. يجب أن يمتلك القدرة على أن يجعل نفسه مقنعًا

في مكانه الجديد، ويُستثنى من القاعدة السابقة «المواقع البوليسية والطبية والقضائية».

٤- ضبط النفس.. يجب ألَّا ينساق خلف عواطفه، تحديدًا فيما يتعلق بشؤون المظاليم والمعتصمين أصحاب الحقوق الضائعة. يجب ألَّا يتورَّط في التعاطف معهم وبحث شكاواهم حتى لا تصبح قاعدة. لا بد أن يعرف جيدًا أنه «لو كل واحد ليه حق ضايع وهيرجع بالاعتصام يبقى نغيَّر لقب مصر من أم الدنيا إلى أم اعتصام... خدي يا بت يا اعتصام».

٥- يجب أن يمتلك الجرأة على الحلاقة والتنفيض لمجلس الشعب عندما يطلب استجوابه، وأن يكون شجاعًا بدرجة كافية تجعله يوم الاستجواب يقفل موبايله ويدي مكتبه إجازة.

٦- يجب أن يمتلك موهبة «التبرير»؛ فيكون قادرًا في أي لحظة يتزنق فيها في برنامج تلفزيوني أو حوار صحفي على تبرير المشكلة أو الكارثة بشكل يبدو مقنعًا.

٧- يجب ألَّا يكون قد مارس السياسة في أي مرحلة من حياته، لا يمتلك أي سوابق في التمرُّد، ويُفضَّل أن يكون عاشقًا للروتين ويمتلك مهارة تعطيل المراكب السايرة بالقانون.

٨- يجب أن يمتلك مهارة إعطاء تأشيرات مضروبة لا تُسمن ولا تُغني من جوع ولا تحل ولا تربط، خصوصًا إذا كانت التأشيرات لخدمة أعضاء البرلمان، تأشيرات بوشين يتم تدريسها كنموذج لفكرة الخداع البصري.

٩- يجيد إعطاء وعود برَّاقة لحل المشكلات، بشرط أن تكون الوعود مرتبطة بمُهلة زمنية تكفي لأن ينسى المتابعون الأمر برمَّته.

١٠- البجاحة.. وتتمثل في القدرة على إلقاء المسؤولية على الآخرين، سواء كانوا (الآخرين) هم الشعب أو المسؤولين السابقين أو ظروف البلد الاقتصادية أو ارتفاع أسعار البترول أو الأزمة العالمية، أو أن الموضوع أصلًا لا يقع في نطاق اختصاصاته؛ لأن الجميع يعلمون أن الدفس من اختصاص الدفاس وأبو دهشوم.

١١- أن تكون لديه هواية تشكيل اللجان.

١٢- من المهم أن يكون رجلًا شيكًا، يظهر دائمًا بالبدلة الكاملة ورابطة العنق (أوباما وهو رئيس أمريكا وليس وزيرًا، يظهر معظم الوقت بالبنطلون والقميص لأنه زي عملي بتاع شغل... بينما تشعر أن معظم المسؤولين نازلين من بيتهم رايحين يتصوروا بالبدلة والشعر المصبوغ والنضارة الشيك).

١٣- أن يكون صاحب مهارة لغوية تجعله يضع في قلب تصريحاته أحدث مصطلحات الحكومة؛ فإذا كانت الموضة مصطلح الشفافية عليه أن يجد طريقة لاستخدامه حتى لو كان يتحدث عن مد مواسير الصرف الصحي.

١٤- يجب أن يتحدث دائمًا بمناسبة ودون مناسبة عن المواطن «البسيط»، وألّا يلتفت أبدًا إلى المواطن «المعقد».

١٥- أن يكون «عارف حدوده كويس» ويلتزم بها؛ فلا مجال لقرارات عنترية قد يتفتق عنها ذهنه. لا بد أن يعي تمامًا أن «كله بتوجيهات السيد الرئيس».

برما في الكمين

سألت برما عن رأيه فيما جرى في حزب الوفد فقال لي: أن يحدث تداول سلمي وشرعي للسلطة على يد السيد البدوي فهذا يعني أن الأمر يحتاج إلى «ولي»، ثم أخذ يصرخ: مدد يا شيخ العرب مدد. قلت له: «دول اتنين غير بعض»، فقال لي: احذر الخوض في المشايخ يا عمر.

هدأ برما قليلًا ثم قال: كنت ممتعضًا من الذين هرعوا لينضموا إلى البرادعي في فيلته، لكنني سرعان ما شعرت بالارتياح عندما هرع النواب المستقلون إلى الانضمام إلى «الوفد» في ثوبه الجديد، هكذا أصبح للأمور طعم مقبول، صحيح أن الحزب الوطني والإخوان يستفردان بالوليمة الموجودة فوق ترابيزة السفرة، لكنني أرى الآن «الوفد» والبرادعي برفاقه ينشران أرجل الترابيزة، وهو شيء مُبشِّر حتى لو كانت عملية النشر لا تتم بمناشير كهربائية، ولكن بأمواس الحلاقة.. المسألة مجرد وقت.

ثم سألني: تعرف حد في الداخلية؟ فقلت له: أعرف حبيب العادلي، فسألني إن كان ليَّ كلام معاه، فقلت له: عادة أنا لا أتكلم إلا في وجود المحامي بتاعي. ثم سألته إن كان عنده شكوى، فقال: بحكم إني رجل شوارعي وأعود إلى بيتي متأخرًا لاحظت أن الجيل الجديد من الضباط لم يتخلّص من أخلاق

شلة النادي. سألته: إزاي؟ فقال: لاحظت في أكثر من كمين ضابطًا صغيرًا وعلى بُعد خطوتين سيارة فيها شلة شباب من نفس عمر الضابط يقفون حولها يدخنون ويستمعون إلى الموسيقى القادمة منها، واضح أنهم أصحاب الضابط وموجودون معه في مكان عمله علشان يونسوه. لقد أصبح الكمين خروجة للشلة اللي فيها واحد ضابط. سيبك من المظهر الحضاري، سيبك من احتياج ضابط إلى أن يستعرض عضلاته أمام الشلة، لكن فكر في أن تتدخل الشلة في عمل صديقهم بأي طريقة (مثلًا وقّف لنا العربية اللي فيها البنت الأمورة دي.. وقّف لنا سواق النُّص نقل ده نشتغله شوية). لم نسمع عن حوادث مشابهة وربما حدثت ولم نسمع عنها. في كل الأحوال كنت أود أن أنقل الصورة إلى أي حد في الداخلية لأن علاقة الشعب بالشُّرطة مش ناقصة.

قلت لبِرما: زمان كانت الشُّرطة في خدمة الشعب دلوقتي «إللي مالوش خير في حاتم مالوش خير في مصر». ثم سألته: السينما بوّظت دماغي صح؟ فقال لي: بالعكس.. دماغك هيَّ اللي هتبوظ السينما.

ضحكنا ثم نظر بِرما إلى ساعته قائلًا: أعرف أن حوارنا هذه المرة كان قصيرًا على غير العادة، لكن هاستأذن أنا.. مضطر أسافر علشان ألحق جنازة ابن خالتي. قلت له: البقاء لله.. إيه اللي حصل؟ قال لي: كانت لديه مشكلة في عينيه ودخل «قصر العيني» لإجراء عملية جراحية، ولكن يبدو أن العملية أثرت على مخه. سألته: إزاي؟ فقال: بعد العملية بيومين نزل يشتري عيش ولم يلاحظ حفرة كبيرة لتركيب مواسير الصرف الصحي في الشارع فسقط في تلك الحفرة المظلمة. الناس اتلمت وألقت له حبلًا طويلًا ثم بدأت تشد بقوة لتسحبه، واشترك ناس كثيرون في عملية الشد إلى أن أخرجوه من الحفرة، لكن المشكلة إنه كان رابط الحبل جوالين رقبته!

برما في التراك

كنا نجري في تراك النادي، وفجأة سألت بِرما: من إمتى وانت بتلعب رياضة؟ فقال لي: أنا كمواطن مصري أصيل أمارس الرياضة طوال الوقت، لعبت قفز الحواجز عند التزويغ من المدرسة، أمارس الجري خلف المواصلات العامة، وأشارك طوال الوقت في ماراثون أكل العيش، أمارس تمارين التنفس التي توسع الصدر في أي مصلحة حكومية، وأمارس رياضة المصارعة طوال الوقت من أجل الحصول على أبسط حقوقي كمواطن، ألعب الباليه المائي عندما تطفح المجاري في شارعنا، وأمارس الرياضة اليومية التي يمارسها كل رجل مصري مع زوجته. ضحكت لكن ضحكتي لم تُعجب بِرما فقال: ما تخليش خيالك يروح بعيد أنا كان قصدي الملاكمة.

سألته: مَن تُفضِّل من اللاعبين المستمرين في الملاعب على الرغم من تجاوزهم العُمر الافتراضي للاعب الكرة؟ فقال لي: كويس إنك فتحت الموضوع، لعلمك الجون اللي دخل في عصام الحضري في ماتش الكأس هو أولى بوادر عامل السن، وكذلك عصبية أحمد حسن داخل وخارج الملعب، والموضوع ليس له علاقة بمسألة اللياقة، لكن له علاقة بشعور في العقل الباطن للاعب الذي تجاوز الخامسة والثلاثين بأنه بقى بيلعب مع العيال.

التقط أنفاسه ثم قال: تخيَّل، أنا عندي مشكلة من نوع آخر مع أبو تريكة؛ مشكلتي أنني أنظر إلى أبو تريكة نظرة أكبر من مجرد لاعب كرة، لذلك لم أعد أستسيغ بسهولة الآن أن أراه بالشورت والفانلة يجري خلف الكرة. أصبح للرجل في قلبي مكانة تليق برجل قانون شريف أو داعية إسلامي مُتحضِّر أو برلماني وطني، لذلك أصبحت أستوعب بصعوبة بالغة مشهده وهو يجري فرحًا لأنه جاب جون، حاسِس إنه كبر على الموضوع ده، مش سنًّا ولكن مقامًا، إنت فاهم حاجة؟

«فاهم يا سيدي»، قلتها لبِرما وأنا التقط أنفاسي بصعوبة بعد لفة التراك الخامسة، ثم سألته: ما رأيك في مشكلة جدو؟ فقال: أزمة جدو أثبتت أن روح «الفوريجية» هي المسيطرة على سلوك قادة الرياضة في مصر، عندك مثلًا الطريقة التي تعاقد بها التوأم مع جدو سرًّا طريقة تليق بتجار عربيات مستعملة؛ وصل أمانة وشيكات على بياض واجتماعات سرية في المقاهي، أما رئيس نادي الاتحاد فقد استلم جدو بعد عودته من أنجولا وأخذ يلف به على المحطات الفضائية وحفلات التكريم وندوات الليونز والروتاري، بنفس الطريقة التي يحشر بها أي شخص نفسه في الكادر حتى يظهر في الصورة مع النجم، أصبح جدو شغلانته التي تجلب له الشعبية والظهور الإعلامي وبعض الأموال، وتعامل مع جدو على أنه الدجاجة التي تبيض له ذهبًا، مع أن جدو لا يبيض ذهبًا إلا في عشة حسن شحاتة، فيما عدا ذلك فهو يبيض على جمهور الاتحاد. أما بتوع الأهلي فقد قدموا درسًا في كيفية الصيد في «الميه العِكرة» بدخولهم كطرف في صفقة مكركبة، بحجة أن الانتقال إلى الأهلي هو رغبة اللاعب، على أساس أنه مضى وصل أمانة للتوأم بعدما استدرجوه إلى إحدى الزراعات المجهولة وتناوبوا الاعتداء عليه. كل جهة تُفكر في مصلحتها ولا أحد يفكر في الضغط النفسي الذي جعل اللاعب يفلس تهديفيًّا خلال الشهور الماضية... فاهمني؟

«يا عم فاهم»، قلتها لبِرما بعد أن جلست على الأرض في منتصف التراك، جلس إلى جواري واستلقى على ظهره ونظر إلى السماء وراح في نوبة صمت. سألته: ما لك؟ فقال: تفتكر كان أهلاوي ولّا زملكاوي؟ فقلت له: قصدك مين؟ فقال: خالد سعيد. قلت له: آدينا مستنيين تقرير الطبيب الشرعي.

شبابيك محمد منير

كان محمد منير لغزًا كبيرًا في بداية معرفتي به... البداية كانت من طرف عمي الذي كان يعيش في الكويت. كانت العادة وقتها أن يُرسل المغتربون إلى ذويهم شرائط كاسيت بأصواتهم يتحدثون فيها من طرف واحد عما يحدث معهم وعن أخبارهم وأحلامهم ومشكلاتهم وافتقادهم إلى الأقارب الذين يذكرونهم بالاسم واحدًا واحدًا. امتلأت البيوت المصرية خصوصًا في الأقاليم منتصف الثمانينيات بشرائط كاسيت ماركة «تي دي كي» أو «باسف» أو «أمير» محملة بأصوات المغتربين وهمهمات أطفالهم الصغار بالقرب منهم في أثناء تسجيل هذه الشرائط.

وصل واحد منهم إلى أهلي بعد وفاة جدي... في فترة الظهيرة دخلت البيت وعرفت صوت عمي القادم من الكاسيت الفيليبس الموجود في غرفتي، دخلت إلى الغرفة فرأيت دموع أبي تنهمر، فيما يبدو أن حديث عمي أثار شجون أبي. لم أفهم الموضوع واحترمت دموعًا كانت المرة الأولى والأخيرة التي أراها فيها، وخرجت من غرفتي.

بعد عودتي من ماتش كرة قبل الفجر، حيث كانت عادة أبناء الأقاليم صيف، كان الجميع نائمين، بحثت عن الشريط وكل ما أحلم به هو أن

أعرف ما قاله عمي وأسال دموع أبي. كان لديَّ فضول أن أعرف ما الذي يُبكي الكبار. وجدت الشريط ووضعته في الكاسيت في ليلة أذكر جيدًا أنها لم تكن حارة، بل كان بها نسمة هواء تلمس القلب. لم أعرف أيها الوجه الأول. وضعت الشريط واستمعت قليلًا. كان عمي يبلغ سلاماته في نهاية رسالته. وما إن أنهى عمي حديثه بالدعوات وبـ«لا إله إلا الله» حتى سادت ثوانٍ من الصمت ثم تلتها موسيقى. قبل أن أنقل على الوجه الآخر وأجيب الشريط من أوله خطفتني الموسيقى، كانت غريبة ومُبهجة، كانت الأغنية تقول «شبابيك الدنيا كلها شبابيك». كانت الكلمات صادمة، خصوصًا مع بداية تباشير الصباح الذي جعل الدنيا كلها - من البلكونة - فعلًا شبابيك.

كان الجو آخذًا في التحسُّن على خلفية الزقزقة الجماعية للعصافير فوق الشجرة المقابلة للمنزل، وكان منير مستمرًا في الحكي عن الشبابيك، وعن عُمره الذي سرقته من أحزانه. كانت مشاعري في هذه اللحظات مركبة بالنسبة إلى طفل يسمع كلامًا يدعوه للتفكير، وموسيقى تدعوه لاكتشاف متعة التأمل الهادئ.

دفعني الفضول لمعرفة حقيقة هذا الشريط، وقبل أن أُخرجه من الكاسيت كان منير يدعوني لاكتشاف آخر؛ وهو أن الكون كله بيدور وأن هناك بشرًا لا أعرفهم لكنني أكاد أراهم: «على جسر الليل ماشيين وقمر لياليهم حكاية». كانت الموسيقى مُبهجة وراقصة، فرقصت لاإراديًا رقص الفلاسفة؛ حيث لا توافق عضليًا عصبيًا على الإطلاق. شعرت بنشوة أقوى من التي شعرت بها عند وصولي إلى مرحلة البلوغ، نشوة جعلتني أنسى الهدف الرئيسي من تشغيل الشريط، الشريط الذي انتهى فجأة قبل أن تنتهي أغنية «الكون كله بيدور»، وتركني أشعر بجنون ما يشتعل في عقلي ومشاعري..

جنون جعلني أُعيدُ الأغنية الأولى وزميلتها الأغنية إلا ربع عدة مرات، وا
أشعر كأنني اكتشفت عالمًا سريًا اسمه محمد منير، عالمًا لن أخبر عنه أصدقائ
وأعود إليه كل ليلة لأحصل على تلك المشاعر مرة أخرى.

على أحد جانبي الشريط كانت هناك شخبطة قوية فوق كلمات مطبوعة
استطعت أن أميز من بين الشخبطة كلمة شبابيك. فهمت فيما بعد أن هذا
الشريط كان مسجلًا عليه ألبوم «شبابيك» (نسخة مضروبة)، ويبدو أن عمي
تحت وطأة الموقف وربما الاستعجال سحب أي شريط وسجَّل عليه رسالته
التي لم تملأ الشريط كله، رسالته التي عزفتني على محمد منير الذي لا يحبه
أبي.

عندما صارحت أبي بأن سبب عدم محبته له ربما يكون مرتبطًا في عقله
الباطن برسالة عمي التي أبكته. قال لي: «يمكن!» وصمت، ثم سألني
بفضول خفي: «هوَّ الشريط ده لسه عندك؟».

الحواوشي

يا ويلك إذا كنت صاحب عمود يومي وطلع عليك النهار وأنت لا تمتلك فكرة للمقال الجديد، ويا ويلك ٥٠٠ مرة إذا طلع عليك النهار وأنت تمتلك عشرين فكرة تتصارع في خلايا مخك. من هنا ظهر الحواوشي.

حياة الفنان الشخصية ملك له، لكنني لا أستطيع إلا أن أعبر عن شعوري كمستمع بتراجع اختيارات أنغام الغنائية بعد انفصالها عن الموزِّع الموسيقي فهد؛ إنه ربط لن يُغير شيئًا، لكنه يدعوك إلى الاستماع مجددًا إلى ألبوم «عمري معاك»، الذي لن يتكرر في حياة الاثنين. ستجده على النت، إذا قررت أن تدخل على النت بعد المقال أرجوك لا تتورط في فحص الإيميلات التي تصلك من جهات مجهولة، وإذا تفحصتها لا تصدقها وإلا ستجد نفسك مضطرًا إلى إرسال إيميل بعينه إلى ٦٠ صديقًا حتى تدخل الجنة أو حتى تتحاشى مصيبة ستحل بك خلال أيام قليلة، مثل أن يهاجمك اثنان مخبران وأنت في أثناء السير، أو قد تجد نفسك ضحية عملية نصب من مدير بنك «أوف نيجيريا» الذي يعرض عليك تحويل مليوني دولار لحسابك مقابل ٢٠٠٠ دولار مصاريف الشحن، أو ستجد نفسك مضطرًا إلى الامتناع عن شرب المياه الغازية التي تُفضِّلها بسبب صورة لزجاجة ينام بداخلها درفيل،

أو مضطرًا إلى منع زوجتك من الشامبو الذي تُفضِّله لأن دهن الخنزير يدخل في مكوناته، أو مضطرًا إلى أن تشك في رجولتك بسبب الإيميل الذي يعرض عليك زيادة قدرها عدة سنتيمترات.

أنجز مصلحتك من النت واخلع، وتعلَّم من جمال حمزة الذي استرد خلال أسابيع الأضواء التي فقدها على مدى عامين، إنه الأول في التاريخ الذي يدخل الأهلي ويخرج منه بمزاجه قبل أن يتخلَّى عنه النادي، إنها ترقيصة من التي اشتهر بها حمزة أرجو بس ألَّا تؤدي به في النهاية لإحراز هدف في نفسه، لأن لاعب الكرة في النهاية عمره في الملاعب قصير مهما طال. هذا لو افترضنا أنه سيقضي حياة سليمة بلا إصابات تقهره نفسيًّا وتسرق أحلامه مثلما حدث مع أرقى لاعبي جيله وائل رياض (شيتوس) برباطه الصليبي الذي تمزَّق ثلاث مرات وهو في عز عطائه، فأخرجه من أرضية الملعب إلى دكة التدريب. كل ما أفكر فيه أنه من المؤكد أن هذه الإصابة هي هدية ربانية لرياض الذي ربما يُصبح أسطورة عصره في التدريب. الهدايا الربانية لا تُشبه هدايانا نحن البشر بعضنا إلى بعض؛ فلا أحد فينا يعرف أين توجد المصلحة، كلٌّ يفكر في حدود عقله الضيق، ومن رحمة ربنا بنا أنه لا يستجيب لكل دعواتنا، فربما يحقق لك طلبًا ألححت عليه فيه وأنت لا تعرف أنه الأذى بعينه.

لكن هذا لا يمنع من أن تُقيِّم المرأة شخصية الرجل حسب هديته؛ فالذي يُهديها دبدوبًا رجل ساذج، ومَن يدخل عليها بطبق حلويات رجل عِشَري، الرجل الشمَّام يُهاديها بزجاجة بريفيوم، والرجل العملي يُهديها قطعة مجوهرات، حامل بوكيه الورد رجل رومانسي لكنه غير جاد، ومَن يُهديها «نجَّا» رجل يحتاج إلى معاملة أطفال، أما اللي يديها فلوس في إيدها فهو رجل بلا خيال، أما الشخص الذي لا يُقدِّم أي هدايا للمرأة فهو رجل على طبيعته.

لا أريد أن أطيل عليك، خصوصًا أن حياتك مليئة بالسخافة ولا ينقصها واحد شبهي. ولا أريد أن أشركك في حياتي الشخصية، لكنني كنت أشاهد فيلمًا تسجيليًّا عن الغابات مع ابن شقيقتي، فأطال ابن شقيقتي النظر إلى الزرافة ثم سألني: «خالو هوَّ ربنا خلق الزرافة رقبتها طويلة كده ولَّا هيَّ فيها حاجة غلط؟» أسئلة الطفولة فيها من البراءة ما يوازي شفافية الحكماء والفنانين. وأذكر أن الرسامة المكسيكية العظيمة «فريدا كالو» كانت على فراش الموت وكان آخر ما نطقت به: «أتمنى أن يكون الطريق جميلًا مثل البوَّابة التي أراها الآن، وأتمنى ألَّا أعود هنا مرة أخرى...».

كارت «الجزيرة»

أهدتني الزوجة كارت «الجزيرة» لمتابعة ماتشات كأس العالم، أهو منه لبقي عملت جِميلة تتحسب عليَّ - سأكون مطالبًا بردها في أقرب فرصة - ومنه تمنح نفسها بعض الراحة من هذا الكائن الذي يستسهل دائمًا اللجوء إليها لمساعدته في أي شيء، بدايةً من البحث عن ريموت التكييف، مرورًا بأن يتدرَّب عليها في لعبة البلاي ستيشن التي أدمنها مؤخرًا، نهاية بإيقاظها لمعرفة رأيها في المقال الجديد قبل إرساله إلى الجريدة. صرت أناديها في أي ظرف وصارت - أكرمها الله - ترد بكل صبر وأدب، إلى أنه صارت ماشية في الشقة بترد لوحدها دون أن أناديها. سيمنحها انشغالي بالمباريات واستوديوهات التحليل فرصة لالتقاط الأنفاس، فإذا كان نوم الظالم عبادة فانشغاله بالمونديال تهجُّد.

إلا أن المنحوس منحوس، ولأنني أشجِّع فريقًا عوَّدني على قلة القيمة وكسرة النَّفس والتعرض للتلقيح من اللي يسوى واللي ما يسواش، فقد كان عاديًا أن تصيبني العكننة كما يقول مهندسو الإلكترونيات: «by default»؛ فالطبيعي أن يُشجِّع الواحد منا فريقًا في بطولة المونديال يفرح لانتصاراته أو يحزن لخروجه من البطولة، لكن أن يُشجِّع الواحد ست فرق وتخرج جميعها قبل انتصاف البطولة مقهورة، فهذا هو الجديد الذي لم أكن أتوقعه!

كنت أُشجِّع الجزائر لكونها الدولة العربية الوحيدة، وأُشجِّع ساحل العاج والكاميرون ونيجيريا وغانا بحكم العِشرة، والبرازيل لكونها الموطن الأصلي للعبة، ثم تساقط الجميع كأوراق الشجر المرشوش بمبيدات مُسرطَنة. أصبح الكارت مصدرًا للإحباط بعد أن كنت أعتقد أنه حكر على الزمالك، أتاري العيب فيَّ وفي اختياراتي. كنت أُمنِّي النفس بلحظات سعادة ونشوة بالفوز من منطلق تباهي القَرعة بشعر بنت أختها، لكن تبقى في الوجدان لحظات قليلة، اضطر الواحد بعدها إلى أن يعود إلى النداء على الزوجة من جديد لتشاركه هذه المشاعر على أساس أن الجواز مشاركة وكده يعني. وكانت للأمانة مخلصة، أو ربما كانت بتاخدني على قد عقلي، فقد كانت تُعلنها صراحة في كل المحافل العائلية أنها لن تُشجِّع الجزائر، كانت تقولها بقوة كأنها تؤكد أنها لن تُجدد فترتها الرئاسية، ثم سرعان ما تخلَّت عن موقفها بعدما لمست أنني أُشجِّع من قلبي، خصوصًا في ماتش إنجلترا، فجلستْ إلى جواري قبل ماتش أمريكا بنصف ساعة تتابع الأجواء والتشكيل، وراودها الأمل كثيرًا خلال الماتش إلى أن انهرنا معًا بهدف الإقصاء، وهكذا ظللنا نحزن على الفِرق المغادرة واحدة واحدة إلى أن تعلَّقت آمالنا بالبرازيل وغانا، وبلغ من اهتمامها بماتش غانا أنها كانت تقف متأهبة في انتظار أن يأتي دورها لتشوط هي واحدة من ضربات الجزاء، لكنَّ الإحباط اكتمل وشعرنا باليُتم بعد خروج كل مَن يخصنا في المونديال.

جِميل الزوجة قررتُ أن أرده اليوم؛ فقد أهديت الكارت إلى حمايا ليتابع بقية الماتشات براحته. أما الزوجة نفسها فهي في المطبخ تُعدُّ لنا بعض الأرز باللبن، وقد أوصيتها أن ترُش وجه الطبق بتاعي بخطين حمر.

السندريلا

لم يترك لنا الجيل السابق أداة للاحتفال بعيد الأم سوى رائعة محمد عبد الوهاب «ست الحبايب». وأعتقد أن جيلي هو الوحيد الذي أفلت من سيطرة عبد الوهاب العابرة للأجيال في هذه الجزئية تحديدًا؛ حيث كان لحن الأغنية حزينًا بما يكفي لأن يجعلها لائقة لاحتفال مُراهق يتيم بهذا اليوم. اللحن على روعته كان بلغة أهل الصعيد أقرب إلى «عَدُّودة»، بدليل أنه لا يوجد شخص استمع إليها إلا وجرت دموعه حتى لو كان جالسًا فوق حِجر ست الحبايب. لا يوجد شخص استمع إليها إلا وشعر في أعماقه بخوف من أن يفقد والدته (أطال الله أعمارهن جميعًا ورحم الراحلات منهن). فات الموسيقار الكبير أنَّ هذا اليوم مناسبة عظيمة للفرحة، وهو ما أدركته سعاد حسني بفطرتها فأطلقت نشيدًا جديدًا للمناسبة: «صباح الخير يا مولاتي»، بمعاونة جاهين والطويل، فصرنا نصحو يوم عيد الأم نشعر بسعادة وبهجة ونحن نستمع إلى الأغنية قادمة من كل مكان. وكانت لحظة تاريخية توثَّقت فيها علاقة جيلي بالسندريلا.

قبلها كانت سعاد هي الأقرب إلى قلوبنا من خلال أفلامها. كنا ننظر إلى كل النجمات باحترام يليق بفارق السن بين مُشاهد ثمانيني مُراهق ونجمة من

زمن الستينيات، لكننا كنا نشعر بالسندريلا وكأنها ابنة زُمننا، وكأنها الخالة الصغرى. كنا نشعر معها أننا على راحتنا. كان لها حضور شخص من لحم ودم. نفرح لأن التلفزيون سيُذيع اليوم «الزواج على الطريقة الحديثة»، ونتعاطف مع أسلوبها خفيف الدم في التمرد والانطلاق، أو نتعاطف مع حيلها المشروعة في «صغيرة على الحُب»، أو مع دعمها العاطفي لشقيقها الخام في «عائلة زيزي». كانت عادتنا في هذه السن أن نتحرك من أمام الفيلم لقضاء أي مصلحة عندما تقطع أغنيةٌ ما الأحداث؛ يمكننا أن نشتري ما طلبته الأم حتى يُنهي فريد الأطرش وصلته، أو أن نُفتش في الثلاجة على تصبيرة حتى ينتهي حليم من شرح مأساته العاطفية، لكن السندريلا كانت تُجبرنا على أن ننتبه عندما تُغني حتى نحفظ أغنياتها التي صارت رنات هواتفنا المحمولة عندما كبرنا مثل: «ما انتش قد الحب يا قلبي» أو «يا واد يا تقيل» أو «كيكي يا كيكو». كان بيننا رباط عاطفي جعل أولاد جيلي، بل وبنات جيلي أيضًا، يرونها فتاة الأحلام.

لا أعني بهذا أن نوعية ما قدَّمته كان برَّاقًا بمقياس فترة المراهقة، بالعكس لقد سقطت منا كل أفلام المراهقة التي كانت تُضحكنا، ولم تعد تجذبنا بعد أن كبرنا إلا أفلام السندريلا، نحنُّ إليها دومًا، خصوصًا بعد أن عرفنا في الكِبر أنها فنانة أهم بكثير مما كنا نتخيل. وعندما توثَّقت العلاقة بيننا بمسلسل «هو وهي» أصبحنا نراها شخصًا أدى رسالته على أكمل وجه؛ لذلك لم يحزن بعضنا على رحيلها، ربما ارتبك البعض لغياب شريك أجمل فترات العُمر، ربما انزعج البعض لأنه كان يتوقَّع لها نهاية تليق برقتها ودفئها، ربما امتعض البعض لأنها رحلت قبل أن تعرف حقيقة مكانها بيننا بالضبط.

علّقنا أيام مراهقتنا على جدران غُرف نومنا مختلف أنواعٍ وألوان البوسترات لمعظم نجوم الرياضة والفن. كان الكبار يرون هذه البوسترات ولا يُفوّتون الفرصة للتعليق عليها؛ سواء بتعنيفنا لسُوء الاختيار، أو بالسخرية منا لسذاجة الاختيار، أو بالنصح والتوجيه لأننا مغفلون صغار. لم يسلم أي بوستر من تعليق قوي وربما مهين من الأهل؛ وحده بوستر سعاد حسني كان يُقابَل بابتسامة بدون تعليق.

الزواج على الطريقة التركية

سألت الحاج عفيفي عن ورق أبيض فارغ لأكتب مقال اليوم، ولأن «الحاجة تنادي على صاحبها» أخرج لي الحاج عفيفي الورق ومعه المقال؛ كان بين أوراقه صورة من نصوص القانون في الدولة العثمانية في بداية العشرينيات (صدرت تحديدًا في أكتوبر ١٩٢٢). كنت متأكدًا أنني المقصود بهذه الهدية لأنني أولًا لست معتادًا دائمًا على الكتابة على الورق، وثانيًا لأن الحاج عفيفي فشل في أن يتذكر الظرف الذي قاد نسخة هذا القانون إلى حقيبته، وثالثًا لأن النسخة لم تكن كاملة، كان الموجود منها الجزء الخاص بتنظيم مسألة الزواج فقط.

إليك نصوص القانون الذي احترت في تقييمه بشكل مطلق، إعجاب تام أو رفض نهائي، لكنني في النهاية كنت معجبًا به لأنني رأيت فيه رغبة جادة في تنظيم المجتمع وحمايته و... و... ما تيجوا نشوف.

١- تبدأ مدة الزواج الاختياري من سن ١٨ وتنتهي في سن ٢٥، ومَن لم يتزوج في الـ٢٥ يُجبر على الزواج.

٢- إذا امتنع الشخص عن الزواج بعد هذه السن بحجة أنه مريض يُكشف عليه، إذا كان مرضه قابلًا للشفاء يؤجل إجباره إلى أن يبرأ، وإن كان المرض غير قابل للشفاء يُمنع من الزواج.

٣- إذا امتنع الشخص عن الزواج بعد الـ ٢٥ بلا عذر شرعي يُؤخذ منه بالقوة ربع دخله، سواء كان ريع ملكه أو ربح تجارته أو أجرة صناعته، ويوضع في البنك الزراعي ليُصرف منه على مَن يريد الزواج من الفقراء إكرامًا لهم.

٤- كل مَن لم يتزوج بعد الـ ٢٥ لا يُقبل بوظيفة مطلقًا في مصالح الحكومة، ولا يُنتخب في هيئة من الهيئات، ولا يُعهد إليه بمنصب أو أمر من الأمور، وإذا كان موظفًا يتم إعفاؤه.

٥- كل مَن تجاوز الـ ٥٠ ويكون متزوجًا من امرأة واحدة، وفي استطاعته ماديًا وصحيًا أن يتزوج من أخرى يتم تكليفه بذلك ليكون شريكًا في سد حاجة من الحاجات الاجتماعية، فإذا اعتذر بأسباب معقولة يُكلف بمساعدة أولاد الفقراء والأيتام من واحد إلى ثلاثة حسب استطاعته.

٦- مَن يتزوج في سن من الـ١٨ إلى الـ٢٥ وكان فقيرًا لا يملك شيئًا يُقطع له من أرض الحكومة من ١٥٠ إلى ٣٠٠ دونم مجانًا (الدونم ٩٠٠ متر) من أقرب مكان له.

٧- وإذا كان من أرباب المصانع أو المتاجر يُعطى له رأس مال قرضًا ١٠٠ جنيه عثمانلي يُسدد على ثلاث سنوات.

٨- مَن يتزوج قبل الـ٢٥ وليس لديه أخ راشد يخدم أبويه يُعفَى من التجنيد، وكذلك البنت إذا تزوجت وليس لها أخ راشد يخدم أبويها يُعفَى زوجها من التجنيد.

٩- كل شخص تزوج قبل الـ٢٥ ورُزق بثلاثة أطفال يتم تعليمهم مجانًا في مدارس الحكومة الليلية، وإذا كانوا أكثر يتم تعليم ثلاثة مجانًا ويُصرف

لكل واحد من الباقين عشرة جنيهات من الأموال العمومية إلى أن يصبح عمره ١٣ عامًا، وكل امرأة لديها ٤ ذكور فصاعدًا تُمنح إعانة قدرها ٢٠ جنيهًا.

١٠- كل طالب يشتغل بطلب العلم في الداخل أو الخارج يؤجَّل جبره على الزواج إلى أن يُتم دراسته.

١١- مَن يُضطر إلى السفر والإقامة في الخارج بضع سنين لأي سبب وجب عليه اصطحاب زوجة أو تقديم عذر مانع من أخذ زوجته معه. وإن كان قادرًا على الزواج في البلد الآخر يُجبر عليه، ثم يتوجَّب عليه بعد العودة أن يجمع زوجتيه في مكان واحد.

هذا ملخص بنود القانون الذي أود أن أعرف رأيك فيه يا صديقي، هل تعتقد أنه صالح للتطبيق في عصرنا هذا؟

إنه قانون بلا شك يضمن للمجتمع قوامًا سليمًا متماسكًا خاليًا من العنوسة والتحرُّش الجنسي والزواج العرفي والعلاقات غير السليمة، ويمنحه قدرًا من الاستقرار النفسي، ويضع الشاب على أول طريق الحياة في الوقت المناسب؛ فلا يُضطر إلى أن يبدأ حياته السليمة بعد الخامسة والثلاثين. إنه أيضًا قانون به مساحة للتكافل الاجتماعي، يُعاقب المقصر باقتطاع جزء من دخله لصالح المحتاجين. إنه أيضًا قانون يحترم العلم، وطالبه هو الشخص الوحيد المستثنى من الإجبار إلى أن يُنهي تعليمه. ربما ترى أنه قانون سيؤدي إلى زيادة عدد السكان، وهذا موضوع محل نقاش؛ لأن المشكلة ليست في زيادة السكان ولكن المشكلة في إدارة النظام لهذه الزيادة وحُسن استفادته منها، وعندك الصين نموذج.

لكن أين حرية الناس؟ أين حريتك إذا اقتنعت بأنك شخص لا يصلح للزواج لأسباب غير مقنعة للحكومة؟ أين احترامك لفكرة أن الزواج قدر مكتوب لا يصلح معه الغصب أو الإجبار؟ أين ضماناتك حتى لا يتحول الموضوع إلى بزنس تكسب منه قطعة أرض أو تمويل لمشروعك التجاري؟ وهل يستحق الإضراب عن الزواج أو تأجيله كل هذا الكم من العقوبات التي تكاد تُصبح نفيًا داخل وطنك؟

حيّرني القانون! لكن حماس الحاج عفيفي له كان بلا حدود. سألته عن السبب فقال: كفاية إن القانون بيدلّع الرجل بعد الخمسين ويمنحه الحق في الزواج مرة أخرى. قلت له: أهي النقطة دي تحديدًا واقفة في زوري، فقال لي: اشمعنى؟ فقلت له: لأن الدلع من وجهة نظري هو أن يحصل الرجل بعد الخمسين على الحق في الطلاق.

الشيطان حصري

قالوا لنا إن الشيطان «يُسَلسَل» في رمضان، وهكذا أصبح «المُسلسل» هو الصورة الجديدة للشيطان في هذا الشهر الكريم، وهكذا تفخر كل قناة بأن الشيطان الفلاني حصري عندنا... لالا.. يا حلولّي.

أعتقد أن وزير التضامن الاجتماعي يُتابع مسلسل «أزمة سُكر» بالتناوب مع وزير الصحة. في حين أن التوأم حسام وإبراهيم حسن يتابعان برنامج «٢ ل اتنين» على الرغم من أنهما في الحقيقة اتنين في واحد، والجميع يعلم أن حلم الدوري يراودهما، وعندما سمع حسام البدري بهذه المعلومة قرر أن يتابع برنامج «حمرا».

أعضاء مجلس الشعب الذين تألقوا في مجال الردح وسب الدين ورفع الأحذية يتابعون بشكل جماعي مسلسل «الحارة»، لكن وحده محمد أبو العينين يتابع مسلسل «كليوباترا». وإذا كان وزير الداخلية يعقد اجتماعات مكثفة لمتابعة مسلسل «الجماعة»، فإن العاملين في مسلسل «الجماعة» عن بكرة أبيهم يتابعون مسلسل الأطفال «عالم سمسم»؛ فهو الوحيد الذي يتماشى مع خيالهم الدرامي. ولأن أحن قلب في العالم هو قلب الأم لذلك فأمي هي الوحيدة في العالم التي تتابع «مصري أصلي».

يسعى الدكتور السيد البدوي ببطء وبطريق غير مباشر للوصول إلى كرسي الحكم، لكنه في قرارة نفسه يعرف أنه حلم خيالي، لذلك يعرض حصريًا على قناة «الحياة» التي يمتلكها برنامج «لقاء مستحيل»، بينما يتابع البرادعي بتوجس شديد «موعد مع الوحوش». المحامي نبيه الوحش يبحث عن فرصة جديدة للوجود تحت الأضواء فيتابع يوميًا «قضية صفية»، بينما يُكثف مرتضى منصور جهوده لإعادة شوبير إلى منزله وهو في سبيله إلى ذلك يبحث عن «شاهد إثبات». شوبير اعترف في أحد البرامج أنه لجأ في أزمته الأخيرة إلى المهندس أحمد عز نظرًا لعلاقاته الخطيرة، الأمر الذي يُفسّر حرص المهندس عز الشديد على متابعة مسلسل «بيت الباشا»، في الوقت الذي يتابع فيه السيد كمال الشاذلي برنامج «دوام الحال»، بينما يجتمع قادة أحزاب المعارضة يوميًا ليتابعوا بشكل جماعي مسلسل «بره الدنيا».

إدارة مرور العاصمة منذ بداية شهر رمضان وهي تتابع «أهل كايرو»، وهشام طلعت مصطفى في محبسه يتابع «بفعل فاعل»، بينما يتابع محسن السكري مسلسل «الفوريجي»، في الوقت الذي يتابع فيه ممدوح إسماعيل صاحب العبّارة من بيته في لندن مسلسل «ريش نعام»، أما السويركي صاحب «التوحيد والنور» فهو متابع قديم لـ«راجل و٦ ستات».

هرب عماد متعب من بلجيكا ليظل قريبًا من أخيه المريض، وهو شعور إنساني يستحق الاحترام، لذلك أعتقد أن متعب يتابع مسلسل «أغلى من حياتي»، بينما يتابع الكابتن حسن شحاتة «الكبير أوي» وهذا حقه فهو رجل كبير وعادل، على العكس من أعضاء اتحاد الكرة الذين لا يعرفون معنى العدل ويجتمعون يوميًا لمتابعة مسلسل «القطة العميا»، بينما يتابع نادر شوقي أشهر وكيل لاعبين في مصر «كابتن عفت»، أما جدو فهو الوحيد في مصر الذي يتابع «زُهرة وأزواجها الخمسة».

زحمة هاني شنودة

إممم... بدأ عرض البرنامج، وبدأت أتلقى الملاحظات اللي تضايق بجد، مثل أن تقع في خطأ ساذج مثل الذي لفت نظري إليه واحد من أباطرة الإعداد التلفزيوني في مصر الأستاذ صلاح الدالي (من ألطف أعماله برنامج «أم الخير» مع الراحلة سامية الإتربي، والذي فتش في دواخل مصر الشعبية بطريقة أمتعتنا كثيرًا). الأستاذ صلاح لفت نظري إلى كوني تمطعت في برنامج «مصري أصلي» وقلت بالفم المليان وبجرأة أُحسد عليها إن أغنية «زحمة يا دنيا زحمة» للعم عدوية من ألحان حسن أبو السعود، والحقيقة أنها ألحان العبقري هاني شنودة. وأنا لديَّ حساسية من أن تسلب الآخرين نجاحهم وهذا ما فعلته دون قصد، لكن رُبَّ ضارة نافعة؛ فالكتابة عن الفنان هاني شنودة فكرة تصحو بداخلي كل فترة ثم تضيع في زحام الحياة، وحماسي لهذا الرجل ينبع من كونه صاحب نقلة حقيقية في الموسيقى المصرية، لكنه لم يحصل من التكريم على ما يوازيها في القوة.

هاني شنودة واحد من ملحنين قليلين كان رفيق مشوارهم شعراء كبار بقامة صلاح جاهين وسيد حجاب وعبد الرحيم منصور، وفي الوقت الذي كان يصنع مجدًا جديدًا لأحمد عدوية بأغنية «زحمة يا دنيا زحمة» التي تصلح

الآن كسلام جمهوري يناسب حياتنا اليومية، كان يعيد تقديم الفنانة الكبيرة نجاة بواحد من أعظم ألحانها: «أنا باعشق البحر»؛ هذا اللحن الذي سأعجز عن معرفة سر حلاوته وثبات تأثيره في النفوس على الرغم من مرور عشرات السنوات عليه، ثم لحن «باحلم معاك». وعلى هامش هذا النجاح كان يخطط لتنفيذ نصيحة العالمي نجيب محفوظ له بتكوين فرقة غنائية تُقدِّم أغنيات مصرية حديثة، فأصبح الرائد في هذا المجال بتجربة فريق «المصريين» الذي كان صلاح جاهين هو الراعي الرسمي له، وكان نشيد الفريق الرائج وقتها «ما تحسبوش يا بنات إن الجواز راحة»؛ وهو سلام جمهوري آخر يناسب أيامنا بخلاف «زحمة يا دنيا زحمة».

كان هاني شنودة يمتلك من فائض الموهبة ما يجعله يُشارك في صناعة أهم علامتين للغناء في مصر الحديثة: محمد منير وعمرو دياب. كان يقف بموسيقاه خلف تجربتين من أحلى تجارب الكنج منير: «علموني عينيكي»، ولحَّن فيه ٤ أغنيات ووزَّع الألبوم كاملًا. و«بنتولد»، وكان كله من ألحانه وتوزيعه. وقدَّم مع عمرو دياب الذي استمع إليه في حفل صغير في بور سعيد ألبوم «يا طريق». وفي الوقت نفسه كان يُعيد تقديم الكبيرة فايزة أحمد بشكل جديد في أغنية دافئة مبهجة اسمها «على وش القمر» وأغنية «دنيا جديدة».

كانت فترة مهمة في تاريخ الموسيقى في مصر. كانت النقلة في الشكل حتمية، لكنها كانت مسؤولية كبيرة لم يتصد لها أحدٌ صراحة، لكن شنودة فعلها بقوة. بعدها هجر عالم الأغنيات ببطء بعد اعتزال مطربة «المصريين» إيمان يونس، ورحيل صلاح جاهين، ثم عبد الرحيم منصور، ثم تحسين يلمظ؛ شريكه في تجربة «المصريين»، ثم تفرَّغ لعالم الموسيقى التصويرية، وقدَّم

شكلًا جديدًا أيضًا في أفلام مثل: «المشبوه»، غريب في بيتي، وشمس الزناتي، وسجل خطر، والمولد، والغول، والحريف.

شكرًا للأستاذ صلاح الدالي الذي منحني بيقظته الفرصة لأن أُعطي هذا الفنان جزءًا من حقه؛ فبقدر ما ملأ شنودة حياتنا بالموسيقى الجميلة ملأ الإعلام المصري سيرته بالصمت المُريب.

مصري أصلي

(١)

طالبني العديد من الأصدقاء بجمع المعلومات التي وردت على لساني في برنامج «مصري أصلي» الذي عرضه التلفزيون المصري في رمضان. طالبوا بجمعها في مقال يمكن الاحتفاظ به.

أسعدني تكرار الطلب، وشعرت أنني قد قدَّمت شيئًا مفيدًا ولو في حدود معلومات تاريخية وثقافية وترجمة مفردات حواراتنا اليومية. أسعدني أنه لم يسألني أحد مثلًا: «ضيفتك كانت متجوزة مين عُرفي؟ أو السيديهاية اللي ماسكها ضيفك على النائب المشهور ما تعرفش كان فيها إيه؟ أو الضيف كان قصده مين بالمسؤول أبو رجل مسلوخة؟».

هذا لا ينفي أن هناك أصدقاء رأوا في بعض الحلقات «نطاعة» ما. ويُقال رجل «نطع» أي عديم الإحساس، و«النطع» هو جلد الخروف (حسب رواية كتاب «قاموس العادات والتقاليد المصرية»). ويُطلق التعبير أيضًا على الجزء السفلي من المقصلة التي تُستخدم في تنفيذ حكم الإعدام (حسب رواية صديق أثق به كمصدر للمعلومات)؛ لأنه صديق لا يأكل «التاطورة» التي

تذهب المخ وتُحوِّل الإنسان إلى شخص فاقد التمييز، و«التاطورة» هو نبات بري ينمو في الصحراء الغربية، ويُطلِق عليه البدو اسم «التفاح الشوكي». والمادة الفعَّالة في النبات هي مادة كلوزيد الهيوسين التي تُستخدم منومًا وعلاجًا للتشنجات.

ومن حُسنْ حظ الإنسان أن يكون في حياته صديق مثقف يمكن الرجوع إليه بحثًا عن إجابة أو كما نقول كمصريين: «يا بخت مَن كان النقيب خاله». كنت حتى فترة قريبة أعتقد أنه يا بخت مَن كان خاله النقيب بمعنى نقيب الشرطة في المرور بالذات؛ حتى يساعده على استرداد الرُّخص المسحوبة. لكن «النقيب» المذكور في المثل هو بطل تقليد فلاحي وصعيدي أوشك على الانقراض، فالنقيب هو الشخص الملزم بخدمة العريس لمدة ٤٠ يومًا؛ يختار العريس شخصًا ليقضي له طلباته أيًا كانت، وليرافقه في المشاوير المهمة مرتديًا جلبابًا مشابهًا لجلباب العريس وهو تحت أمر العريس الـ ٢٤ ساعة، كان هناك أشخاص يؤدون المهمة باستهتار فيذهب مثلًا لشراء اللحم لبيت العريس فيختار أسوأ الموجود عند الجزار أو دون ضمير، مثل أن يوفِّر النقيب للعريس فياجرا مغشوشة، وكان منهم من يخلع بعد أسبوع، لذلك يحسد الناس من كان «النقيب» خاله؛ لأنه سيؤدي مهمته بمنتهى الإخلاص والحب على الأقل بحكم صلة الدم.

ولا تحلم يا صديقي أن تعثر على شخص يخدمك بإخلاص لمدة ٤٠ يومًا، الكلام ده «في المشمش». وأصل اختراع تعبير «في المشمش» يعود إلى رجل فقير الحال كان في طريق عودته إلى بيته، فقرر أن يشتري بآخر نقود في جيبه كيلو عنب لأولاده. عاد به إلى البيت، ثم زاره ضيف ثقيل فلم يجد شيئًا يضعه

أمامه سوى طبق العنب. كان الرجل يمسك حبات العنب بالحفنة بحيث تملأ يديه ثم يُلقي بها إلى فمه، شعر الرجل بأن العنب سيفنى قبل أن يتذوقه أولاده فقال لضيفه: «بالراحة يا فلان.. العنب يتّاكل واحدة واحدة»، فقال له الضيف: «ده في المشمش».

حياتنا بها الكثير من الأحلام التي أصبحت «في المشمش»، هناك مَن لا يزال يحلم، وهناك مَن قال لأحلامه «طظ». و«طظ» كلمة تركية بمعنى ملح: كان الاحتلال العثماني قد فرض ضرائب باهظة على كل شيء، وكان يستوقف الناس في الشارع ليُحصّل الضرائب على أي كيلو طماطم يحملونه، وكان الشيء الوحيد المستثنَى هو «الملح»؛ كان الجندي التركي يسمح لمواطن يحمل جوالًا بالمرور دون دفع ضريبة، فيسأله زميله: لماذا تركته هكذا؟ فيرد قائلًا: «طظ».

الاحتلال التركي كان «ابن رفضي»، و«ابن الرفضي» هو سباب ظهر في مصر أيام الدولة الفاطمية، والمقصود به «يا ابن مَن رفض بيعة سيدنا علي».

أما «أم علي» الحلوى الشهيرة، التي كل ما نعرفه عنها أن الناس تقف طوابير عليها في الأفراح؛ فهي ضُرة «شجرة الدر» التي انهالت عليها بمساعدة الجواري ضربًا بالقباقيب حتى ماتت، واحتفلت «أم علي» بهذا الحدث الذي سيسمح لابنها بالوصول للحكم بأن وضعت لكل المصريين في الشوارع أواني كبيرة، في كل واحد كمية من اللبن والخبز والزبيب ليحتفلوا معها، وهكذا خلّدت «أم علي» ذكراها في وجبة شهية ستجعل كل واحدة تفكر ألف مرة قبل أن تخطف زوج امرأة أخرى.

(٢)

قال لي صديقي: فكرة تفريغ أهم ما جاء ، برنامج «مصري أصلي» في مقالات تبدو إفلاسًا، فقلت له: بطل نفسنة وخد لك جنب واقعد اسمع أغنية فضل شاكر الجديدة «جاني» هتفكك خالص وهتبقى كويس.

يُقال: شخص «مالوش لا عيِّل ولا تيِّل»، والتيِّل هو «الوريث». ويُقال: شخص «ابن حنت»، بمعنى شديد الذكاء، والحِنت هو الثعلب الصغير. ويُقال: شخص «خرونج»، والخرونج هو الأرنب حديث الولادة.

قلت لك استمع إلى أغنية فضل شاكر، لكن من فضلك «وطّي المدعوق ده»، والمدعوق هو الرجل الذي لا يعيش له أولاد، وكلما أنجب طفلًا مات، عادة يموت صغيرًا يعني ممكن بعد «السبوع»، بعد أن يُغنَّى له «حلقاتك برجالاتك»، وهو مصطلح نردده دون أن نفهم معناه، وهو أغنية مقتبسة من أغنيات البدو الذين كان رجالهم يتزينون في الماضي بارتداء «الحلقان»، فكانوا يُغنون للأطفال «حلقاتك برجالاتك» بمعنى أنك برجال العائلة وبعزهم ومن خيرهم سترتدي الحلقان الذهب. الغنوة تُبشر الطفل بالرخاء وتفخر برجال العيلة في الوقت نفسه.

وفي عهد ما كان الثراء يُقاس بقدرة الأسرة على شراء «الكازوزة» في أي وقت، وكانت في بداية ظهورها تُستخدم كعلاج. وأصل الكلمة يعود إلى أيام الاحتلال الإنجليزي، عندما كان المشروب المثلج الوحيد المتاح هو «العرقسوس»، أحبه الإنجليز وأطلقوا عليه «إرك سوس»، ثم حُرفت الكلمة وأصبحت «كاسوس» ثم «كازوزة».

هل أعجبتك أغنية فضل شاكر؟ إذا لم تُعجبك أدعوك أن تستمع إلى أغنية محمد عدوية الجديدة «الوردة الدبلانة»، صدقني هتنبسط؛ فأنا أسعى لإراحة أعصابك، وإن كنت في قرارة نفسك تشعر أنني «بأكلك الأونطة»، والأونطة كلمة أصلها يوناني (أفانتا) بمعنى حيلة، والأونطجي هو الشخص الذي يمتلك أكبر قدر من الحِيل التي تساعده على تثبيت الناس. ومن مشتقاته الشخص الذي اشتهر بأنه «بيمسح جوخ»، وهو الشخص الذي لا يملك حيلة إلا النفاق، و«الجوخ» هو أحد أفخر أنواع الصوف ويُستخدم في تفصيل العباءات والبدل.

صديقي إذا لم تكن أعصابك قد ارتاحت بعد كل هذه الأغنيات الجميلة يبقى انت عايزلك يومين في شرم الشيخ، وهي ليست عاصمة محافظة جنوب سيناء كما قلت في إحدى الحلقات، ولكن عاصمتها هي مدينة الطور. سافر وما تقعدليش زي «اللطازانة»، واصطحب معك كتاب «معجم فرج للعامية المصرية» للمهندس سامح فرج، ومن خلاله ستعرف أن مصطلح «اللطازانة»، الذي نُطلقه على الشخص ثقيل الدم ثقيل الحضور، مشتقٌ من لغة النجارين، ويقصدون به لوح الخشب الزان الطويل العريض.

سافر واتركني في حالي فأنا ما زلت متعاطفًا مع «المدعوق» وحظه السيئ وفرحته التي لا تكتمل، فمن المؤكد أنه في أثناء الحمل أجرى لزوجته السونار الشعبي الذي يُحدد نوع الجنين؛ وفيه يقوم الرجل بوضع بذرة قمح وبذرة شعير في تربة رملية تُروى يوميًا ببول الأم، فإذا نبت الشعير فقط كان المولود ولدًا، وإذا نبت القمح فقط كان المولود بنتًا، وإذا نبت الاثنان كان ولدًا مكّارًا. ربما استطاع هذا الطفل في أول أيامه أن ينعم «بلبن المسمار»، وهو أول تدفق كامل للبن الأم. وربما أهلك نفسه بكل الحِيل الشعبية الممكنة ليحميه من

الحسد، وليستمر على قيد الحياة، مثل أن يد ، خلاص الأم تحت أحد جدران البيت، أو أن تأخذه أمه و«تشحت عليه» أم أحد المساجد البعيدة. وربما ظل لأيام يدلع الطفل ويرميه في الهواء لسهنتيمترات قائلًا: «أوبا»، ثم يلقفه بحنية. و«أوبا» كلمة يونانية بمعنى «أيتها القوة». عمومًا الرجل الذي يتحمّل مصيبة مثل تلك يستحق أن يُقال عنه رجل «جدع»، والجدع هو أحد أنواع الجمال، وهو أكثرها قدرة على تحمُّل المشقة والسفر مسافات بعيدة.

بنتين من عسل أسود

استمتعت بالفيلمين «عسل أسود» و«بنتين من مصر» على غير العادة منذ أطل علينا الموسم الصيفي بأفلامه، كنت في كل مرة أخرج وأبحث عن رقم هاتف جهاز حماية المستهلك الذي يعطيني الحق في أن أسترد أموالي إذا اكتشفت أن البضاعة مضروبة أو غير صالحة للاستخدام ما دمت أحتفظ بالفاتورة. كنت أتحسس جيبي فأجد الفاتورة (تذكرة السينما) وأهم بالاتصال بالجهاز فأكتشف أنني قد أدخل في مهاترات مع الموظف المختص إذ إن الأفلام السينمائية كبضاعة لا تدخل تحت طائلة قانون حماية المستهلك وهو الأمر الذي يحتاج لإعادة النظر من القائمين على الجهاز، فلمن ألجأ إذا اشتريت مقعدًا أمام فيلم واكتشفت أن الفيلم خطر على مستوى خصوبة المشاهد؟

المهم.. اكتشفت أن الفيلمين عبارة عن قصة واحدة ومعالجتين مختلفتين، قصة حياتنا اليومية كمصريين بمعالجة الأولى مفرطة في العواطف السطحية (عسل أسود) والثانية مفرطة في السوداوية، مع التأكيد على أن الإفراط لم يكن مبالغًا فيه للدرجة التي قد تفسد أيًا من الفيلمين.

من المقبول أن تغلب العاطفة على مشاعر مصري يعود إلى بيته بعد غياب عشرين عامًا، لكن ليس لدرجة أن يطلب من قائد الطائرة أن «يلف ويرجع

تاني» بعد أن قضى شهرًا في مصر لأنه تعلق بهذا البلد من جديد. أحمد حلمي وأحمد زويل كلاهما قضى وقتًا طويلاً في أمريكا وعاد إلى مصر ليفاجأ بالسيرك الذي نعيش فيه. في الفيلم، ولأنه فيلم، عاد حلمي مرة أخرى ليستقر في البلد، أما زويل ولأنه رجل عالم بتاع علم ومنطق ويعرف أثر الفيمتو ثانية على البشرية لم يفعلها قط واكتفى بأن يكون زائرًا خفيفًا كل فترة.

كيف يتخلى بطل «عسل أسود» عن حياته القائمة بالفعل في أمريكا والتي جعلته يتمسك بجواز سفره الأمريكي طوال أحداث الفيلم في مقابل العودة لحياة بلا ملامح لا يوجد بها أي مبرر درامي يبرر هذه العودة الساذجة؟ لو كانت لديه عائلة أو حبيبة كنا قلنا ماشي، لكن العودة بسبب الحب الذي لم يستطع ترجمته إلا باللجلجة (باحب مصر علشان تحس فيها بـ...بـ...!!!!!... فاهم؟) أراها مضللة وتليق بشاب من مدينة الرحاب يرى الحياة في البصراوي روشة جدًا، يضيق الواحد منا بالشخص الذي يظل يعدد الأسباب التي يجب أن تجعله محبًا للبلد.. فما بالك بواحد يفعل ذلك دون أن يقدم سببًا واحدًا؟

أما «بنتين من مصر» فبرغم لغته السينمائية الراقية ومهارة صناعه على كل المستويات فقد جعلني أخرج من السينما خائفًا على كل من هم حولي، أخاف على الصديقات والقريبات اللواتي لم يتزوجن بعد، أخاف على أصدقائي المثقفين المكتئبين، أخاف على أقاربي حديثي التخرج الباحثين عن فرصة وقد يقودهم هذا البحث إلى الموت أو لاستكمال حياتهم على كرسي متحرك. قدم لنا الفيلم الجانب الموجع بصراحة ومهارة لكنه لم يقل إننا لسه عايشين ونستمتع بحياتنا قدر استطاعتنا، لم يقل إننا على شفا حفرة من الاستسلام، لكننا أبدًا لن نقع فيها ونقاوم كل حسب استطاعته. البنات لا يجلسن في انتظار عريس بهذا الشغف الكئيب، بل إن معظم البنات يهربن من الزواج

إما لأنهن لا يجدن الشخص المناسب أو لأنهن يمتلكن طموحًا ما في حياتهن المهنية أو لأن بعضهن يرى الحياة في منزل بابا مثالية ولا يعوزهن شيئًا. لم يحدث أن فكرت فتاة مصرية في أن تهاجر لأنها عانس كما أوحى لنا مشهد النهاية، بخلاف أن البنت المصرية لديها من الكرامة والجدعنة ما يجعلها تأبى أن تتورط مع صديقتها في مقابلة عريس لا يملك سوى ٤٥ دقيقة ليختار واحدة منهما زوجة.

«عسل أسود» نظرة على البلد تليق بشخص مرفه قادم من أمريكا، و«بنتين من مصر» نظرة على البلد تليق بشخص لا ينظر إلا تحت قدميه. وعلى قدر استمتاعي بالفيلمين لم أتذكر بعد خروجي جملة واحدة من أي منهما تمنحنا وجهة نظر معتدلة، لكنني تذكرت رغمًا عني جملة من فيلم آخر تلخص الفيلمين؛ جملة الزعيم في طيور الظلام: «البلد دي اللي يشوفها من فوق غير اللي يشوفها من تحت».

زويل

من الصعب أن تحدد الجهة التي تهب منها السعادة عندما تعرف أن الدكتور أحمد زويل يدعوك شخصيًا لتشاركه وجبة الغداء. مشاعر مركبة أبرزها شعورك بأنك قد صعدت درجتين على الأقل على سلم اعتزازك بنفسك. يكفيك الشعور بأن هذا الرجل رأى أنك ربما تستحق بعضًا من وقته الثمين.

لا مجال هنا للكلام عن عبقرية الرجل وكرم ضيافته وخفة دمه إلى آخره من الصفات التي تليق برجل قدر قيمة جيناته المصرية فمنحته الجينات أفضل ما فيها. ولا مجال للحديث عن صدمة الرجل في العبد لله، بداية من عدم قدرتي كمصري أصيل على الالتزام بموعدي معه، مرورًا بهاتفي المحمول الذي أجبره على أن يطالبني بإغلاقه، نهاية بأنه كان يحلم أن أتكلم كثيرًا فيستمع إلى واحد من الجيل الجديد، فورطه الجيل الجديد في أن يتكلم هو طمعًا في أن يتعلم منه شيئًا مفيدًا.

تسأل زويل عن حياتنا المعاشة فيرد بالعلم وبحكايات، يترك للمستمع حرية الربط بينها وبين ما يود أن يفهمه. يقول زويل إن خبراء الطقس يقومون بدراسة أكثر من ٤٠ عنصرًا حتى يمكنهم التنبوء بما ستشهده الأيام القادمة،

تلك الدراسة الدقيقة المجهدة الطامحة لمعرفة مستقبل الجو عبر معطيات كثيرة قد يفسدها عنصر واحد غير متوقع، عنصرٌ واحد لا تراه، هو أقوى كثيرًا من كل عناصر الصورة التي تمسك بها، فهو قادر بقوة لا تتخيلها على أن يغير الصورة تمامًا.

قال الدكتور زويل أيضًا إن الخطأ الأكبر أن تشتهر بشيء ما ولا تعرف حقيقة الدور الذي يلعبه كل شيء حولك، وإنه حتى الشوائب لها دور مهم، بل إنه لولا الشوائب ما تكوّن الثلج، وإذا أحضرت كوبًا نظيفًا تمامًا وحاولت أن تجمد الماء، ستجري جزيئات الماء حول نفسها في حركة مستمرة دون أن تجد ما يوقفها فتتراكم حوله، ولكن شائبة واحدة قادرة على تجميع كل جزيئات الماء حولها فتتماسك وتكتسب صلابة غير متوقعة.

عن الحياة في مصر قال الدكتور زويل إنه كان مدعوًّا منذ سنوات لإلقاء محاضرة في جامعة الإسكندرية في موعد محدد، وانتظر صديق أكاديمي ليذهب به إلى الجامعة، وفي الموعد المحدد حضر الصديق وبدلًا من أن يتجها إلى الجامعة أخذه الصديق إلى مطعم أسماك وقضيا بعدها يومًا جميلًا طلب منه خلاله أن ينسى موضوع الندوة اليوم وليكن موعدها غدًا مش هيحصل حاجة، وأن كل ما عليه أن يستمتع اليوم، وهو ما حدث بالفعل. سألناه عن صدى تصرف مثل هذا في جامعة عالمية مثل التي يعمل بها، قال تصرف كان سيسقط على الأقل عشرة أشخاص ضحايا له، صمت الدكتور زويل قليلًا ثم قال: «بس بصراحة لما حكيت الحكاية دي لزميل أمريكاني ابتسم وقال لي بإعجاب شديد: «It is a good life»».

قال الدكتور زويل أيضًا إنه عندما يتوجه لتناول الغداء مع أوباما في البيت الأبيض بصفة المستشار العلمي للرئيس الأمريكي فإنه (أي الدكتور زويل)

يكون ملزمًا بسداد قيمة ما سيتناوله حسب النظام المعمول به هناك. قال: «أدفع الـ١٠٠ دولار فور دخولي إلى البيت الأبيض». سألناه (وكنا مجموعة صغيرة تضم أسماء لامعة في الأدب والشعر والصحافة) إن كانت هذه القصة تعني أننا مضطرون لدفع قيمة ما تناولناه، فضحك قائلًا: «مش كده بالضبط»!

قهوة السادات

قال الأستاذ هيكل إن رواية اغتيال الرئيس عبد الناصر بفنجان قهوة من صُنع الرئيس السادات رواية موجودة لكن لا دليل عليها، ولا يمكن أن يُصدقها أحد لأسباب كثيرة. انتهى الموضوع.

لكن القضية التي أقامتها السيدة رقية السادات المحبة لوالدها والمقاتلة بشراسة ضد كل مَن يحاول تلويث سُمعته كان لا بد منها؛ لأننا شعب لا يستمع إلى الجملة كاملة ويبحث عن نصفها المشتعل المثير، وإذا استمع إليها كاملة فهو يتعامل بها بروح متربصة تقلب الحقائق وتثبت الكذبة وترددها حتى تصبح حقيقة واقعة.

الناس في مصر «ماماش أمان»، والشخصيات العامة على شفا حفرة من السقوط مهما عظمت قاعدة محبيها ومهما كان نجاحها مدويًا، لكن الشهرة والنجاح في دول العالم الثالث مهلكة، وتاريخنا يشهد على المقلب الذي شربه الكبار على يد الجماهير في غمضة عين: عبد الحليم يطلب من جمهوره أن يصمت ليستمع إلى «قارئة الفنجان» فتثور الدنيا كلها عليه، ويضغط الناس مطالبين باعتذار من الشخص الذي أفنى عمره في إرضائهم، يعتذر عبد الحليم وهو مصدوم فيموت بعدها بأسابيع وقد توقفت علاقته بالناس عند هذا المشهد.

بليغ حمدي أمل مصر في الموسيقى - على حد تعبير معاصريه - في إحدى السهرات بمنزله تنتحر فتاة مغربية بإلقاء نفسها من نافذة البيت؛ يصبح بليغ فجأة نزيل أحد السجون، ويقرأ بنفسه الصحف وهي تتهمه بأنه قوّاد يفتح منزله للسهرات الماجنة، يهرب من وطنه الذي حوّل كل شيء فيه إلى موسيقى، ويعيش كهلًا غريبًا في باريس قبل أن يعود وقد انكسر فيه شيء. نجيب محفوظ الذي قصص الوطن في حواديت وقصص تؤرّخ حياتنا وتصفها، مثلما فعل الفراعنة بنقوشهم على المعابد، يتلقى طعنة سكين في رقبته من أحد أفراد الشعب الذي اتفق بعضه على أن محفوظ كافر. حسن شحاتة بعد أن حصل على توكيل البهجة الوحيد في الوطن على مدى أربع سنوات يتعادل في مباراة فيخرج الناس والصحف والمحللون والأصدقاء القدامى مطالبين بتغييره وعزله من منصبه وإعدامه كرويًا. الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور أحد من نفخر بهم في هذا المجال، فرضت عليه الحكومة واتفاقية السلام أن تكون إسرائيل ضيفًا في معرض الكتاب عندما كان رئيسًا لهيئة الكتاب، يموت بأزمة قلبية لأن أصدقاءه المثقفين اعتبروه بعد كل هذا العمر خائنًا وقالوا له في وجهه: «إنت بعت القضية يا صلاح». حتى الأستاذ هيكل نفسه أصبح مرمى لحجارة صبية الصحافة والإعلام المتربصين الباحثين عن الشهرة.

الناس لا يرحمون ولا يُعمِلون ذاكرتهم بكفاءة إلا عند البحث عن ثغرة في حياة الناجحين والشخصيات العامة لهدمها: سعد زغلول كان مدمنًا للقمار. السادات كان يضع الحشيش في البايب. سعاد حسني ماتت كافرة. مصطفى أمين كان جاسوسًا. طلعت حرب كان شاذًا جنسيًا. سيد درويش كان مُدمنًا.. قائمة لا تنتهي من التجريح والاتهامات التي يعشق الناس عندنا تصديقها واستخدامها في أول فرصة لهدم الكبار. جرأة الناس التي تكاد تصبح وقاحة لا يمكن أن تراها في مواجهة أمين شرطة قد يستوقفهم في الشارع بطريقة

مهنة. الناس جبانة؛ تهاجم عندما يكون الهجوم جماعيًّا ومستترًا، بالضبط مثل هواة التعليق على المقالات في المواقع الإلكترونية للصحف.

كان كلام الأستاذ هيكل واضحًا؛ حكى الرواية وقال إنه هو شخصيًّا لا يُصدقها، لكن المشكلة يا أستاذي الكبير أن الناس ستشتري منك نصف كلامك فقط (الرواية) وستُسقط النصف الثاني (تشكيكك فيها)، وستصبح الرواية المشكوك فيها بمرور الوقت حقيقة، لذلك ستكون هذه المرة الأولى في حياتي التي أوافق فيها على مقاضاة (لن أقول زميلًا) ولكن أحد رواد المهنة الكبار.

لبس الشغل

لا بد أن تؤمن يا صديقي بنظرية «لِبس الشُّغل»، وستجدها فارقة معك في تقييم كفاءة وجودة مهنية من تتعامل معه: لا تثق في طبيب يرتدي معطفًا مُتسخًا أو غير مكوي بعناية، ولا تأمن لميكانيكي يفحص سيارتك وهو يرتدي الجينز، لا تأكل من يد بائع ساندويتشات يرتدي مريلة ضاع لونها من كثرة البُقع، لا تفرح بفلاح يقف في أرضه مرتديًا الترنج، ستكون مُرغمًا على احترام المكان الذي يقف في مدخله شخص بأزرق السيكيورتي، لكنك ستفكر كثيرًا قبل أن تترك مفاتيح سيارتك لسايس يرتدي جلبابًا، سيكون صعبًا أن تثق بنقّاش يبدأ العمل في منزلك بملابس جديدة، ولكن ستكون متأكدًا أنك قد ضعت إذا ما وصل إلى المكان الذي اشتعلت فيه النيران جندي مطافئ يرتدي ملابس رجال الإنقاذ النهري.

نظرة أي شخص إلى مهنته سترى لها تطبيقًا على ما يرتديه في أثناء العمل؛ المهن التي لا [illegible] فيها للاستهتار لا تتخلى أبدًا عن احترام الزِّي، وتعاقب من [illegible] والجيش والشُّرطة والمحاماة.

ستجد فارقًا بين أبناء المهنة الواحدة التي لا تُلزم أحدًا بزيٍّ معين، هذا الفارق مرتبط بما يرتدونه في أثناء العمل؛ شُغل رئيس التحرير الذي يرتدي

بنطلونًا وقميصًا غير شُغل رئيس تحرير ببدلة كاملة، لا تسألني أيهما أفضل؟ فهذا يعود لما تبحث عنه في الصحافة: هل هي أخبار بكرافتة أم مانشيتات بأكمام مشمرة؟

«لِبس الشُّغل» خادع أحيانًا: مثل الزي الرسمي للكنّاسين الذي أصبح يؤجَّر للمتسولين مثل الأطفال المخطوفين، وفانلات الأندية الكبيرة التي قد يرتديها ضعيف الموهبة في غفلة من الزمن، والجلباب البلدي الذي قد يرتديه مرشح الانتخابات في أثناء جولته بين المرشحين، أو ملابس رجل الدين الذي يحمل ضغينة ما وأفكارًا هدّامة تختبئ تحت قدسية كلماته.

ستسألني عن السياسة، أرى أن «لِبس الشُّغل» الذي يليق ببلدنا هو «بدلة الزعيم جمال عبد الناصر».

لا تحبه؟

لا يهم، ولن أتورط في إقناعك بمحبته أو بتقديره على الأقل؛ لأن «اللي ما يشوفش من الغُربال يبقى أعمى».

ستقول لي: له عيوب! أرجوك ضع هذه العيوب في قائمة مقارنة بعيوب الآخرين لتعرف الفارق جيدًا.

هل تفرح بهامش الحرية وفرح الديمقراطية التي نعيش فيها الآن؟ فلترفع إصبعك وتشير إلى ترجمة حقيقية لها، الكلاب تعوي والقافلة تحمل خيرات البلد وتسير.

هل تفرح بالكباري و«سيتي ستارز» ومارينا وجولف العين السخنة؟ لقد أصبح التطور في بلدنا مجرد شكل، لكن المضمون خرب للغاية. وصل الإنسان إلى القمر، لكنه يجد مشقة في عبور الشارع لزيارة قريب له قد تُكتشف جثته بعد أيام من وفاته.

بدلة عبد الناصر هي «لِبس الشُّغل»؛ لأنه أولًا له أخطاء، لكنها كانت أخطاء في سياق مشروع واضح. لو كانت الأمور عبثية كما هو جارٍ الآن لتاهت الأخطاء والكوارث التي نغطيها الآن بسهولة بكأس الأمم، أو بعقد جدو، أو بإنفلونزا الخنازير، أو بقضية سوزان تميم. لكن أخطاء عبد الناصر ظهرت بينما يبني بلدًا ويُعلي من شأن مواطن، ظهرت على هامش مصانع، وتعليم، وتأميم زراعي، وسد عالٍ، ونهضة ثقافية شاملة في كل المجالات، وهيبة أمام العرب والعالم، ومشروع قومي له ما له وعليه ما عليه.

لست بصدد الدفاع عن جمال عبد الناصر، شخص عاش أسبوعًا واحدًا في عهده أقدر على هذه المهمة مني، ولكنني اكتشفت فجأة أنني مصاب بعقدة «لِبس الشُّغل»، ولديَّ مشكلة كبيرة في أن أُصدِّق شخصًا ينزل الشُّغل وهو يرتدي «لِبس شُغل» ليس على مقاسه.